غوستاف لو بون

سيكولوجية الجماهير

ترجمة وتقديم
هاشم صالح

دار الساقي

سيكولوجية الجماهير

سيكولوجية الجماهير

الفكر الغربي الحديث

غوستاف لو بون

سيكولوجية الجماهير

ترجمة وتقديم

هاشم صالح

دار الساقي

Gostave Le Bon: Psychologie des foules

الطبعة العربية :
© دار الساقي
الطبعة الأولى ١٩٩١
جميع الحقوق محفوظة

ISBN 1 85516 815 4

United Kingdom: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Lebanon: P.O.Box: 113/ 5342, Beirut. ، ١١٣ /٥٣٤٢ : بيروت، لبنان ص.ب

مقدمة إلى علم النفس الاجتماعي
وفكر غوستاف لوبون

بقلم: هاشم صالح

من المعروف أن علم النفس يهتم عادة بدراسة النفسية الفردية ومشاكلها في فترة الطفولة والمراهقة خصوصاً. وعلم التحليل النفسي الذي أسسه فرويد قائم على استبطان الذات الفردية لا الجماعية من أجل تشخيص عقدها النفسية التي قد تكون ابتليت بها في طفولتها الأولى تمهيداً لتحليلها ثم لعلاجها إذا أمكن ذلك. ونحن نعلم مدى تعقيد مصطلحات علم النفس والتحليل النفسي ومدى تشعب مدارسه واتجاهاته وفروعه. ولكن يوجد هناك علم آخر يستخدم مصطلحات علم النفس بطريقة أخرى: إنه علم النفس الاجتماعي. وهو غير معروف كثيراً لدينا على الرغم من أنه أصبح أحد العلوم الإنسانية الأساسية: كعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الأنتربولوجيا (أي الإنسان)، وعلم الإتنولوجيا (أي الإناسة أو الشعوب)، وعلم الألسنيات، وعلم الاقتصاد السياسي، وعلم التاريخ، إلخ. وهذا العلم متطور جداً في الولايات المتحدة الأمريكية، وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية. والواقع أن مؤسسيه الأوائل هم الفرنسيون وغوستاف لوبون بالذات، ولكنهم أهملوه فيما بعد وتأخروا عن ركب البحث في هذا المجال كثيراً. وهدفه دراسة الصراع الناشب بين الفرد والمجتمع كمرحلة أولى، أي مدى انسجام الفرد اجتماعياً أو شذوذه عن خط المجتمع. ولكن العلم يتجاوز هذه المسألة فيما بعد لكي يدرس سلوك المجموعات في المجتمع وليس الأفراد فقط. نقصد الفئات الاجتماعية، أو الطبقات، أو الأقليات، أو الطوائف الدينية. إلخ... والواقع أن هناك تكاملاً بين العلمين وليس

تناقضاً: فعلم النفس الفردي يكمله علم النفس الاجتماعي أو الجماعي. فمن الصعب، إن لم يكن من المستحيل، عزل السلوك الفردي عن الوسط الاجتماعي ـ الثقافي المحيط به. كما أنـه من غير الدقيق أن نحـرم الذات الفردية من نواياها الخاصة ومشاعرها الذاتية. فكلا الجانبين في حالة تداخل وتفاعل، أو صـدام وتنافـر.

ولكن الشيء المعروف والمتفق عليه أيضاً من قبل كل علماء النفس ـ بمن فيهم فرويد ـ أن الفرد ما إن ينخرط في جمهور محـدد حتى يتخـذ سمات خاصة ما كانت موجودة فيه سابقاً. أو قل إنها كانت موجودة ولكنه لم يـكن يجـرؤ على البوح بها أو التعبير عنها بمثل هذه الصراحة والقوة. لهـذا السبب يمكن القول بـأن علم النفس المطبق على الجماعات ـ أو على الجماهير ـ يختلف من حيث المنهج والنتائج عن علم النفس الفردي. وبالتـالي فله خصوصيته المشروعة. لـيس غريباً ـ والحالة هـذه ـ أن يكون قد تشكل على هيئة علم متمايز يحتل أهمية كـبيرة في ساحة العلوم الإنسانية الحـديثة.

بـالطبع فـإن لعلم النفس الاجتماعي تاريخاً طويلاً، ويمكننا أن نعود به إلى أقـدم الفلاسفة والعصور كأفلاطون وأرسطو مروراً بالمفكر العربي ابن خـلدون الذي درس في القرن الرابع عشر مسألة انحـطاط الدولة الإسلامية في إسبانيا. ومن المعروف أنه كان تلميذاً لفلسفة أرسطو من خـلال ابن رشد. وقد حـاول استخـلاص القوانين العامة التي تتحـكم بتطور الجماعات البشرية وانحطاطها عن طريق أخـذ العوامل الاقتصادية والنفسية (كمسألة العصبية) بعين الاعتبار. ولكن هذه التأملات تبقى بـدائية وبعيدة جـداً بطبيعة الحال عن مناهج علم النفس الاجتماعي الحـديث ووسائله في العمل. ويمكن أن نذكر بالطبع كـرواد بعيدين لهذا العلم أسماء العديد من الفلاسفة الأوروبيين الذين تتابعوا من عصر النهضة وحـتى اليوم كهوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩)، وجان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨)، وفورييه (١٧٩٢ ـ ١٨٣٧)، وأوغست كونت مؤسس علم الاجتماع (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧).

ولكن كان ينبغي أن ننتظر مجيء القرن العشرين لكي يتأسس علمٍ النفس الاجتماعي على أسس علمية راسخة. وينبغي التفريق هنا قليلاً بين علم النفس الاجتماعي وعلم النفس الجماعي (Psychologie sociale, psychologie collective). فالثاني يمكن اعتباره فرعاً من فروع الأول. ذلك أن علم النفس الاجتماعي يدرس، كما قلنا سابقا، العلاقة بين الفرد والمجتمع. ثم عمليات دمج الإنسان في المجتمع أو تحويله إلى كائن اجتماعي. إنه يقوم بالدراسة العلمية للفرد بصفته إنساناً متأثراً بأفراد آخرين وبالمجتمع ككل. وبالتالي فهو يدرس كل المشاكل المتعلقة بالتربية والتثاقف والوسط الاجتماعي الثقافي والتمرين الاجتماعي وتأثيره على الدائرة العاطفية والسلوكية للفرد. وفيها نجد مشاكل البلورة الاجتماعية ـ الثقافية للشخصية (شخصية الفرد) مع كل المفاهيم التي تتضمنها: كمفهوم الدور الذي يلعبه الفرد، ومكانته، ومعايير السلوك الطبيعية أو الشاذة ثم علاقات الأشخاص ببعضهم البعض مع كل عمليات التفاعل والتواصل.

ووسائل العمل التي يستخدمها علم النفس الاجتماعي هي: الروائز الخاصة بعلم المقاييس النفسية (دراسة درجة الذكاء مثلاً)، والاستفتاء، والمقابلات، والتحريات الميدانية، والتجارب المخبرية. وفي حوالي عام (١٩٤٠) كانت تتنازعه ثلاثة تيارات أساسية هي التيار السلوكي (behavioriste) أو التجريبي من حيث المنهج، التيار التحليلي النفسي (أو العيادي الطبي)، والتيار الثقافي المعتمد على علم الإناسة (الإتنولوجيا).

ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم كثرت الدراسات الميدانية والمخبرية في مجال علم النفس الاجتماعي واتخذت أهمية قصوى، نظرية وتطبيقية، في العالم الأنغلوساكسوني. ثم حاولت فرنسا مؤخراً اللحاق بالركب وتدارك ما فات من خلال بعض البحوث الموفقة التي جرت طيلة العشرين سنة الماضية في بعض مراكز البحوث. وتوزعت الاهتمامات بشكل أساسي على المحورين التاليين:

١ ـ مجموعة البحوث المتمحورة حول مسألة تكوين الشخصية ودمجها في الوسط الاجتماعي. وقد استخدمت مكتسبات علم الإناسة والتحليل النفسي ونظريات التدرب أو التمرين. وهذه المدرسة وريثة عالمة الأنتربولوجيا الأمريكية مرغريت ميد (Margaret Mead) إلى حد كبير.

٢ ـ مجموعة بحوث متمحورة حول دراسة الخلافات والتمايزات الموجودة بين الشعوب والأجناس المختلفة. ومنها بحوث أوتو كلينبيرج الخاصة بدراسة الطبقات الاجتماعية والفئات العرقية والقومية. وقد ابتدأت هذه البحوث في الولايات المتحدة، وهي متواصلة في فرنسا حالياً في رحاب المدرسة التطبيقية للدراسات العليا. وأوتو كلينبيرج هو الذي كتب مقدمة الكتاب الذي ترجمناه هنا «سيكولوجية الجماهير». أو «نفسية الجماهير».

أما علم النفس الجماعي (La psychologie collective) فهو ليس إلا الفرع الأخير من فروع علم النفس الاجتماعي، وكثيرا ما يدرس كآخر فصل من فصوله، وكأنه شيء مهمل أو ثانوي. ولكن يبدو من الصعب في عصرنا هذا إهمال مثل هذا العلم الخطير حيث نجد أن كل شيء يعبر عن نفسه بواسطة الكمية والعدد (كالاقتصاد، والدعاية، والإعلان، والايديولوجيات السياسية أو الحزبية أو النقابية أو الدينية، ثم الاضطرابات الاجتماعية التي تقوم بها الجماهير، والاضطرابات العمالية أو الطلابية، والثورات، إلخ . . .). كل هذه الظواهر تندرج تحت إطار علم النفس الجماعي، أو علم نفسية الجماهير وبالتالي فمن الصعب إهمالها أو استبعادها من ساحة الدراسة العلمية. نقول ذلك وخصوصاً أن علم النفس الجماعي سابق من حيث المنشأ الزمني على علم النفس الاجتماعي، فهو قد نشأ في القرن التاسع عشر على يد بعض الباحثين الإيطاليين قبل أن يتبلور بشكل علمي على يد غوستاف لوبون. يضاف إلى ذلك أن علم النفس الجماعي أو الجماهيري كان أول من اهتم بمسألة هامة جداً: هي مسألة تلك الجاذبية الساحرة التي يمارسها بعض القادة أو الديكتاتوريين على الجماهير والشعوب. وعلم النفس الجماعي

يفيدنا ويضيء عقولنا عندما يشرح لنا جـذور تصرفاتنا العمياء والأسباب التي تدفعنـا للإنخـراط في جمهور ما والتحـمس أشد الحماسة للزعيم، فـلا نـعي ما فعلناه إلا بعد أن نستفيق من الغيبوبة. وربما جعلنـا ذلك أكثر حيطة وحـذراً في «الإنبطـاح» أمام زعيم جـديد قد يظهر.

دور فرويد في تطوير علم نفسية الجماهير

قبل أن نتحـدث عن دور غوستاف لوبون في هـذا المجال، فـإننا سنكرس فقرة قصيرة للدور الـذي لعبه مؤسس التحـليل النفسي: سيغموند فرويد. كنا قد ذكرنا سابقاً بـأن التحليل النفسي يهتم بتحليل الشخصية الفردية لا الجماعية. ليس غريباً والحـالة هذه أن تـكون الكتب التي خصصها فرويد لدراسة علم النفس الجماعي قد جـاءت في المرحلة الأخيرة من حياته. ولهـذا السبب اعتبرها تلامذته بمثابة اللاعلمية لأنها متأثـرة بالشيخوخة والمرض. والواقـع أنهم كانوا يأنفون من أن يهتـم التحليل النفسي بشيء آخـر غير الشخصية الفردية. من هنا إهمالهم لأعمال فرويد الأخـيرة أو تغاضيهم عنها وكأنها تحرجهم أو تسيء إلى سمعة الأعمال الأولى الموصوفة وحـدها بالعلمية والجدية، ولكـن التـاريخ أثبت صحة نبوءات فرويد وتحـليلاته المتضمنة في هذه الكتب أكثر مما نتوقع. ففرويد الـذي شهد الحرب العالمية الأولى وتصاعـد الحملات المضادة للسامية في أوروبا الغربية واضطرته الأحـداث فيما بعد للهجـرة إلى انكلترا ما كان بـإمكانه إلا أن يطرح بعض التساؤلات على ظاهـرة الجماهير وكيف تتحرك وتهتـاج وتلعـب دوراً كـبيراً في حركة التـاريخ. فقد كانت جماهير النازية والفاشية أمامه في طور التحضير والتهيئة. ومن أهـم كتبه في هـذا المجال «علم النفس الجماعي وتحـليل الأنا» و «مستقبل وهم».

وفيهما يبين فرويد أوجه التشابه بين بعض الطقوس الشعائرية والممـارسات الهوسية، ويوضح مـدى الأهمية والضخامة التي يمكن أن تتخذها أوهام الفكر السحري أو العقائد اللاعقلانية. وأما كتاباه الآخـران اللذان صدرا فيما بعد فيشكلان استمرارية لما سبق ومداً للتحليلات

السابقة لكي تشمل المؤسسات الاجتماعية والسياسية أيضاً. وهما «توعُّك في الحضارة» و «موسى والديانة التوحيدية».

والواقع أن علم النفس الجماعي بالنسبة لفرويد ليس إلا نقلاً لمصطلحات التحليل النفسي وتطبيقها على العلم المذكور مع إجراء بعض التعديلات عليها بالطبع لكي تتناسب مع الجماعة أو الجمهور. ففرويد يرى أن لب المشكلة يكمن في الأعماق في كلتا الجهتين: جهة الفرد وجهة الجماعة. وعندما يقول في الأعماق فإنه يقصد اللاوعي بالطبع. هذا على الرغم من أنه يرفض فكرة اللاوعي الجماعي التي يستخدمها كل من يونغ وغوستاف لوبون. فالتحليل النفسي الذي أسسه هو وحده العلمي وليس ذلك الذي أسسه يونغ. وبالتالي فنفس المفاهيم والآليات التي وجدها في اللاوعي الفردي سوف يطبقها على اللاوعي الخاص بالجماعة. وهكذا نجد مصطلح الليبيدو، أي الطاقة الشبقية الحيوية التي تتمثل فيها غريزة الحياة، في صلب الموضوع. وكذلك الغرائز الجنسية والعدوانية، ومفهوم الأنا والأنا العليا، إلخ...

ويرى روبير ماندرو، أحد رواد علم النفس التاريخي أو تاريخ العقليات في فرنسا، أن فرويد كان يريد اكتشاف المنهجية التي تمكنه من «ردم الهوة التي تفصل علم النفس الفردي عن علم النفس الجماعي». ولكن بعض الاتباع الذين جاؤوا على أثره حاولوا دراسة الجماهير والشعوب على هواهم: أي عن طريق المبالغة في استخدام مصطلحات التسميم (تسميم النفوس عن طريق الإشاعات)، والتلاعب بالناس، ووسائل الدعاية. ويرى ماندرو ضرورة الحذر والأناة فيما يخص هذه النقطة ويذكرنا بالبدهية التالية: إن النفسية الجماعية لفئة ما ليست هي مجموع النفسيات الفردية لأعضائها. كما أن الجماعة ليست محصلة لمجموع الأفراد. وهذا يشبه ما يقوله لوبون عن اختلاف الفرد المعزول أو الواحد، عن الجمهور. فما أن ينخرط الفرد في الجمهور حتى يتغير وينصهر.

وبالتالي فـإن مناهج التحليل النفسي الخاصة بالأفراد لا يمكن نقلها إلى ساحة الجماعات وتطبيقها عليها إلا في حـدود ضيقة جداً، وبعد التعديل الكثير. ولكن الرأي العام الشائع يطبق هذه الأشياء على طريقة الأحـكامِ المسبقة كما هـو معلوم. وهي أحكام عنصرية في جوهرها لأنهـا تقول مثلاً بـأن المسلم متعصب لأنه مسلم، أو أن العربي متخلِّف بجوهره وعاجز عن صنع الحضارة لمجـرد أنه عربي (وهي أحـكام عنصرية منتشرة جـداً في أوساط اليمين المتطرف الأوروبي منذ القرن التـاسع عشر وحـتى اليوم. انظر بعض تصريحـات جـان ماري لوبـان زعيم اليمين المتطرف في فرنسا مثلاً).

وهنا يمكن أن نفتح قوساً ونقول بـأن تركيز غوستاف لوبون على مسألـة العرق وأنه هو العامل الحاسم في تحـديد سلوك الشعوب والأفراد قد أصبح بالياً ومدحوضاً من الناحية العلمية. ولا يمكن فهم مثل هذا الإلحـاح على مسألة العرق إلا إذا موضعناها ضمن سياقها التـاريخي في القرن التـاسع عشر حـيث ازدهـرت النظريات العنصرية وتطورت جـدا وارتبطت بالفلسفة الوضعية أو بصيغة مبتذلة من صيغ الوضعية والعلموية لا العلمية (Scientisme) فحـتى فرويد نفسه لم ينـجُ منها لأنهـا كـانت تشكل الايديولوجيا المنبثـة لعصر بأكمله، فهـو يكتب مثلاً: «كـل فرد ينتمي إلى عـدة أرواح جماعية: روح عرقه، وروح طبقته، وروح طائفته...»[1].

مهما يـكن من أمر، فـإنه من المبـاح استخـدام مناهج علم النفس والتحليل النفسي في دراسة الجماهير بشرط التروي في ذلك وعـدم التهور. وبشرط عـدم استخـدامها لترسيخ الأحكام العنصرية كما يفعل لوبون أحياناً. فالجماهير هي الجماهير أينما كانت، ولا معنى للتفريق بين جمهور لاتيني وجمهور أنغلوساكسوني وجمهور إسلامي أو عربي، إلخ... فـإذا ما وجـدت في ظـروف تاريخية معينة انفجـرت الجماهير ودمرت، أو أفـادت وضحـت بنفسها بكل سخاء وكرم من أجـل القضايا الكبرى. ويمكننا إذا ما استخـدمنا مصطلحات التحليل النفسي بـذكاء واعتـدال أن نفسر الظواهر الخاصة بالجماهير كظاهرة «العـدوى» أو

«التحريض» مثلاً. وهـذا ما فعله المؤرخ الفرنسي الكبير جـورج لوفيفر في دراساته عن الثورة الفرنسية. فقد استخدمها واستفاد من بحـوث لوبون بشكل إيجـابي ومعقول من أجـل فهم ظاهرة الجماهير الثورية (انظر كتابه: دراسات حول الثورة الفرنسية، عام ١٩٥٤، المطبوعات الجامعية الفرنسية).

علم الجماهير بين الايديولوجيات الدينية والايديولوجيات السياسية

في الماضي كان الدين، أو بالأحـرى كانت الايديولوجيا الدينية هي التي تهيج الجماهير وتجيشها لكي تنخـرط في الحركات الكبرى (كالحـروب الصليبية مثلاً، أو كالدعاية العباسية التي قلبت الدولة الأموية، إلخ...). ولكن بعد أن تعلمنت أوروبا في العصور الحديثة حـلت الايديولوجيات السياسية محل الايديولوجيات الدينية في القيام بهذه المهمة. وأصبحت الأحـزاب السياسية والنقابات العمالية هي التي تعبىء الجماهير وتجعلها تنزل إلى الشارع. وبـدلاً من حـروب الأديان السابقة بين البروتستانت والكاثوليك، حـلت الحـروب العلمانية بين الأحـزاب الاشتراكية والأحـزاب الليبرالية. يقـول الباحـث ب. أديلمان بهذا الصدد ما يلي: «لقد حـلت السياسة محـل الدين، ولكنها استعارت منه نفس الخصائص النفسية. بمعنى آخـر أصبحت السياسة ديناً معلمناً، وكما في الدين فقـد أصبح البشر عبيداً لتصوراتهم الخاصة بالذات»[٢]. ولكننا شهدنا في السنوات الأخـيرة تجييشاً كـبيراً للجماهير بواسطة الدين أو بالأحـرى الايديولوجيـات الدينية في البلدان غير الأوروبية وغير المعلمنة.

ولم يـكن علم الجماهير قد اهتم حـتى ذلك التـاريخ إلا بالحركـات الاجتماعية بشكل عام (كالفتنة، والهيـاج الشعبي، والاضرابات والتنظيمـات النقابية والعمالية). هـذا بالإضافة إلى اهتمامه بالحـروب الصليبية التي جـرت في الماضي.

ولكـن بـدءاً من عصرنـا الحاضر - وفي العشرين سنة الأخـيرة

بشكل خـاص ـ راح بعض الباحثين يهتمون بظاهـرة جديدة هي الجماهـير السياسية المؤطّرة. وعلى أثر أعمـال غوستاف لوبون وفرويد وتـارد ظهـر باحثون جـدد اهتموا بـدراسة الظاهـرة من أمثـال عالم الاجتماع الفرنسي المعروف جـان بودريار وكتـابه «في ظل الأغلبيات الصامتة»، ثم بـول أديلمان المذكور آنفاً و «إنسان الجماهير»، ثم سيرج موسكوفتشي و «عصر الجماهير».

وكـل هؤلاء البـاحثين يطرحون، وإن بأساليب مختلفة، سؤالاً واحـداً يتعلق بمسألة هـذه الظاهر الجديدة التي تـدعى: الجماهير. ثم يتساءلون عن مسألة صعودها القوي على مسرح التـاريخ المعاصر. كما أن القادة المحركين للجماهير من أمثـال: هتلـر، موسوليني، ستـالين، ماوتسي تونغ، غانـدي، قد أصبحـوا موضع تساؤل (بغض النظر عن حـكم القيمة الإيجـابي الذي يمكن أن نطلقه على هذا الأخير تمييزاً له عن البقية، فهـو على طرفي نقيض من هتلـر مثلاً. فالمسألة تخـص القدرة على التجييش وحجـم هذا التجييش أساساً).

والسؤال الذي يطرحه علم الجماهير، أو علم النفس الجماعي، هو التـالي: كـيف أمكن لهؤلاء القادة أن يجيشوا الجماهير بمثل هذا الحـجم؟

بـالطبع لم يعد الباحـثون اليوم يهدفون من وراء القيام بهذه البحـوث إلى اكتشاف طريقة لمعرفة كيفية السيطرة على الجماهير والتحـكم بها كما كـان يفعل غوستاف لوبون، وإنما يهدفون بالدرجة الأولى إلى دراسة الشروط التي تجعل انبثـاق ظاهرة الجماهير ممكنة في هـذا البلد أو ذاك، في هـذا الظرف الزمني المحـدد أو ذاك والتي قد تؤدي إلى توليد أشكال من الحـكم ديمقراطية، أو أشكال أخـرى ديكتاتورية واستبـدادية.

من هو غوستاف لوبون؟

إنه أولاً وقبل كـل شيء مؤسس «علم نفسية الجماهير». وقد ولد

في منطقة النورماندي عام (١٨٤١) ومات في باريس عن عمر طويل عام (١٩٣١). وكان ذا روح موسوعية من حيث البحث عن المعرفة، وقد كتب في العديد من المجالات والفروع العلمية. فمن علم الطب في البداية إلى علم الفيزياء النظرية إلى علم الأنتربولوجيا والآثار في الهند كان مسار لوبون طويلاً ومتشعباً. وقد انتهى به أخيراً إلى ساحة علم الاجتماع والنفس أو بالأحرى علم النفس الاجتماعي حيث أعطى خيرة ما عنده ونال شهرة كبيرة. ويكفي أن نذكر هنا بعض أسماء كتبه التي لاقت رواجاً منقطع النظير في وقتها لكي نعطي فكرة عن مدى اتساع معرفته وتشعب همومه واهتماماته:

١ ـ حضارة العرب (١٨٨٤).

لحسن الحظ أن الشركة الوطنية للطباعة والتوزيع في الجزائر قد أعادت طبع هذا الكتاب عام ١٩٦٩، أي بعد حوالي المائة عام على صدوره! (٤٩٤ صفحة).

٢ ـ حضارات الهند (١٨٨٧).

٣ ـ الحضارات الأولى (١٨٨٩).

٤ ـ القوانين النفسية لتطور الشعوب (١٨٩٤).

٥ ـ سيكولوجية الجماهير (أي علم نفسية الجماهير) (١٨٩٥).

وهو الذي نقدم ترجمته الآن إلى القارىء العربي.

٦ ـ سيكولوجية الاشتراكية (أي تحليل الاشتراكية من وجهة نظر نفسية).

٧ ـ الآراء والعقائد (١٩١١).

٨ ـ الثورة الفرنسية وسيكولوجية الثورات.

هذه هي بعض عناوين كتبه الأساسية التي تزيد عن الخمسين كتاباً ما عدا المقالات. وهناك أيضاً كتاب آخر له بعنوان ممتع وجميل جداً هو: **حياة الحقائق (١٩١٤).**

وقد أُعيد طبعه مؤخراً في باريس من قبل جمعية أصدقاء غوستاف لوبون. وفيه يستعرض أبستمولوجيته، أي نظريته في فلسفة المعرفة. فالحقائق ليست مطلقة ولا أبدية، وإنما لها تاريخ محدد بدقة، وعمرها قد لا يتجاوز عمر الزهور، أو قد يتجاوز عمر القرون. إن لها لحظة ولادة ونمو وازدهار مثلها مثل الكائنات الحية، ثم لحظة ذبول فشيخوخة فموت. وتعتقد الباحثة كاترين روفييه أن أبستمولوجية لوبون تشبه إلى حد كبير من حيث نسبيتها وارتيابيتها أبستمولوجية كارل بوبر (Karl Popper) (وهو أكبر عالم أبستمولوجيا في عصرنا الحاضر).

ولكن باعتراف معظم الاختصاصيين فإن كتاب «سيكولوجية الجماهير» هو أشهر كتبه على الإطلاق، وهو الذي بوأه مكانة رفيعة في عالم الفكر والمعرفة. وهو الوحيد الذي قررته الجامعة في برامجها كمرجع بعد أن رفضت صاحبه كأستاذ طيلة كل حياته على الرغم من كل محاولاته. ولكن كم بقي من أسماء أساتذة الجامعة الفرنسية آنذاك في عصرنا الحاضر؟ وما عدا اسم دوركهايم من يعرف اسما اخر معاصرا لغوستاف لوبون؟ هكذا تذهب المناصب الرسمية وتبقى العبقريات شامخة فوق المناصب والمراكز.

وعلى هذا الكتاب اعتمد معظم الباحثين العالميين فيما بعد من أجل دراسة ظاهرة الجماهير. وهو إنجاز لرائد عبقري وساذج في آن معاً، كما يقول سيرج موسكوفتشي. وأما الرائدان الآخران فهما غابرييل تارد وفرويد. وكان تارد معاصراً للوبون ويقوم بأبحاثه بشكل موازٍ له. وقد حظي بأكبر المناصب الجامعية إذ عيِّن أستاذاً للفلسفة في الكوليج دو فرانس التي تعتبر أعلى مرتبة من السوربون. وقد انتقد تارد كتاب لوبون هذا وكرس لذلك كتاباً كاملاً بعنوان: **الرأي والجمهور**. وصدر عام (١٩٠١) أي بعد ست سنوات من صدور كتاب لوبون. أما فرويد فقد أشاد في كتابه المذكور سابقاً بإسهام لوبون في هذا المجال على الرغم من تحفظاته وانتقاداته وذلك عندما قال: «بتركيزه على دور اللاوعي في الحياة النفسية فإن سيكولوجية السيد لوبون تقترب كثيراً

من سيكولوجيتنا (أو علم نفسه من علم نفسنا)»[٣].

السياق التاريخي والظروف المحيطة بتأليف الكتاب

لكي نفهم فكر لوبون ينبغي أن نعلم أن حياته الطويلة قد أتاحت له أن يشهد انتصار العلم في أواخر القرن التاسع عشر وأزمات الأنظمة الديمقراطية البرلمانية وبزوغ نجم الاشتراكية وصعودها، ثم ظهور تلك القوى الشعبية التي رافقتها وأقلقته كثيراً.

وأما فيما يخص السياق التاريخي السياسي فينبغي أن نعرف أن فرنسا قد خرجت مهزومة وذليلة من حربها مع ألمانيا عام (١٨٧٠) لتعيش حالة التمرد الشعبي المتجسد بكومونة باريس.

وفي مواجهة كل ذلك كان المنطق يقتضي وجود حكومة قوية قادرة على ضبط الأوضاع وإعادة الهيبة والسيادة. ولكن ما هو موجود كان ضعف الحكومات وانقسام الأحزاب السياسية على بعضها البعض وعجزها عن مواجهة المتمردين.

وكانت الدولة الفرنسية تشعر بوجود خطرين، الأول خارجي ويتمثل بألمانيا، والثاني داخلي ويتمثل بالثورة الفرنسية التي لا تعرف كيف تنتهي منذ أكثر من قرن. فقد كان شبحها يخيم على نفوس الحكام.

يقول أحد كبار مؤرخي الثورة الفرنسية المعاصرين فرانسوا فوريه ما يلي: «إن تاريخ القرن التاسع عشر كله كان تاريخ الصراع بين الثورة والارتداد عليها، وذلك عبر حلقات من مثل ١٨١٥، ١٨٣٠، ١٨٤٨، ١٨٥١، ١٨٧٠، كومونة باريس. إلخ...»[٤].

ويكفي أن نقرأ تين أورينان أو حتى روايات إميل زولا، على الرغم من اختلاف هؤلاء فيما بينهم من حيث التوجه المحافظ أو التقدمي، لكي نتيقن من وجود ذلك الخوف من الطبقات الشعبية. ومن أجل مواجهة هذا الخطر كان على المفكرين إيجاد تفسير للأحداث،

أي إيجاد مفتاح يفتح أبواب العصر الحديث ويحل لغزه. فقد كانت أنظار كل الناس في فرنسا آنذاك مركزة على النظام الاجتماعي وتراقب عدم ثبات السلطة السياسية أو استقرارها. فمحاولة الارتداد على الثورة وإعادة النظام القديم بكل ملكيته وكنيسته وكهنته لم تؤد إلى النتيجة المرغوبة، بالرغم من ازدهار العقائد التي تدين أفكار العالم الحديث وتلعن من ينشرونها (كمزاعم العلم، وحق التصويت العام، والمبدأ الأعلى للمساواة بين البشر، إلخ . . .).

وفي هذا الوقت بالذات جاء المنظر غوستاف لوبون. وعلى الرغم من أن الجامعة قد رفضت دخوله إلى صفوفها وكذلك أكاديمية العلوم فإن همته لم تثبط، وإنما راح يفهم العلم فهماً من الفيزياء النظرية إلى الأنتربولوجيا إلى علم النفس. . . ومن خارج الدائرة الرسمية لكبار الجامعيين والأساتذة راح يؤثر على الساحة الثقافية ويصدر الكتاب تلو الكتاب في مختلف المجالات النظرية. وخلال عدة سنوات ألّف أكثر من عشرة كتب طبخ فيها كلٍ النظريات البيولوجية والأنتربولوجية والسيكولوجية. وراح يبلور شيئاً فشيئاً نظريته المتعلقة بسيكولوجية الشعوب ـ أو نفسية الشعوب ـ والأعراق البشرية. وقد استلهم خطوطها العريضة من المؤرخ الاجتماعي هيبوليت تين (Taine) ومن أكبر منظر للعنصرية في فرنسا وأوروبا كلها: غوبينو. وبحسب رأي المؤرخين فإن إسهامه في بلورة تلك النظرية كان حاسماً وكافياً لكي يجعله يحتل مكانة مرموقة يحسد عليها: ألا وهي رائد الفلسفة العنصرية في أوروبا! ولكن هناك رأي آخر في عنصريته أو عدم عنصريته سوف نستعرضه فيما بعد.

وفي أثناء دراسته لمسائل علم النفس هذه اصطدم لوبون بطبيعة الحال بظاهرة الجماهير وهاله أمرها وخصوصاً الجماهير المتمثلة بالحركات الشعبية والإرهاب. وكان الباحثون الإيطاليون قد ألفوا عدة كتب عن هذه الظاهرة واعتبروا هجوم الجماهير على مسرح الأحداث بمثابة عودة أوروبا الحضارية إلى مرحلة البربرية والهمجية. وكان ذكاء لوبون يكمن فيما يلي: لقد عرف كيف يركز انتباهه على هذا الموضوع

ويتناوله من وجهة نظر أخرى غير السائدة ويبني عليه نظرية متكاملة ومتماسكة. وكان الجمهور بأشد الحاجة إليها كما ذكرنا سابقاً.

فقد ابتدأ لوبون بتشخيص أوضاع الديمقراطية البرلمانية التي تولدت عن الثورة الفرنسية كما هو معروف، وحلت محل النظام الملكي والإطلاقي القديم. ولم يقل بأن الحل يكمن في العودة إلى الماضي كما يفعل الذين يحنون راجعين إلى الوراء، ولا في الإشتراكية بطبيعة الحال وإنما في إصلاح النظام البرلماني بشكل يتناسب مع الأوضاع المستجدة. ورأى أن العلة الأساسية لهذا النظام تكمن في عدم التصميم ونقص الإرادة. فقوة الحكم والحاكم تؤدي كما هو معروف إلى استقرار النظام الاجتماعي، وانعدام هذه القوة يؤدي إلى الفوضى واختلال الأوضاع.

صحيح أن غوستاف لوبون يشعر نحو الجماهير الشعبية بالاحتقار. ولكن الجماهير أصبحت حقيقة واقعة، وككل عالم وضعي فإنه لا يمكن أن يحتقر الوقائع المادية القائمة، وإنما ينبغي عليه أن يدرسها ويفهمها ويأخذها بعين الإعتبار. وهكذا يبتدىء بدراسة ظاهرة الجماهير بطريقة علمية. وهو لا يجد منهجيته التحليلية أو التشخيصية لا في علم التاريخ ولا في علم الاقتصاد، وإنما في علم النفس. فعلم النفس يعلمنا أن هناك «روحاً للجماهير»، وهذه الروح مكونة من الانفعالات البدائية، ومكرسة بواسطة العقائد الإيمانية القوية. وهي أبعد ما تكون عن التفكير العقلاني والمنطقي. وكما أن «روح الفرد» تخضع لتحريضات المنوِّم المغناطيسي (أو الطبيب) الذي يجعل شخصاً ما يغطس في النوم، فإن «روح الجماهير» تخضع لتحريضات وإيعازات أحد المحركين أو القادة الذي يعرف كيف يفرض إرادته عليها. وفي مثل هذه الحالة من الإرتعاد والذعر فإن كل شخص منخرط في الجمهور يبتدىء بتنفيذ الأعمال الاستثنائية التي ما كان مستعداً إطلاقاً لتنفيذها لو كان في حالته الفردية الواعية والمتعقلة. فالقائد الزعيم إذ يستخدم الصور الموحية والشعارات البهيجة بدلاً من الأفكار المنطقية والواقعية يستملك روح الجماهير ويسيطر عليها.

هـكذا نجـد أن الفكرة الأساسية في نظرية غوستاف لوبون بسيطة وواضحـة جـداً. فهـو يـريد أن يقـول بـأن كـل كوارث الماضي القريب التي منيت بها فرنسا وكـل هزائمها والصعوبـات التي تواجهها تعود إلى هجـوم الجماهير على مسرح التـاريخ وعدم معرفة مواجهته. وهـكذا يمكننا أن نفسر سبب ضعف النظام البرلماني الديمقراطي بـأنه عائد إلى الجهل بقوانين علم النفس وطرائق تسيير الجماهير. وبعضهم يقول بـأن لوبون كان يحـلم بنظام برلماني على الطريقة الإنكليزية. وبعضهـم الآخـر يقول بـأنه استبق الجمهورية الخـامسة التي أسسها ديغول فيما بعد ووفَّر لرئيس الدولة أغلبية قوية في البرلمان تمكنه من حـكم فرنسا بشكل قـوي وحـازم، لا متـردد ولا ضعيف كما كان حـاصلاً أثنـاء الجمهورية الثالثة وخـصوصاً أثناء الجمهورية الرابعة (حـيث كانت تنقلب الحكومة كـل شهرين أو ثلاثة).

وبعد أن عبَّر لوبون عن هذه الأفكـار بشكل سهـل ومبسط، وبعد أن عرضها على هيئة نظرية علمية متكاملـة ومتماسكة، فـإنه قد أصبح مشهوراً ونـال المكانة الرفيعة التي كان يحـلم بها عن طريق الدخـول إلى الجامعة أو إلى أكاديمية العلوم. يقـول سيرج موسكوفتشي، أحـد كبار علماء النفسي الاجتماعي في فرنسا اليوم، بهـذا الصدد ما يـلي:

«وبين عشية وضحاها أصبح لوبون الأستاذ الفكري لمرحلة كاملة بأسرهـا. وقد حـافظ على هذه المكانة حـتى نهاية حياته المديدة (. . .). ولما كان مقيماً في منزله لا يبرحـه فقد راحـت تتعاقب على زيارته كبريـات شخـصيات العصر من علمية وفكرية وسياسية كعالم الرياضيـات هنـري بوانكاريه والفيلسوف بيرغسون والشاعر بول فاليري ثم من رجـال السياسة رئيس الجمهورية ريمون بوانكاريه والرئيس الأمريكي تيودور روزفلت. وكانوا يتلقون بكل جدية نصائحـه في مجـال السياسة والمجـتمع. والواقع أن انتشار نظريته قد بـلغ أوجه في العشرينات من هـذا القرن. ففي ذلك الوقت راح العلم الجـديد (علم نفسية الجماهير) يجـذب بقوة النخبة الديمقراطية التي تجـد فيه الآلة المفهومية أو العلمية التي تؤكد لهـا خوفها العميق من الجماهير. ولكنها في ذات الوقت تقدم

لها مجموعة من القواعد التي تساعدها على التحكم بعنف الجماهير والسيطرة عليها».

ثم يردف بعد ذلك بقليل:

«الجميع متفقون على أن كتاب «سيكولوجية الجماهير» ومجمل أعمال غوستاف لوبون تشكل نجاحاً منقطع النظير في المكتبات، وأنها إحدى أكبر النجاحات العلمية في كل العصور. وهذا الكتاب هو المانيفست الذي دشن ما يدعى اليوم بعلم النفس الاجتماعي أو الجماعي»(٥).

وحتى مؤسسو مدرسة فرانكفورت الشهيرة لم يأنفوا من ذكر اسم لوبون على الرغم من تقدميتهم بل والثناء عليه وعلى أعماله على الرغم من يمينيته وعنصريته، وعلى الرغم من أفكارهم التقدمية المعادية للفاشية والنازية. فقد كتب أدورنو وهوركهايمر يقولان: «بعد تجارب العقود الماضية (أي الحرب العالمية الثانية ومجازرها) ينبغي أن نعترف بأن أطروحات غوستاف لوبون قد تحققت إلى درجة مدهشة، على الأقل بطريقة سطحية، حتى ضمن إطار الحضارة التكنولوجية الحديثة التي كنا نتوقع أن نجد فيها جماهير أكثر استنارة»(٦).

ومن المعروف أن الشيء الذي صعق فلاسفة مدرسة فرانكفورت هو كيف أن الجماهير قد ثارت باسم الفاشية والنازية في أكثر دول أوروبا تحضراً ورقياً: أي ألمانيا. وكان سؤالهم الأساسي: لماذا لم يستطيع عصر التنوير أن يمنع ذلك؟ بمعنى كيف أن البربرية تعود للانبثاق من جديد حتى بعد التنوير والتحديث وانتصار العلم والتكنولوجيا.

لقد اهتم علم الاجتماع الألماني بكتاب لوبون واعتبره نموذجاً وقدوة حتى مجيء هتلر إلى السلطة وتعبئة الجماهير بشكل لم يسبق له مثيل من قبل في تاريخ البشرية. فقد تأكدت معظم أطروحات لوبون في هذا المجال. وقد انتشرت أفكار لوبون كثيراً وتغلغلت حتى إلى أعماق الناس العاديين وانصهرت في الثقافة العامة إلى درجة أنه يمكن

القول بـأن أحـد اتجاهـات هذا القرن «متأثـر بعلم الأحياء الداروينـي، وعلـم جمال فاغنـر وعنصرية غوبينـو وعلم نفس لوبـون ولعنات بودلير، والنبوءات السوداء لنيتشه وديستوفسكي، ثم أخـيراً بفلسفة بيرغسون وعلم التحليل النفسي لفرويد»(٧).

ليس غريباً والحالـة هذه أن يجـد لوبون في نفسه ماكيافيلي جديداً. إنه ماكيافيلي العصر الجديد، عصر الجماهير. فهـو يريد تجـديد الفكر السياسي الـذي دشنه سلفه الأكبر.

يقول في كتابه علم النفس السياسي: «إن معظم القواعد والقوانين الخاصة بحـكم البشر وقيادتهم والتي استخلصها ماكيافيلي لم تعـد صالحة منذ زمن طويل. وعلى الرغم من مـرور أربعة قـرون على هـذا الرجل العظيم فـإن أحـداً لم يحاول إكمال عمله»(٨).

وهنـا تكمن رسالته فيما يعتقد، وقد قـام بها خـير قيـام عندما ألّف كـل هذه الكتب الشهيرة التي انتشرت في الجمهور انتشار النـار في الهشيم. وهـكذا راح يتوجـه إلى رجـالات الدول وقـادة الأحـزاب السياسية وحـكام العصور الحديثة وكأنـه يتوجـه إلى تلامذته المبـاشرين.

موقف التيـارات الإشتراكية الصاعدة آنذاك من أفكـار غوستاف لوبون

كانت الحركات الإشتراكية والأحـزاب العمالية هي المعنية الأولى بأطروحـات لوبون الجديدة الخاصة بالجماهير. وكانت سياستها قائمة على التسليم بوجود العقلانية فيما يخـص تحريك الجماهير والعمل السياسي ككل، مثلهم في ذلك مثل الحركات الليبرالية والأحـزاب البورجـوازية. فالفكرة الفلسفية التي كانت سائدة ومسيطرة على كلتا الجهتين هي أن النـاس يتحركـون بشكل عقلاني ويفكرون بمصالحهـم بشكل منطقي عندما ينخرطون في العمل السياسي ويتجمهـرون ويتظاهـرون...

ثم جـاءت أطروحات لوبون لكي تقلب الأمور رأساً على عقـب.

فقد صدمت المفكرين الإشتراكيين لأنها مضادة تماماً لأطروحاتهم. هـذا بالإضافة إلى هجوم لوبون في أكثر من موضع على الإشتراكية وجماهيرها وتخـوفه من صعودها. والشيء الآخـر الذي صدمهم لـدى لوبون هو تركيزه على العوامل اللاعقلانية في تسيير الجماهير وقوله بالسمة المحافظة جـداً للجماهير. فعلى الرغم من غرائزها الثورية الظاهرية يـرى لوبون أن الجماهير تظل محافظة جـداً. ذلك أنها تعيد دائماً ما كانت قد دمرته.

وكان رد الفعل الأقـوى على أطروحـات لوبون قد جـاء من جهـة المفكر الإشتـراكي جورج سوريل، مؤلـف الكتـاب المعروف «تـأملات حول العنف». نقول ذلك على الرغم من أن التعليق النقدي الذي خصصه لكتـاب لوبون كان إيجـابياً جـداً في مجمله. ولكـنه رفض وصف الجماهير بالمحافظة كما فعل لوبون، وخـصوصاً في المجتمعات التي شهـدت التمايز الطبقي. وقد ركز سوريـل على انعـدام الأطر السوسيولوجية المحسوسة لتحـليلات لوبون. ولكن كـل هذه الإنتقـادات لم تمنعه من الاقتـراب من مواقع لوبون بمرور السنوات. والدليل على ذلك اكتشافه لضرورة وجـود أسطورة جبارة، وبالتـالي لا عقلانية، من أجـل تحريك الطبقة العمالية وجعلهـا ثورية. فـلولا الحـلم والوهم لما ثارت الجماهير الجائعة لا في الماضي ولا في الحاضر تحت قيادة الزعماء والمحرِّكين. ولولا الوهم الطوباوي بتحـقيق الجنة على الأرض لما ثـارت الجماهير العمالية في أوروبا تحـت قيادة الأحـزاب الشيوعية. ولما كان تأثير سوريل في النصف الأول من هذا القرن كـبيراً على سياسة عصره فـإن أفكار لوبون قد دخـلت عن طريقه إلى عقـول الناس في كـل مكان.

وحـتى المنظِّر الإشتـراكي الألماني كارل كاوتسكي اعترف بأهمية المشكلة، مشكلة الجماهير، وقـال:

«لقد أصبح واضحاً كـضوء النهار أن الصراعات السياسية والاقتصادية في زمننا قد أصبحـت بدرجات متزايـدة من فعل الجماهير». ولكـنه راح يـدحض فكرة لوبون الخاصة بالتحـريض والعدوى والقول

بـأن تحريك الجماهير يتم لأسباب نفسية بشكل عام. فهنـاك أسباب اجتماعية واقتصادية أيضاً. ولكـن ذلك لم يمنعه من القبول بفحـوى نظرية لوبون، وإن على الرغم منه تقريباً. فالجماهير هـي الجماهير في كـل مكان أياً تـكن الطبقة الإجتماعية التي تنتمي إليهـا. إن تصرفاتها تظل غير متوقعة، وهـدامة، وميـالة للمحـافظة جزئياً على الأقل. وقد ضرب كاوتسكي على ذلك مثلا المذابح التي جـرت ضد اليهـود في أوروبا، وكـذلك ذبح السود في أمريكـا من قبل البيض. واستخـلص قائلاً:

«هـكذا نجـد أن عمل الجماهير لا يخـدم قضية التقدم دائماً. فما يدمـره ليس دائماً تـلك العقبات الأكثر عرقلة للتنمية. فالجماهير تجـيش العناصر الرجعية مثلما تجـيش العناصر الثورية»(٩).

سبب إهمال لوبون من قبل علماء الاجتماع المعاصرين

كنا قد أثرنا هذه النقطة بشكل سريع من قبل. ولكن ينبغي أن نفصل فيها القول أكثر. فمعـظم علماء الاجتماع والنفس في فرنسا يأنفون من ذكر اسمه أو الاستشهـاد علناً بكتبه وآرائه. في الواقع ينبغي ربط ذلك بالمنبت الاجتماعي والطبقي للرجـل. فهو ينتمي إلى التراث الليبرالي والبورجـوازي. وبالتـالي فهو ضد الثورة والفكرة الاشتراكيـة الصاعدة آنـذاك. وهو يفعـل ذلك (كمـا هو واضح في الكتـاب) بشكل مبـاشر وفج.

وهنـاك سبب آخـر لإهـمال اسم لوبـون هو أن كـل الأحـزاب السياسية من يمينية ويسارية تستخـدم وصفاته في دعاياتها وإعلاناتهـا وطريقة مخاطبتها للجمهور ولكنها لا تريـد أن تعترف بـذلك لكيـلا تفشل خطتها في التأثير. فـكل هذه الوسائل المستخـدمة من قبل الأجهـزة الحزبية والقادة السياسيين الـذين يظهـرون على شاشة التلفزيون ترتكز على استراتيجية واحـدة هي: الإيمان بـلا عقلانية الجماهير ضمنياً ثم التظاهـر في نفس الوقت بـأنها عقلانية ومنطقية! لهـذا السبب يقال بـأن كـل زعيم سياسي يظهـر على شاشة التلفزيون يضع مسبقاً قناعاً على وجهه لكي يقول ما يدغدغ عواطف الجماهير لا ما يعتقده عمقياً بالفعل.

فهـم يحاولون الفصل بين علم النفس وعلم السياسة. فالسياسة سياسة وعلم النفس والمشاكل النفسية شيء آخـر فيما يقولون. أما لوبون فيصل بينهما بشكل وثيق عندما يفرق بين الحقيقة الحقيقية «والحقيقة» السوسيولوجية (أي الأفكـار الشائعة لـدى الجمهور والتي هي خـاطئة في الواقع ولكنه يؤمن بها فتصبح حقيقة. بالطبع لوبون لا يستخـدم نفس المصطلح التمييزي الـذي ذكرنـاه ولكنه يعني نفس الشيء. لكأنه يقول: ليس بالحقائـق وحـدها يعيش النـاس وتجـري حركة التـاريخ. وهـذا مبـدأ أبستمولوجي حـديث ومؤكـد).

يقـول عالم الإقتصاد الألماني الكبير شومبيتر بهـذا الصدد ما يـلي:

«إن أهميـة اللاعقلانية في السياسة والتركيز عليها يعـزى دائماً لغوستاف لوبـون. فهـو مؤسس علم نفسية الجماهير أو على الأقل منظره الأول. وذلك عندما استخـلص وإن بنـوع من التضخيم والمبالغة قوانين السلوك البشري المتأثر بالجمهور أو المنخـرط فيه. فقد كشف لنا هـذا المفكر أشياء مشؤومة أو مخيفة، ولكن أحـداً لا يـريد مواجهتها وجهاً لوجـه. وقد وجَّه في ذات الوقت ضربة موجعـة لذلك التصور عن الطبيعة البشرية الذي ترتكز عليه النظرية الكلاسيكية للديمقراطية والأسطورة الديمقراطية للثورات»[١٠].

وهنـاك سبب آخـر لإهمـال لوبون واحتقـاره من قبل التـراث الجامعـي الفرنسي المعاصر هـو تبني أفكـاره وتحـليلاته من قبل الحركة الفاشية في أوروبا. ولعـل ذلك هـو السبب الأهـم. فعـلى الرغم من أن أفكـاره قد دخـلت إلى إيطاليا عن طريق الاشتراكيين الثوريين إلا أن جماعة موسوليني قد استولت عليها بسرعة واستخـدمتهـا في شعاراتهـا ودعاياتهـا. وكـذلك الأمر فيما يخـص الحركة النازية في ألمانية فقد استخـدمته أيضاً لصالحهـا. ويـرى بعض الباحـثين أن تأثير كتـاب لوبون على كتـاب «كفـاحي» لهتلـر أوضح من أن يشار إليه. صحيح أن أفكـاره قد استخـدمت في كـل البلدان الأخـرى تقريباً من أجـل السيطرة على الجمهور والتوصل إلى سـدة السلطة، ولكـن فقط النظام النـازي في

ألمانيا والفاشي في إيطاليا هما اللذان اعترفا بذلك صراحة. وهذا ما لوَّثه كثيراً وأساء إلى سمعته.

وهكذا إذا ما سألتهم: لماذا تتجاهلون لوبون؟ أجابوك: لأنه فاشي!

ولكن إذا ما أردنا أن نشمل بنفس الحكم مفكرين آخرين شملنا ماكس فيبر وفرويد نفسه. فقد عبرا عن أفكار مشابهة لأفكاره ولم ينعتهما أحد بالفاشية. والواقع أن سوء حظ لوبون يعود إلى أن هتلر وموسوليني كانا من قرائه! وبالتالي فقد أصبحت إدانة صاحب «سيكولوجية الجماهير» سهلة حتى ولو كنا نعرف عن طريق كتاباته أنه يفضل النظام الديمقراطي بكل عيوبه ونواقصه على الديكتاتورية بكل قوتها وصرامتها. فهو يدين كل أنواع الديكتاتوريات بما فيها الديكتاتورية التي يحسبونها عليه: أي الفاشية. وهذا يعني أنهم قد ألصقوا به تهمة لا يستحقها، ومع ذلك فقد مشت وشاعت. فالإشاعة أقوى من الحقيقة كما يقول لوبون نفسه. ويمكن القول، بمعنى من المعاني، أنه قد راح ضحية الحقائق التي اكتشفها. ويعترف الباحث سيرج موسكوفتشي بأنه ما كان سيجرؤ على إعادة الإعتبار لغوستاف لوبون لولا أن كبار المفكرين الأجانب قد سبقوه إلى ذلك. فالأحكام المسبقة المتعلقة به والشبهات التي تحوم حوله هي من القوة والجبروت في فرنسا بحيث أنها تردع أي باحث عن مجرد التحدث عنه أو حتى ذكر اسمه. يقول موسكوفتشي:

«لقد سبقني إلى الإعتراف به مفكرون ألمان من الدرجة الأولى هم بروخ، شومبيتر، أدورنو. فقد لجأوا إليه من أجل فهم الظاهرة التوتاليتارية (الفاشية) ومن أجل محاربتها. وقد وصل الأمر بأدورنو إلى حد إدانة الربط الكلي بين كتاب «سيكولوجية الجماهير» وبين الفاشية. واعتبر ذلك بمثابة الذريعة السهلة جداً. وراح أدورنو يتساءل: لماذا تكون سيكولوجية الجماعات البشرية التي ندرسها هنا شيئاً خاصاً بالفاشية دون غيرها من الحركات السياسية الأخرى التي تبحث أيضاً

عن دعـم الجماهير وتحـاول تجييش الجماهير؟ فلا فرويد ولا غوستـاف لوبون أقاما مثـل هذا التمييز. فهما قد تحـدثا عن الجمهور «بصفتـه تلك» دون أي تمييز بين جمهور وجمهور بحـسب الأهـداف السياسية للجماعات التي تشكله»(١١).

المسألة العنصرية ومفهـوم «العرق التـاريخي»

مما لا ريب فيه أن التمايز المبني على لون البشرة أو الشعر ذو حقيقة واقعة في بـلدان أوروبا، فالعرق الأبيض أو الأشقر الفاتح أفضل، وفقاً للشعور السائد، من العرق الأسمر أو البني الغامق، ناهـيك عن الأسود. . . وهـذا التمايز العنصري تـأسس في أوروبا القرن التـاسع عشر على هيئة نظرية متكاملـة حشدت كـل «المبـادىء العلمية» من أجـل تدعيم أركانهـا. لقد كـان القرن التـاسع عشر هو قـرن العرقية أو العنصرية بامتيـاز ولم ينـج منه أي مفكر تقريباً. فقد راح تصنيف الشعوب إلى أعـراق متفوقة أو عليا وأعراق متخـلفة أو دنيا يشكل بدهية بالنسبة لأنـاس القرن التـاسع عشر. وحـتى شخصية سياسية تقدمية وإنسانية مثل جـول فيرّي صاحـب فكرة العلمنة والمدرسة العامة والشعبية في فرنسا لم يتردد عن التصريح أمام البرلمان بما يـلي:

«أيهـا السادة، ينبغي أن نتكلم بصوت أعـلى وأقوى! ينبغي أن نقول بـكل صراحة أن للأعـراق العليا حقـاً على الأعراق الدنيا، قـلت إن لها حقـاً بمعنى أن عليها واجـباً. أن عليها واجـب إدخال الأعـراق الدنيا في الحضارة»(١٢).

(خطـاب ألقي بتـاريخ ٢٨ يوليو ١٨٨٥).

ولكـن هناك فرق بين عنصرية وعنصرية بالطبع. فاستخـدام مفهـوم العرق هنا في خـطاب جول فيرّي ليس سلبياً ولا ينطوي على فـكرة السوء كما يفعل غوبينو مثلاً. فهـو فقط يـريد التنبيه إلى وجـود «شعوب» أكثر تحـضراً من شعوب أخـرى وهذه حقيقة واقعة، ويريد مساعـدة هذه الأخـيرة على اللحـاق بالأولى. انه لا يقصد القول بوجـود تفوق جوهـري أو أزلي للشعوب الأولى على الثانية، بمعنى أن هذه الأخـيرة لا يمكن أن

تساوي الأولى لنقص في عرقها، أي لنقص بيولوجي تكويني. في حين أن هـذا ما يفعله منظر العنصرية الأكبر: غوبينو وكـل النظرية النازية والفاشية الـتي استلهمتـه فيما بعد. ولا يـمكن القول بـأن غوستـاف لوبون عنصري بالمعنى الـذي يقصده غوبينو. فهـو يؤكد مثـلاً بكل قوة على أنه «لا توجـد أعراق صافية فى البلدان المتحضرة». وهـذا عـكس أطـروحات غـوبينو. لكن لـديه مفهـوماً للعـرق هـو «العـرق التـاريخي»، أي الـذي يتشكل عبر التـاريخ من خـلال انصهـار عناصر شعب ما ببعضها البعض تدريجياً. فبما أنه لا يؤسس فكـرة العرق على العوامل الشكلية أو الفيزيولوجية، فـإنه راح يؤسسها على عوامل الثقافة والتـراث المشترك لشعب ما. وهي لا تستبعد «التراكمات الوراثية» من ساحتها. لماذا؟ لأن مفهـوم «اللاوعي الجماعي» الـذي يركز عليه لوبون والذي يستمد منه شعب ما الأسباب اللاواعية لأعماله مشكل بالضبط من هذه التراكمـات الوراثية. انه مركـب منهـا كما تتركب الأرض من الطبقات الجيولوجية المتراصة فوق بعضها البعض. وأحياناً يدعو لوبون بنية اللاوعي الجماعي بالتكوين العقلي للشعوب. والشيء الـذي يتحـكم بهذا اللاوعي أو بـذلك التكوين العقلي هو ما يدعوه «بالعرق التـاريخي». ويعرفه على الشكل التـالي:

«عندما تخضـع شعوب من نفس الأصل أو تنتمي إلى أصـول مختلفة ولكن غير متبـاعدة جـداً لنفس العقائد والمؤسسات والقوانين طيلة قرون عديدة فـإنها تشكل عندئذٍ ما كنت قد دعوته في مكان آخـر «بالعرق التـاريخي». وعندئذٍ يمتلك هذا العرق نظاماً أخلاقياً وحـتى دينياً وسياسياً مركباً من مجـموعة من المواضيع والأفكـار والعواطف المشتركة التي هـي منغرسة في النفوس إلى الحـد الذي تقبل فيه دون نقـاش»[١٣].

هـكذا نجـد أن مفهـوم العرق التـاريخي لدى غوستـاف لوبون أقـرب إلى مفهـوم الأمة أو الشعب منه إلى مفهـوم العرق بالمعنى العنصري للكلمة، أي بالمعنى البيولوجي والفيزيولوجي. إنه يختلف مثلاً عن مفهـوم العرق السائد في القرن الثامن عشر والـذي كان يعني «جماعة

عرقية تتمايز عن الجماعات الأخرى بواسطة جملة من الخصائص الجسدية الموروثة والتي تمثل فرادة وخصوصية داخل النوع البشري».

والدليل على عدم عنصريته بالمعنى النازي للكلمة هو أنه لا يعتقد بدوام الحضارة في شعب ما أو عنصر ما. فالتاريخ يعلمنا أن مسار الحضارة دائري، فهي تنتقل من منطقة إلى منطقة، ومن شعب إلى شعب. هذا في حين أن العنصريين الحقيقيين يعتقدون بأن هناك شعوباً خلقت أزلياً لصنع الحضارة، وشعوباً أخرى خلقت للبربرية والهمجية إلى أبد الدهر. فغوستاف لوبون مثلاً لا يستبعد ظهور حضارة «للزنوج» في المستقبل، وربما حلت محل الحضارة الأوروبية يوماً ما بعد أن أصابت هذه الأخيرة عوامل الوهن والشيخوخة. وفي كتابه عن حضارة العرب يكتب قائلاً:

«هل يعني ذلك أن الشعوب نصف المتحضرة أو البربرية لا تحب هي الأخرى أيضاً أن ترتفع إلى مستوى الحضارة الأوروبية؟ هذه ليست عقيدتي على الإطلاق. بل إني أعتقد على العكس إنها سوف تتوصل إلى ذلك يوماً ما. ولكنها لن تتوصل إليه إلا بعد أن تكون قد عبرت الدرجات المتتالية التي تفصلها عنها واحدة بعد الأخرى وليس بقفزة واحدة»(١٤).

نخلص من ذلك إلى القول بأن لوبون ليس عنصرياً بالمعنى المتطرف للكلمة، ولكنه «عنصري» بالمعنى الثقافي والتاريخي، أي بالمعنى الوضعي والعلموي الذي ساد القرن التاسع عشر كله.

اكتشاف ظاهرة الجماهير

عندما ظهرت الجماهير على سطح المسرح الأوروبي كحقيقة واقعة وضخمة وهددت النظام الاجتماعي القائم حاول الباحثون والمفكرون أن يفهموها ويدرسوها. وقد تبلورت ثلاثة أجوبة أساسية على ذلك:

أولاً: الجماهير هي عبارة عن تراكم من الأفراد المتجمعين بشكل مؤقت على هامش المؤسسات وضد المؤسسات القائمة. بمعنى آخر

فـإن الجماهير مؤلفة من أشخـاص هامشيين وشاذين عن المجتمع. وهـكذا نجـد أن الجمهور يتطابق، بحسب هذه النظرة، مع «الرعاع» و«السوقة» و«الأوبـاش». إنهم رجال ونساء بـدون عمل محـدد ومستبعدون من ساحة المجتمع الفعلية.

ثانيا: الجماهير مجنونة بطبيعتها. فالجماهير التي تصفق بحماسة شديدة لمطربها المفضل أو لفريق كرة القدم الذي تؤيده تعيش لحظة هلوسة وجنون. والجماهير التي تصطف على جانبي الطريق ساعات وساعات لكي تشهد من بعيد مرور شخصية مشهورة أو زعيم كبير للحظات خـاطفة هي مجنونة. والجماهير المهتاجة التي تهجم على شخص لكي تذبحـه دون أن تتأكد من أنه هو المذنب هـي مجنونة أيضاً، فـإذا ما أحبت الجماهير ديناً ما أو رجـلاً ما تبعته حـتى الموت كما يفعل اليهود مع نبيهم والمسيحيون المتعصبون وراء رهبانهم والمسلمون وراء شيوخهـم. والجماهير تحـرق اليوم ما كانت قد عبدته بالأمس، وتغير أفكارها كما تغير قمصانها.

وهـذه الأعمال المتطرفة التي تقوم بها الجماهير ما هي إلا ضـرب من أعمال الجنون التي تغذي المشاعر الغامضة وتكشف عن الجانب السري والمظلم من الطبيعة البشرية.

ثالثاً: وأما الجواب الثالث فيزايـد على الجوابين السابقين ويمشي خطوة أخـرى في اتجاه التهجم على الجماهير ويقول بأنها مجرمة. فهـي بما أنها مؤلفة من «الرعاع والأوغاد»، أي من الرجال الغاضبين والحاقدين فـإنها تهجم وتقتل وتسلب كل شيء. إنها تجسد العنف الهائج دون أي سبب أو مبـرر واضح. وهي تعصى السلطات القائمة وتخـرج على القانون. وفي نهاية القرن التاسع عشر تزايد عـدد الجماهير في أوروبا، وراحت أعمالها المباغتة تخـيف السلطات. وعندئذٍ راح المفكرون الفرنسيون والإيطاليون يتحـدثون عن ظاهرة «الجماهير المجرمة»، أي أولئك المجرمين الجماعيين الـذين يهددون أمن الدولة وطمأنينة المواطنين وسلامتهـم. وكان الباحـثون الإيطاليون هم أول من تحـدث

عن وجود ظاهرة «الجماهير المجرمة». وهـكذا أصبحت الدراسة العلمية للجماهير تمر من خـلال «علم القانون الجرائمي». وكان الإيطاليٍ سيجهيل (Sighele) أول من بلور هذه النظرية، وأول من خـلع معنى تقنياً واصطلاحياً على مفهوم «الجماهير المجرمة». فهي تضم بحسب رأيه كل الحركات الإجتماعية والمجموعات السياسية من الفوضويين إلى الإشتراكيين. كما وتضم بالطبع العمال وهم في حالة الإضراب عن العمل، أو التجمعات الحاصلة في الشوارع.

لوبون يقترح خطاً جديداً لتفسير ظاهرة الجماهير

تكمن أهمية لوبون في أنه رفض هذه الأجوبة الثلاثة كلها واقترح خطاً جديداً لتفسير ظاهـرة الجماهير وللرد على هـذا السؤال: ما هو الجمهور؟ وكان جوابه يتلخص عموماً على النحو التـالي: الميزة الأساسية للجمهور هى انصهـار أفراده في روح واحـدة وعاطفة مشتركة تقضي على التمايـزات الشخصية وتخـفض من مستوى الملكات العقلية. وهـو يشبه ذلك بالمركب الكيماوي الناتج عن صهر عـدة عناصر مختلفة. فهـي تـذوب وتفقد خصائصها الأولى نتيجة التفاعل ومن أجـل تركيب المركب الجديد. وهـذا التشبيه دليل على مـدى علمية لوبون أو قل «علمويته». فقد كـان غاطساً في منـاخ القرن التـاسع عشر كما قلنا سابقاً. وهـذا القرن الوضعي المؤمن إيماناً مطلقاً بالعلم كان يخـضع العلوم الإنسانية للعلوم الدقيقة. وهـذا ما فعله أيضاً دوركهايـم في ساحة علم الإجتماع مثـلاً. ففي الجمهور يتبع كل شخص شبيهه المجـاور له. والحشد الكبير يجرف الفرد معه مثلما يجرف السيل الحجارة المفردة التي تعترض طريقه. وذلك أياً تكن الطبقة الإجتماعية التي ينتمي إليها عالية أم منخفضة، وأياً تـكن ثقافته أمية أم عالمة جـداً. فهـذا لا يغير في حقيقة الأمر شيئاً.

وينهـض لوبون بشدة ضد آراء الباحـثين الإيطاليين والفرنسيين من أمثـال منافسه تارد (Tarde) والقائلين بـأن الجماهير مجرمة بطبيعتها. ويقول بـأنها ليست مجرمة وليست فاضلة سلفاً. وإنما هـي قد تكون

مجرمة ومـدمرة أحياناً، وقد تكون أحياناً أخـرى كريمة وبطلة تضحي بـدون مصلحة. وأحياناً تـكون هذا وذاك في نفس الوقت. وبالتـالي فـالفكرة الشائعة عن الجماهير بـأنها فقط مدمرة وتحـب السلب والنهب والشغب من أجـل الشغب هي فكرة خاطئة.

الإكتشاف الثاني لغوستاف لوبون: الجمهور والتنويم المغناطيسي

اعتبر لوبون أن المتغيرات التي تطـرأ على الفرد المنخرط في الجمهور مشابهـة تماماً لتلك التي يتعرض لها الإنسان أثناء التنويم المغناطيسي. وفي الواقع أن لوبون قد استعار هـذا التشبيه من علم الطب والطب النفسي على وجـه الخصوص. وكان التنويم المغناطيسي قد دخل ساحة العلاج بـكل قوة على يد الطبيب شاركو (Charcot) وآخرين. ومـارس التنويم المغناطيسي آنـذاك سحراً كـبيراً على النفوس، ولم نعد نستطيع، نحـن المعاصرين، فهـم مثل هذا التأثير الكبير بعد أن سقط في ساحة البلى والإستهـلاك. إنه يشبه السحر الذي مارسته الكهرباء أثناء اكتشافها للمرة الأولى. يقول الباحث سيرج موسكوفتشي عن السبب في ولادة علم النفس الجماهيري في فرنسا وليس في غيرها: «إذا كان علم نفسية الجماهير قد ولد في فرنسا وليس في إيطاليا أو ألمانيا فـإن ذلك عائد إلى التقاطع الحاصل بين الثورات الشعبية ومـدارس التنويم المغناطيسي، ما بين انعكاسات ثورة كومونة بـاريس، والنتائج الطبية للمشافي الفرنسية في نانسي وسالبتـرييز. فقـد كـانت هذه الثورات تطـرح مشكلة، وكانت تلك المشافي تقترح لها حـلاً»(١٥).

هـكذا نجـد أن لوبون كان يفكر بشكل علمي ويحـاول أن ينقل إلى ساحة العلوم الإنسانية (ومنها علم نفسية الجماهير) وسائل العلوم التجريبية الدقيقة وأدواتها. وهـذا الافتتان بالعلوم الدقيقة كان الصفة المشتركة للمرحلة الوضعية بأسرها كما أسلفنا. وكانت الثقة بالعلم ومقدرته لا تحدها حـدود. ويمكن أن نلاحظ هذه التبعية عـلى مـدار كتاب لوبون، ومن خـلال الأمثلة التي يضربهـا. فهـو يقارن الإنسان

بالحيوان من حيث الغريزة أو القابلية للتحريض والعدوى مثلاً. فالإنسان مأخوذ هنا كمادة للدراسة العلمية والمختبرية مثله في ذلك مثل أي كائن آخر.

وفي الختام، يمكن تلخيص نظرية لوبون حول نفسية الجماهير بالإكتشافات الثلاثة التالية:

١ ـ الجماهير ظاهرة اجتماعية؛ ٢ ـ عملية التحريض هي التي تفسر انحلال الأفراد في الجمهور وذوبانهم فيه؛ ٣ ـ القائد المحرِّك يمارس عملية تنويم مغناطيسي على الجماهير تماماً كما يمارسه الطبيب على المريض.

ويترتب على هذه الإكتشافات الثلاثة المبادىء العلمية التالية:

١ ـ إن «الجمهور النفسي» (Le foule Psychologique) يختلف عن التجمع العادي أو العفوي للبشر في ساحة عامة مثلاً، أو على موقف باص. فالجمهور النفسي يمتلك وحدة ذهنية على عكس هذه التجمعات غير المقصودة.

٢ ـ الفرد يتحرك بشكل واعٍ ومقصود أما الجمهور فيتحرك بشكل لاواعٍ. ذلك أن الوعي فردي تحديداً، أما اللاوعي فهو جماعي.

٣ ـ الجماهير محافظة بطبيعتها على الرغم من تظاهراتها الثورية. فهي تعيد في نهاية المطاف ما كانت قد قلبته أو دمرته. ذلك أن الماضي أقوى لديها من الحاضر بكثير، تماماً كأي شخص منوّم مغناطيسياً.

٤ ـ إن الجماهير، أياً تكن ثقافتها أو عقيدتها أو مكانتها الإجتماعية، بحاجة لأن تخضع لقيادة محرِّك. وهو لا يقنعها بالمحاجات العقلانية والمنطقية، وإنما يفرض نفسه عليها بواسطة القوة. كما أنه يجذبها ويسحرها بواسطة هيبته الشخصية تماماً كما يفعل الطبيب الذي ينوم المريض مغناطيسياً.

٥ ـ إن الدعاية ذات أساس لا عقلاني يتمثل بالعقائد الإيمانية الجماعية. ولها أداة للعمل تتمثل بالتحريض من قريب أو بعيد (أي

بالعدوى). ومعظم أعمالنا ناتجة عن العقائد الإيمانية. أما التفكير النقدي وانعدام المشاعر اللاهبة فيشكلان عقبتين في وجه الإنخراط والممارسة. ويمكن تجاوزها عن طريق التحريض والدعاية. ولهذا السبب ينبغي أن تستخدم الدعاية لغة الصور الموحية والمجازية، أو لغة الشعارات البسيطة والقاطعة التي تفرض نفسها فرضاً دون مناقشة.

ونخلص من كل تحليلات لوبون إلى القول بأن هناك نمطين من الفكر فقط: الأول يستخدم الفكرة المفهومية والثاني يستخدم الفكرة المجازية أو الصورية. والأول يعتمد على قوانين العقل والبرهان والمحاجة المنطقية، وأما الثاني فيعتمد على قوانين الذاكرة والخيال والتحريض. وأكبر خطأ يرتكبه القائد السياسي هو أن يحاول إقناع الجماهير بالوسائل العقلانية الموجهة إلى أذهان الأفراد المعزولين. فالجماهير لا تقتنع إلا بالصور الإيحائية والشعارات الحماسية والأوامر المفروضة من فوق. فمثلاً لكي يهيج السياسي اليميني موريس باريس الشعب الفرنسي فإنه يدين «البورجوازية السامية الكبرى» (أي اليهودية ضمناً) لأنه يعرف أن في أعماق الشعب الفرنسي عاطفة عداء موروثة ضد اليهود. وأما السياسي اليساري موريس توريز، زعيم الحزب الشيوعي سابقاً، فهو يدين في خطاباته حكم «المائتي عائلة» المتحالفة ضد الشعب. فسواء أكانت هناك مائتا عائلة تحكم فرنسا بالفعل أم لا، فإن المسألة ليست هنا ولا تهم في الأمر شيئاً. المهم أن الشعب حساس لهذه اللغة ويتفهمها جيداً ويثور لدى سماعها، مثلما إنه حساس للغة المضادة لليهود.

هذا لا يعني بالطبع أن لوبون يقترح علينا طريقة للتلاعب بعقول الجماهير من أجل تذليلها وقيادتها كما نشاء ونشتهي. فهذا مناقض لمقصده ولمعطيات العلم. والواقع أنه لا يمكن إقناع الجمهور بفكرة ما أو بعقيدة ما إذا لم نكن مقتنعين بها سلفاً، بل ومقتنعين بها حتى درجة الهوس. ولكنه يعتقد أنه لا يمكن التوجه إلى الجماهير بشكل مختلف. فلا يمكن القيام بعملٍ فردي. فهما من نوعيتين مختلفتين تماماً. ومن يفعل ذلك يكون جاهلاً بقوانين علم النفس. وتكون معاملته مع الجماهير

وكأنها ليست جماهيراً. وهـذا ما يؤدي إلى إحبـاط همتها بـدلاً من تجييشها. وقوانين علم النفس هذه هي بالنسبة لغوستاف لوبون بنفس حتمية قوانين علم الإقتصاد أو الفيزياء. وإذا ما استوعبنا هذه القوانين عرفنا كـيف نحـكم الجماهير ونقود مخيلتها.

ويـرى لوبون أنه على هذه المخيلة تم تأثير رجـالات التـاريخ الكبار، وعن طريق هذا التأثير أنجـزت الأديان الكبرى والأعمال التـاريخية العظيمة كالمسيحية والبوذية والإسلام وحركة الإصلاح الديني (لوثر) ثم الثورة الفرنسية لاحقاً. ولم يستطع أحد في العالم ولا في التـاريخ أن يحكم ضد مخيلة الجماهير هذه بمن فيهم الطغاة الأكثر استبداداً. فحـتى هؤلاء كانوا حـريصين على إثـارة مخيلة الجماهير وإلهاب حماسها عن طريق خطبهم القوية وأسطورتهم الذاتية ومعاركهم الحامية. نـذكر من بينهـم على سبيل المثال لا الحصر: نابليون، أو ماوتسي تونغ أو غيرهما.

هاشم صالح
بـاريس، ١٣/٩/١٩٩٠

توطئة

بقلم: أوتو كلينبيرج

لماذا نقدم طبعة جديدة لكتاب «سيكولوجيا الجماهير» أو علم نفسية الجماهير؟ أليس صحيحاً أن أفكار غوستاف لوبون قد أصبحت لاغية، وأن علم النفس الذي كان يعتنقه مؤسَّس على نزعة التصوف العرقي والعنصري، وأن النتائج التي توصل إليها متأثرة بالأحكام المسبقة، وأن ملاحظاته وتحليلاته محصورة ببعض النوادر الصغيرة والآراء الشخصية؟ وهل ينبغي لهذا الكتاب أن يقرأ أو تعاد قراءته من قبل جيل جديد من الباحثين الاجتماعيين أو الاجتماعيين ـ النفسانيين الذين يحرصون على الموضوعية وعلى المقاربة العلمية لفهم سلوك الجماعات وطريقة تصرف الجماهير؟

لا ريب في أن هناك انتقادات عديدة يمكن توجيهها لهذا الكتاب الصغير. وربما كان أهمها يتعلق بطريقة توظيفه لمفهوم الجنس (أو العرق)، هذا المفهوم الذي يستخدمه مرات عديدة لكي يفسر سبب السلوك المتنوع لمختلف أنواع الجماهير. فهو يتحدث مثلاً عن «المستودع الثابت والمهيمن للعرق» بصفته العامل الذي «ينبغي أن يحظى بالمرتبة الأولى» من اهتمام الباحث. وهو يعتقد بأن «روح العرق ـ أي عرق بشري كان ـ تهيمن كلياً على روح الجمهور». كما أنه يعود باستمرار إلى «مفهوم العرق الأساسي» هذا. وهو يعترف بدور اللاوعي في حسم سلوك الجماهير، ولكنه لا ينسى أن يربطه «بالبنية العقلية لعرقنا». وحتى عظمة الحضارات وانحطاطها مرتبطان بحسب رأيه بالمتغيرات الكائنة في الطبيعة، أو في «روح» العرق الذي ننتمي إليه. وليس ذلك

عائداً إلى أنه يطابق بين العرق والثقافة أو التراث، وإنما لأنـه يؤمن بوجود «تراكمـات موروثة». وفيما يخـص هذه النقطة قلة هم علماء الاجتماع المعاصرون الذين يقبلونها.

وهنـاك عدة أشياء أخـرى يمكننا أن نلومـه عليها ونخـتلف معه فيها. فهو من جهـة يولِّد الانطباع بـأن هناك تطابقاً بين «الجمهور» والأعمال المتطرفة التي تصحب الثورة أو ترافقها. وهـو من جهـة أخـرى يـدمج في سيكولوجية الجماهير مداولات هيئة المحلفين في محكمة الجنايات وكـذلك أنواع السلوك التي تتميز بها المجـالس البرلمانية. ونحـن نعلم أن سيكولوجيا واحـدة لا تـكفي اطلاقاً لتفسير طبيعة هذه الفئات المختلفة جـداً. يـضاف إلى ذلك أن معرفته بعلم الإناسة (أي الإتنولوجيا) تظـل تبسيطية ومسطحـة إلى حـد ما. فهـو يتحـدث عن شيوعية بدائية لم يستطع أحـد حـتى الآن أن يبرهـن على وجودها. وهو يشبِّه سيكولوجيا الجماهير بسيكولوجيا الإنسان «البدائي». كما أنه يقوم بتنبؤات تـدعو للسخرية عندما يصرح مثلاً بـأن النقد المسرحي سوف يلغى «خـلال عشرين سنة» لأن كـل رأي شخصي سوف يصبح بـدون قيمة. وهو يعتبر أن التعصب واللاتسامح «يشكـلان الصفة الملازمة بشكل طبيعي لكل عاطفة دينية»، وأن تربيتنا الحالية «تجـند الكثير من الأتباع المتحمسين لأبشع أنواع الإشتراكية». حقـاً أن الكتاب يحتوي على الكثير من الآراء التي ينبغي أن تخضع للمناقشة من جديد.

ولكـن على الرغم من كل شيء فـإن هذا الكتاب يستحق النشر ثانية! وأنا أتذكر أنني عندما قمـت بدراساتي الجامعية الأولى عن علم النفس الاجتماعي، فـإن المشكلة الأساسية لهذا العلم كانت في نظر معظم الطلاب وحتى في نظر رجل الشارع هي كتاب «سيكولوجيا الجماهير». لقد أثار كتاب غوستاف لوبون هذا الكثير من المناقشات الكبرى والاعتراضات، ولكنه حـرَّض أيضاً على ولادة عـدد كبير من البحوث والكتب الجديدة. كان علم سيكولوجيا الشكل (الجيشتالت باللغة الألمانية) قد عوَّدنا على الاعتراف بـأن الكلّ هـو أكثر من العناصر التي تشكله، وبالتـالي فـإن الجماعة (أو الجمهور) هـو أكثر من كمية من

الأفراد التي يقل عددها أو يكثر. إن ديناميكية الجماعات البشرية والتجارب التي أجريت على التحريض الاجتماعي لا تتفق مع الكثير من الملاحظات التي أوردها غوستاف لوبون دون برهان. ولكن المشاكل المطروحة حالياً ليست مختلفة جداً عن تلك التي تحدث عنها لأول مرة. وعلى الرغم من كل نواقصه، فإنه قد مارس تأثيراً كبيراً على نشأة هذا العلم وتطوره.

لذلك أقول في النهاية: اقرأوا هذا الكتاب بروح نقدية، ولكن اقرأوه..

أوتو كلينبيرج
أستاذ مشارك في كلية الآداب
والعلوم الإنسانية بجامعة باريس
أستاذ شرف في جامعة كولومبيا

الإهداء

إلى تيوفيل ريبو
مدير «المجلة الفلسفية»
أستاذ علم النفس في الكوليج دو فرانس
عضو معهد فرنسا
تحية محبة

تمهيد (١)

إن مجمل الخصائص المشتركة المفروضة من قبل الوسط المحيط والوراثة على كل أفراد شعب ما تشكل روح هذا الشعب.

وبما أن هذه الخصائص ذات أصل عائد إلى الأسلاف فإنها ثابتة جداً. ولكن عندما يحدث أن يتجمهر مؤقتاً عدد كبير من الأفراد بتأثير من عوامل عديدة، فإن الملاحظة العيانية تبين لنا بأنه تنضاف إلى خصائصهم السلفية الموروثة مجموعة أخرى من الخصائص الجديدة مختلفة أحياناً إلى حد كبير عن خصائص العرق الذي ينتسبون إليه.

وتجمهرهم يشكل روحاً جماعية جبارة، ولكن مؤقتة.

لقد لعبت الجماهير في التاريخ دائماً دوراً مهماً، ولكنها لم تلعب هذا الدور بنفس حجم الأهمية الذي تلعبه اليوم. فالعمل اللاواعي للجماهير يمثل (بعد أن يحل محل الفعالية الواعية للأفراد) أحدى خصائص العصر الحالى.

---

(١) لم أغيِّر شيئاً في هذا الكتاب الذي كان قد صدر للمرة الأولى عام (١٨٩٥). والأفكار المعروضة فيه والتي كانت تبدو آنذاك غريبة لا معقولة أصبحت اليوم كلاسيكية (أي مقبولة من قبل الرأي العام). وقد ترجم كتاب «سيكولوجيا الجماهير» إلى العديد من اللغات: الإنكليزية، والإسبانية، والروسية، والسويدية، والتشيكية، والبولونية، والتركية، واليابانية، إلخ...

المقدمة

عصر الجماهير

إن الإنقلابات الكبرى التي تسبق عادة تبديل الحضارات تبدو للوهلة الأولى وكأنها محسومة من قبل تحولات سياسية ضخمة. نذكر من بينها الغزو الذي تتعرض له الشعوب، أو قلب السلالات المالكة. ولكن الدراسة المتفحصة عن كثب لهذه الأحداث تكشف لنا غالباً أن السبب الحقيقي الذي يكمن وراء هذه الأسباب الظاهرية هو التغير العميق الذي يصيب أفكار الشعوب. والإنقلابات التاريخية الحقيقية ليست هي تلك التي تدهشنا بضخامتها وعنفها. ذلك أن المتغيرات الوحيدة المهمة (أي تلك التي ينتج عنها تجدد الحضارات) هي تلك التي تصيب الآراء العامة والتصورات والعقائد. وأما الأحداث الضخمة المأثورة التي تتناقلها كتب التاريخ فهي ليست إلا الآثار المرئية للمتغيرات اللامرئية التي تصيب عواطف البشر. وإذا كانت لا تظهر إلى السطح إلا نادراً، فذلك لأن المخزون الوراثي لعواطف عرق بشري ما هو عنصره الأكثر ثباتاً.

إن الفترة الحالية تشكل إحدى اللحظات الحرجة التي نشهد فيها الفكر البشري وهو في طور التحول والتبدل.

وهناك عاملان أساسيان يشكلان الأساس الجذري لهذا التحول هما: أولاً تدمير العقائد الدينية والسياسية والاجتماعية التي اشتقت منها كل عناصر حضارتنا. وأما الثاني فهو خلق الشروط الجديدة كلياً بالنسبة للوجود والفكر. وقد تولّدت عن الاكتشافات الحديثة للعلوم والصناعة.

وبما أن أفكار الماضي لا تـزال رازحة وجبارة حـتى الآن على الرغم من أنها قد زعزعت، وبما أن الأفكار الجديدة المدعـوة للحـلول محلها لا تـزال في طور التبلور، فـإن العصر الحـديث يمثل فتـرة انتقالية وفوضوية.

وبما أن فترة كهـذه هي بالضرورة مشوشة وفوضوية، فـإنه ليس من السهل أن نتنبأ اليوم بما سيتولد عنها مستقبلاً. فالسؤال المطروح هو: على أية أفكار أساسية سوف تنهض المجتمعات المقبلة التي ستخلف مجتمعنا؟ إننا لا نـزال نجهـل ذلك حـتى الآن. ولكننا نستطيع أن نتنبأ منذ الآن بـأنه ينبغي عليها أن تحسب الحساب فيما يخـص بنيتها وتنظيمها لقوة جديدة تمثل آخـر سيادة تظهـر في العصر الحـديث: إنها قـوة الجماهير وجبروتها. فعلى أنقاض أفكار كثيرة كانت معتبرة صحيحة سابقاً وميتـة اليوم، وعلى أنقاض تـلك السلطات العديدة التي سحقتها الثورات، نجـد أن هذه القوة الجديدة هي وحدها التي نهضت وترسخت. ويبدو أنها سوف تمتص كل الأخريـات قريبا. وفي الوقت الذي راحت فيه عقائدنا القديمة تترنح وتتهاوى، وفي الوقت الذي أخـذت فيه الأعمدة القديمة للمجتمعات تتساقط الواحد بعد الآخـر، فـإننا نجـد أن نضال الجماهير هـو القوة الوحيدة التي لا يستطيع أن يهددها أي شيء. وهي القوة الوحيدة التي تتزايد هيبتها وجـاذبيتها باستمرار. إن العصر الذي ندخل فيه الآن هـو بالفعل **عصر الجماهير**.

ومنـذ قـرن فقط، كانت السياسة التقليدية للدول والمنافسات الجارية بين الحـكام هي التي تشكل العوامل الأساسية لتحـريك الأحـداث. ولم يكن لرأي الجماهير في الغالب الأعم أي قيمة. وأما اليوم فنلاحـظ أن التقاليد السياسية والتوجهـات الفردية للملوك والحـكام والمنافسات الكائنة بينهم لا تؤثـر على مسار الأحـداث إلا قليلاً. وقد أصبح صوت الجماهير راجحاً وغالباً. فهـو الذي يملي على الملوك تصرفاتهم. ولم تعد مقادير الأمم تحسم في مجـالس الحكام، وإنما في روح الجماهير.

إن دخـول الطبقات الشعبية في الحياة السياسية وتحـولها التدريجي إلى طبقات قائدة يمثل أحـد الخصائـص الأكثر بـروزاً لعصرنا، عصر التحول. وهـذا الحـدث الجديد لم يكن، في الواقع، متأثراً بحـق التصويت العام الذي بقي ضعيفاً طيلة فترة طويلة والذي كان ذا توجه سهل جداً في البداية. وإنما لاحظنا أن ولادة قـوة الجماهير قد نشأت أولاً عن طريق نشر بعض الأفكار التي زُرِعـت في النفوس بشكل بطيء، ثم بواسطة التجميع المتدرج للأفـراد من خـلال الروابط والجمعيات. وقد أدى هذا التجمع إلى تجسيد بعض المفاهيم التي كانت قد بقيت نظرية حـتى ذلك الوقت. وقد أتـاح هـذا التجمع للجماهير أن تبلور الأفكار التي إن لم تكن عادلة جداً، فعلى الأقل كانت واعية جداً بمصالحها وقوتها. وراحت الجماهير تشكل النقابات التي تنحـني أمامها كـل السلطات وتستسلم. كما وشكلت بورصات للعمل تحـاول، على الرغم من القوانين الإقتصادية السائدة، أن تتحـكم بشروط العمل والأجـور (أو الرواتب). كما وراحـت ترسل مندوبين عنها إلى المجـالس الحكومية التي تتخـذ القرار. وهـؤلاء الممثلون مجـردون من روح المبادرة والإستقلالية الشخصية، وهم في الغالب الأعم ليسوا إلا الناطقين باسم اللجـان التي اختارتهـم.

والـيوم نلاحظ أن مطالب الجماهير قد أصبحت واضحة أكثر فأكثر وتميل إلى تدمير المجتمع الحالي وقلبه عاليه سافله، لكي تعود به إلى تـلك الشيوعية البدائية التي كانت تمثل الحالة الطبيعية لكل الجماعات البشرية قبل فجر الحضارة. وتتمثل هذه المطالب بالأشياء التالية: تحديد ساعات العمل، تأميم المناجم وسكك الحديد والمعامل والأرض، ثم التوزيع المتساوي للسلع والمنتوجات، ثم تصفية الطبقات العليا لمصلحة الطبقات الشعبية، إلخ...

إن الجماهير غير ميَّالة كـثيراً للتأمل، وغير مؤهـلة للمحاكمة العقلية. ولكنها مؤهـلة جـداً للإنخـراط في الممـارسة والعمل. والتنظيم الحـالي يجعل قوتها ضخمة جـداً. والعقائد الجـديدة التي نشهد ولادتها أمام أعيننا اليـوم سوف تكتسب قريباً نـفس قوة العقائد القديمة: أي القوة

الطغيانية والمتسلطة التي لا تقبل أي مناقشة أو اعتراض. وهكذا نجد أن الحقوق الإلٰهية للجماهير قد أخذت تحل محل القانون الإلٰهي للملوك.

إن الكتَّاب المقربين من بورجوازيتنا الحاكمة والذين يعتبرون أفضل ممثلين لأفكارها الضيقة ووجهات نظرها المحدودة وشكوكيتها المختزلة وأنانيتها المفرطة أحياناً قد أخذوا يشعرون بالهلع والخوف أمام هذه السلطة الجديدة التي يرونها تبزغ وتكبر أمام أعينهم. وهم لكي يحاربوا هذا الإضطراب الذي يصيب النفوس راحوا يوجهون النداءات اليائسة للقوى الأخلاقية للكنيسة، هذه الكنيسة التي طالما احتقروها في الماضي. وقد أخذوا يتحدثون عن إفلاس العلم ويذكِّروننا بتعاليم الوحي وحقائقه. ولكن هؤلاء المعتنقين الجدد للإيمان ينسون أنه إذا كانت العناية الإلٰهية قد مسَّتهم أخيراً، فإنها لا تمارس نفس التأثير على الآخرين غير المكترثين بمشاكل الدار الآخرة. والجماهير لم تعد تريد اليوم آلهة كان أسيادها السابقون قد تنكروا لها بالأمس وحطموها. فالأنهار لا تعود أبداً إلى منابعها.

يضاف إلى ذلك أن العلم لم يفلس أبداً وليس مسؤولاً عن الفوضى الحالية التي تصيب النفوس، ولا عن القوة الجديدة التي تنمو وتكبر وسط هذه الفوضى. فهو قد وعدنا باكتشاف الحقيقة، أو على الأقل معرفة العلاقات التي هي في متناول قدراتنا العقلية. ولكنه لم يعدنا أبداً بتحقيق السلام ولا السعادة. فهو لا يبالي اطلاقاً بعواطفنا، ولا يسمع نواحنا وتأوهاتنا، ولا شيء قادر على إعادة الأوهام التي أزالها وطردها.

وهناك أعراض كونية عديدة موجودة لدى مختلف الأمم وتشهد على النمو السريع لقوة الجماهير. ومهما حمل لنا ذلك من أشياء جيدة أو سيئة، فإننا مضطرون لأن نشهد الظاهرة ونتعرض لها. ولن تؤدي الشتائم والاتهامات إلى أي نتيجة. وربما كان مجيء عصر الجماهير يمثل أحدى آخر مراحل حضارة الغرب. ربما كان يمثل العودة إلى

فترات الفوضى المضطربة التي تسبق عادة ولادة المجتمعات الجديدة. ولكن كيف نمنع مجيء ذلك العصر؟

كان تدمير الحضارات العتيقة قد مثَّل حتى هذه اللحظة الدور الأكبر الذي تلعبه الجماهير. والتاريخ يعلمنا أنه عندما تفقد القوى الأخلاقية التي تشكل هيكل المجتمع زمام المبادرة من يدها، فإن الإنحلال النهائي يتم عادة على يد هذه الكثرة اللاواعية والعنيفة التي تدعى، عن حق، بالبرابرة. وقد كانت الحضارات قد بنيت ووجهت حتى الآن من قبل أرستقراطية مثقفة قليلة العدد، ولم تبنَ أبداً من قبل الجماهير. فهذه الأخيرة لا تستخدم قوتها إلا في الهدم والتدمير. كما أن هيمنتها تمثل دائماً مرحلة من مراحل الفوضى. فالحضارة ـ أية حضارة ـ تتطلب قواعد ثابتة، ونظاماً محدداً، والمرور من مرحلة الفطرة إلى مرحلة العقل، والقدرة على استشراف المستقبل، ومستوى عالياً من الثقافة. وكل هذه العوامل غير متوافرة لدى الجماهير المتروكة لذاتها. فالجماهير بواسطة قوتها التدميرية فقط تمارس فعلها كالجراثيم التي تساعد على انحلال الأجسام الضعيفة أو الجثث. وعندما تنخر أسس الحضارة، فإن الجماهير تجيء لكي تقوضها. وفي تلك اللحظة بالذات يتجلَّى دورها. وعندئذٍ تصبح القوة العمياء للكثرة هي الفلسفة الوحيدة للتاريخ.

فهل سيحصل ذلك لحضارتنا؟ إننا نجهل النتيجة حتى الآن، ولكننا نخشاها.

لنستسلم إذن لحكم الجماهير، ذلك أن الأيدي الجاهلة قد حطمت كل الحواجز التي كان بإمكانها أن توقفها عند حدها.

وهذه الجماهير التي ابتدأ الناس يتحدثون عنها بكثرة لا تزال معرفتنا بها ضعيفة جداً. فبما أن علماء النفس المحترفين قد عاشوا بعيداً عنهافإنهم تجاهلوها باستمرار. ولم يهتموا بها إلا من خلال الجرائم التي قد ترتكبها. وهناك جماهير مجرمة بدون شك، ولكن هناك أيضاً جماهير فاضلة، وجماهير بطلة، وجماهير أخرى عديدة أيضاً. وجرائم الجماهير

لا تشكل إلا حالة خاصة من نفسيتها، ولا يمكننا التعرف عليها فقط من خلالها إلا إذا كان بإمكاننا معرفة الفرد من خلال عيوبه وحدها.

في الواقع أن أسياد العالم ومؤسسي الأديان أو الامبراطوريات ورسل كل العقائد ورجالات الدول العظام وعلى مستوى أقل زعماء الفئات البشرية الصغيرة، كلهم كانوا علماء نفس على غير وعي منهم. وكانوا يعرفون روح الجماهير بشكل فطري، وفي الغالب بشكل دقيق وموثوق جداً. وبما أنهم يعرفونها جيداً ويعرفون كيف يتعاملون معها فإنهم قد أصبحوا أسيادها. فنابليون بونابرت مثلاً كان ينفذ بشكل رائعٍ إلى أعماق نفسية الجماهير الفرنسية، ولكنه كان يجهل بشكل كلي أحياناً نفسية الجماهير التي تنتمي إلى أجناس أو أعراق مختلفة[1].

وهذا الجهل قاده إلى خوض الحروب في إسبانيا وروسيا خصوصاً، هذه الحروب التي أدت فيما بعد إلى سقوطه.

إن معرفة نفسية الجماهير تشكل المصدر الأساسي لرجل الدولة الذي يريد ألا يُحكَم كلياً من قبلها، ولا أقول يحكمها لأن ذلك قد أصبح اليوم صعباً جداً.

إن نفسية الجماهير تبين لنا إلى أي مدى يكون تأثير القوانين والمؤسسات ضعيفاً على طبيعتها الغرائزية العنيفة. كما وتبين لنا إلى أي مدى تبدو عاجزة عن تشكيل أي رأي شخصي ما عدا الآراء التي لقنت لها أو أوحيت إليها من قبل الآخرين. ولا يمكن للقواعد المشتقة من العدالة النظرية الصرفة أن تقودها. وحدها الانطباعات التي يمكن توليدها في روحها يمكنها أن تجذبها. نضرب على ذلك المثل التالي: إذا ما أراد مشرِّع ما أن يفرض ضريبة جديدة، فهل ينبغي عليه أن يختار الضريبة الأكثر عدالة نظرياً؟ بالتأكيد لا. فالضريبة الأكثر ظلماً يمكنها أن تكون الأفضل عملياً بالنسبة للجماهير إذا كانت الأقل مرئية والأقل ثقلاً من حيث المظهر. وهكذا يمكن للضريبة غير المباشرة أن تصبح دائماً مقبولة من قبل الجماهير حتى لو كانت باهظة. فبما أنها موزعة يومياً على مواد الاستهلاك بمبالغ زهيدة جداً، فإنها لا تزعج عادات الجماهير

ولا تخيفها. ولكن إذا ما بدلناها بضريبة تتناسب طرداً مع الرواتب أو الموارد الأخرى وطلب من الجماهير أن تؤديها دفعة واحدة فإنها ستثير الاحتجاجات الهائجة حتى ولو كانت أقل من السابقة بعشر مرات. ذلك أنه محل القروش اللامرئية التي تدفع كل يوم، قد حل مبلغ كلي مرتفع نسبيا، وبالتالي فيثير الانتباه والاعتراض. وهو لا يمر بسهولة إلا إذا دفع يومياً شيئاً فشيئاً. وهذه الحيلة الاقتصادية تحتاج من أجل اكتشافها إلى قدر من الذكاء والفطنة، وهذا ما تعجز عنه الجماهير.

إن هذا المثل يضيء لنا عقلية الجماهير بأوضح ما تكون. وهذا ما لم يخف على خبير نفساني يدعى نابليون. ولكن المشرعين الذين يجهلون روح الجماهير لا يمكنهم أن يفهموها. فالتجربة لم تعلمهم بالشكل الكافي حتى الآن أن البشر لا يتصرفون أبداً انطلاقاً من مبادىء العقل النظري المحض.

وهناك تطبيقات أخرى عديدة يمكننا أن نجريها على نفسية الجماهير. ومعرفة هذه النفسية تلقي أضواء باهرة على العديد من الظواهر التاريخية والاقتصادية التي تبدو غير مفهومة اطلاقاً بدونها.

إن نفسية الجماهير تستحق الدراسة إذن، حتى ولو لم يكن ذلك إلا بغرض الفضول المحض. ذلك أنه من الممتع أن نحلل الدوافع التي تحرك البشر من أجل الإنخراط والممارسة، مثلما هو ممتع أن نحلل معدناً ما أو نبتةً ما.

ودراستنا لروح الجماهير لا يمكنها أن تكون إلا توليفة مختصرة، أو مجرد تلخيص لأبحاثنا. وبالتالي فلا ينبغي أن يطلب منها القارىء أكثر من بعض الآراء ووجهات النظر الموحية. ذلك أنه سيأتي باحثون آخرون ويعمقون الخط أكثر. فنحن لا نفعل اليوم إلا مجرد رسمه على أرضية لا تزال مجهولة جداً حتى الآن[٢].

الكِتابُ الأول

روح الجماهير

الفصل الأول

الخصائص العامة للجماهير
القانون النفسي لوحدتها الذهنية

إن كلمة جمهور تعني في معناها العادي تجمعاً لمجموعة لا على التعيين من الأفراد، أياً تكن هويتهم القومية أو مهنتهم أو جنسهم، وأياً تكن المصادفة التي جمعتهم.

ولكن مصطلح الجمهور يتخذ معنى آخر مختلفاً تماماً من وجهة النظر النفسية. ففي بعض الظروف المعينة، وفي هذه الظروف فقط، يمكن لتكتل ما من البشر أن يمتلك خصائص جديدة مختلفة جداً عن خصائص كل فرد يشكله. فعندئذٍ تنطمس الشخصية الواعية للفرد، وتصبح عواطف وأفكار الوحدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه. وعندئذٍ تتشكل روح جماعية، عابرة ومؤقتة بدون شك، ولكنها تتمتع بخصائص محددة ومتبلورة تماماً. وعندئذٍ تصبح هذه الجماعة ما سأدعوه بالجمهور المنظم نظراً لعدم امتلاكي مصطلحاً اخر. أو قل إنها تصبح جمهوراً نفسياً (سيكولوجياً). إنها تشكل عندئذٍ كينونة واحدة وتصبح خاضعة **لقانون الوحدة العقلية للجماهير**.

وظاهرة أن الكثيرين من الأفراد يجدون أنفسهم متجمعين إلى جانب بعضهم البعض عن طريق المصادفة لا تخلع عليهم خصائص الجمهور المنظَّم. فألف فرد مجتمعون بالمصادفة على الساحة العامة بدون أي هدف محدد لا يشكلون اطلاقاً جمهوراً نفسياً. ولكي يكتسبوا خصائصه المحددة ينبغي أن يحصل تأثير بعض المحرضات التي سنتحدث عنها لاحقاً ونكشف عن طبيعتها.

إن ذوبـان الشخصية الواعيـة للأفراد وتوجيه المشاعر والأفكـار في اتجاه واحـد يشكل الخصيصة الأولى للجمهور الذي هو في طـور التشكل. ولكن ذلك لا يتطلب بالضرورة الحضـور المتزامـن للعديد من الأفـراد في نقطة واحـدة. ذلك أنه يمكن لآلاف الأفـراد المنفصلين عن بعضهم البعض أن يكتسبوا صفـة الجمهور النفسي في لحظة ما وذلك تحـت تأثير بعض الإنفعالات العنيفة أو تحـت تأثير حـدث قومي عظيمٍ مثلاً. وإذا ما جمعتهم صدفة ما كانت كافية لكي يتخـذ سلوكهم فوراً الهيئة الخاصة بـأعمال الجماهير. ويمكن لنصف دزينة من البشر أن يشكلوا، في ساعات معينة من التـاريخ، جمهوراً نفسياً، هـذا في حين أن المئـات من البشر المجتمعين بـطريق الصدفة في مكـان ما يمكنهم ألا يشكلوه. من جهـة أخـرى نلاحـظ أن شعباً بـأكمله يمكنه أن يصبح جمهوراً بتأثير من هـذا العامل أو ذاك بـدون أن يـكون هناك تجـمع مرئي.

ذلك أنه ما إن يتشكل الجمهور النفسي حـتى يكتسب خصائص عامة ومؤقتـة، ولكنها قابلة للفرز والتحـديد. وتنضاف إلى هـذه الخصائص العامة خصائص خاصة متغيرة بحسب العناصر التي يتألف منها الجمهور، والتي يمكنها أن تعدل من بنيته العقلية.

وبالتـالي فـإن ذلك يعني إمكانية تصنيف الجماهير النفسية. ودراسة هذا التصنيف سوف تبين لنا بـأن الجمهور غير المتجـانس والمؤلف من عناصر متبـاعدة يتميز بنفس الخصائص المشتركة التي تتصف بها الجماهير المتجـانسة. والمؤلفة من عناصر متشابهة قـليلاً أو كـثيراً (نقصد بالعناصر هنا الطوائف، أو الفئات أو الطبقات). ولكن توجد بالإضافة إلى هذه الخصائص المشتركة خصوصيات تتيح لنا إقـامة التمايز بينها.

قبل أن نهتم بـدراسة الفئات المختلفة من الجماهير، دعونا نتفحـص أولاً الخصائص المشتركة لـدى الجميع. ونحـن نفعل ذلك على طريقة عالم الطبيعيات والنباتات فنبتدىء بتحـديد الخصائص العامة

لأفـراد عائلة واحـدة ثم الخصائص الخاصة التي تقيم التفريق والتمايز بين الأنـواع والأصنـاف التي تنطوي عليها هذه العائلة بالذات.

وليس من السهل دراسة روح الجماهير، وذلك لأن تركيبتها تختلف ليس فقط بحسب العرق البشري وتشكيلة الجماعات، وإنما بحسب طبيعة المحرضات التي تتعرض لها ودرجة قوتها. ونصطدم بنفس الصعوبة في الواقع إذا ما أردنا القيام بـدراسة نفسية لكائن ما. ففي الروايات نجـد أن الأفراد يتحـلون بخـصائص ثابتة ومستمرة، ولكن ليس في الحياة الواقعية. وحـدها تماثلية البيئة تخـلق التماثلية الظاهرية للخصائص والسمات. كنت قد بينت في مكان آخـر أن كل التشكيلات العقلية أو الذهنية تحتوي على إمكانيات خصائص يمكنها أن تبرز إلى السطح تحت تأثير التغيير المفاجيء للبيئة. وهـكذا يمكننا تفسير وجود بورجوازيين وديعين في صفوف الثوار الفرنسيين الهائجين. وكان يمكن لهؤلاء البورجوازيين أن يكونوا في الحـالات العادية كتَّاب عدل مسالمين أو رجـال قضاء فاضلين. وما إن تمر العاصفة (عاصفة الثورة) حـتى يستعيدوا خصائصهم النفسية الطبيعية. وقد عثر نـابليون في صفوفهم على أفضل خدمه وأكثرهم طاعة.

ولما كنا لا نستطيع أن ندرس هنا كـل مراحل تشكل الجماهير، فـإننا سوف ندرسها بشكل خـاص في المرحلة الأخـيرة والمكتملة من تنظيمها. وعندئذٍ يمكننا أن نـرى ماذا يمكن أن تصبح، ولكن ليس ماهيتها الدائمة. ذلك أنه في مثل هذه المرحلة المتقدمة من التنظيم فقط، وعلى الخلفية الثابتة والمهيمنة للعرق، يمكن لبعض الخصائص الجديدة والخصوصية أن تجيء وتتموضع على السابقة. وتؤدي بذلك إلى توجيه كل مشاعر الجماعة وأفكارها في اتجاه واحـد. وعندئذٍ يتجلَّى ما كنت قد دعوته سابقاً **بالقانون النفسي للوحدة الذهنية للجماهير**.

والكثير من الخصائص النفسية للجماهير موجودة لـدى بعض الأفـراد المعزولين، ولكن هنـاك خصائـص أخـرى لا يمكن أن نجدها إلا

لـدى الجماعات أو التجـمعات. وسوف نحـاول أن نـدرس أولاً هـذه الخصائـص الخصوصية لكي نبين مـدى أهميتها.

والظاهـرة التي تدهشنا أكثر في الجمهور النفسي هي التـالية: أياً تـكن نوعية الأفـراد الـذين يشكلونه، وأياً يـكن نمط حياتهم متشابهاً أو مختلفاً وكـذلك اهتماماتهم ومزاجهـم أو ذكاؤهـم، فـإن مجـرد تحولهم إلى جمهـور يزودهم بنوع من الـروح الجماعية. وهـذه الروح تجعلهم يحسـون ويفكرون ويتحركـون بطريقة مختلفة تماماً عن الطريقة التي كان سيحس بها ويفكر ويتحـرك كل فرد منهم لو كان معزولاً. وبعض الأفكار والعواطف لا تنبثق أو لا تتحـول إلى فعل إلا لـدى الأفـراد المنطوين في صفوف الجمهور. إن الجمهور النفسي هو عبارة عن كائن مؤقت مؤلف من عناصر متنافرة ولكنهـم متراصو الصفوف للحـظة من الزمن. إنهم يشبهون بالضبط خلايا الجسد الحي التي تشكل عن طريق تجمعها وتوحدها كائناً جديداً يتحـلى بخصائص جديدة مختلفة جـداً عن الخصائص التي تمتلكها كل خـلية.

وعـلى عكس الرأي الشائع الـذي يدهشنا أن يتبناه فيلسوف في حجـم وألمعية هيربيرت سبنسر فـإنه لا يوجـد في التجـمع الذي يشكله جمهور ما حـاصل ومتوسط للعناصر، وإنما يوجـد فقط تركيب وخـلق للخاصيات. وهـذا يشبه ما يحصـل في مجـال الكيمياء. فبعض العناصر المستخـدمة في التركيب كالقواعد والحوامض مثـلاً تتداخل في بعضها البعض وتتركب من أجـل تشكيل مادة جديدة مزودة بخصائص مختلفة عن تـلك الخصائص التي كانت تتحـلى بها العناصر المفردة قبل تركيبها.

هـكذا نلاحـظ بـكل سهولة إلى أي مـدى يكون الفرد المنخـرط في الجمهور مختلفاً عن الفرد المعزول. ولكن الشيء الأقـل سهولة هو اكتشاف أسباب مثل هـذا الإخـتلاف.

ولكي نتوصل إلى اكتشافها ينبغي أن نتذكر أولاً هذه الملاحظة الخاصة بعلم النفس الحـديث: إن الظواهر اللاواعية تلعب دوراً حـاسماً ليس فقط في الحياة العضوية أو الفيزيولوجية، وإنما أيـضاً في طريقة

اشتغال الذهن أو آليَّة العقل. والحياة الواعية للروح البشرية لا تشكل إلا جـزءاً ضعيفاً جـداً بالقياس إلى حياتها اللاواعية. والمحلِّل الأكثر فطنة والمراقب الأكثر ذكاء ونفاذاً لا يستطيع التوصل إلا إلى اكتشاف عدد ضئيل جـداً من البواعث اللاواعية التي تحركه. فأفعالنا الواعية متفرعة عن جوهـر لا واع مشكَّل من التأثيرات الوراثية بشكل خـاص. وهذا الجوهر ينطوي على البقايا اللانهائيـة الموروثة عن الأسلاف، وهي التي تشكل روح عرق بشري ما. ذلك أنه وراء الأسباب الظاهرية لأعمالنا تربض أسباب سرية مجهولة من قبلنا. ومعظم أعمالنا اليومية ناتجـة عن دوافع مخبوءة تتجـاوزنا.

إن أفـراد عرق ما يتشابهـون خصوصاً بواسطة العناصر اللاواعية التي تشكل روح هذا العرق. وهم يختلفون عن بعضهم البعض بواسطة العناصر الواعية الناتجة عن التربية ثم بشكل أخـص عن الوراثة الاستثنائية. والبشر الأكثر اختلافاً وتمايزاً من حـيث الذكاء لهم غرائز وانفعالات وعواطف متماثلة أحياناً. والرجـال الأكثر عظمة وتفوقاً لا يتجـاوزون إلا نـادراً مستوى النـاس العاديين في كل ما يخـص مسائلٍ العاطفة: من دين وسياسة وأخـلاق وتعاطف وتباغض، إلخ... فمثلاً يمكن أن توجد هوة سحيقة بين عالم رياضيات شهير وصانع أحذيته على المستوى الفكري، ولكن من وجهـة نظر المزاج والعقائد الايمانية فـإن الإخـتلاف معـدوم غالباً، أو قل إنه ضعيف جـداً.

وهذه الصفات العامة للطبع التي يتحـكم بها اللاوعي والتي يمتلكها معظم الأفـراد الطبيعيين لعرقٍ ما بنفس الدرجة تقريباً هي بالضبط تـلك التي نجدهـا مستنفرة لـدى الجماهير. فالكفاءات العقلية للبشر وبالتـالي فرادتهم الذاتي تمَّحي وتـذوب في الروح الجماعية. وهـكذا يـذوب المختلف في المؤتـلف وتسيطر الصفات اللاواعية.

وهـذا الإستنفار المشترك للصفات العادية هو الـذي يفسر لنا السبب في أن الجماهير لا تستطيع إنجـاز الأعمال التي تتطلب ذكاء عالياً. فالقرارات ذات المصلحـة العامة التي تتخذهـا جمعية متميزة من

البشر ولكن من اختصاصات مختلفة ليست متفوقة كثيراً على القرارات التي يتخذها تجمع من البلهاء. ذلك أنه يمكنهم أن يجمعوا هذه الصفات المتدنية التي يمتلكها الجميع. فالجماهير لا تجمع الذكاء في المحصلة وإنما التفاهة. فليس المجتمع يمتلك ذكاء أكثر من فولتير كما يرددون غالباً. وإنما فولتير يمتلك ذكاء أكثر من المجموع إذا كان «المجموع» يعني الجماهير.

ولكن إذا كان الأفراد المنضوون في صفوف الجمهور يقبلون بذوبان خصوصيتهم وصفاتهم العادية، فإننا نتوصل إلى معدل وسطي وليس إلى خلق صفات جديدة كما ذكرنا سابقاً. فبأي طريقة تتشكل هذه الصفات؟ لنبحث عنها دفعة واحدة.

هناك أسباب عديدة تتحكم بظهور الصفات الخاصة بالجماهير. وأولها هو أن الفرد المنضوي في الجمهور يكتسب بواسطة العدد المتجمع فقط شعوراً عارماً بالقوة. وهذا ما يتيح له الإنصياع إلى بعض الغرائز، ولولا هذا الشعور لما انصاع. وهو ينصاع لها عن طوع واختيار لأن الجمهور مُغْفَل بطبيعته وبالتالي فغير مسؤول. وبما أن الحس بالمسؤولية هو الذي يردع الأفراد فإنه يختفي في مثل هذه الحالة كلياً.

وأما السبب الثاني فهو العدوى العقلية أو الذهنية. فهي تتدخل أيضاً لكي ترصد لدى الجماهير تجليات الصفات الخاصة، ثم لكي توجهها في نفس الوقت. والعدوى ظاهرة تسهل ملاحظتها، ولكنها غير مفسَّرة حتى الآن. وينبغي أن نربطها بالظواهر ذات التنويم المغناطيسي التي سندرسها بعد قليل. فلدى الجمهور نجد أن كل عاطفة وكل فعل هما معديان بطبيعتهما، وهما معديان إلى حد أن الفرد يضحي بسهولة كبيرة بمصلحته الشخصية من أجل المصلحة الجماعية. وهذه قابلية معاكسة لطبيعته، ولا يمكن للمرء أن يمتلكها إلا إذا أصبح جزءاً من الجمهور.

وهناك سبب ثالث أكثر أهمية وحسماً بكثير لأنه يوجد في الأفراد

المنخرطين في الجمهور صفات خصوصية تكون أحياناً معاكسة لصفات الفرد مأخوذاً على حدة. أقصد بذلك هنا صفة التحريضية التي لا تشكل عدواها المذكورة آنفاً إلا أثراً من آثارها.

ولكي نفهم هذه الظاهرة ينبغي أن تكون لدينا بعض المعلومات عن أخر الاكتشافات الحديثة لعلم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا). فنحن نعلم اليوم أنه يمكن وضع الفرد في حالة معينة يفقد فيها شخصيته الواعية، وبالتالي فهو يخضع لكل اقتراحات الجراح الذي جعله يفقدها. وعندئذٍ يقترف أكبر الأعمال مخالفة لطبعه الحقيقي وعاداته. وعلى نفس الشاكلة نجد أن المراقبة اليقظة قد برهنت على أن الفرد المنضوي منذ بعض الوقت في وسط جمهور هائج سرعان ما يسقط في حالة خاصة تشبه كثيراً حالة الإنجذاب الشديد الذي يشعر به المنوَّم مغناطيسياً تجاه منوِّمه. وبما أن حياة الدماغ تصبح مشلولة لدى الإنسان المنوَّم مغناطيسياً، فإنه يصبح عبداً لكل فعالياته اللاواعية. ويصبح منوِّمه قادراً على توجيهه الوجهة التي يشاء. وهكذا تصبح الشخصية الواعية مغمياً عليها، وتصبح إرادة التمييز والفهم ملغاة. وعندئذٍ تصبح عواطف المنوَّم وأفكاره موجهة في الإتجاه الذي يحدده المنوِّم.

هذه هي حالة الفرد المنخرط في الجمهور. وقد قدمنا لها وصفاً متكاملاً تقريباً. فهذا الفرد لا يعود واعياً بأعماله. فحالته تشبه حالة المنوَّم مغناطيسياً، بمعنى أن بعض ملكاته تصبح مدمَّرة، في حين أن بعضها الآخر يستثار ويستنفر إلى الحد الأقصى. وتأثير كل اقتراح يملى عليه أو كل تحريض يمثل قوة طائشة لا يمكن ردها من أجل تنفيذ بعض الأعمال. وهذه القوة الهائجة تكون عادة أقوى لدى الجماهير منها لدى الإنسان المنوَّم مغناطيسياً. فبما أن المحرِّض هو واحد بالنسبة لكل أفراد الجمهور، فإنه يتضخم ويكبر عن طريق التبادل. وأفراد الجمهور الذين يمتلكون شخصية قوية جداً تمكِّنهم من مقاومة المحرِّض هم ذوو عدد ضئيل وبالتالي فإن التيار يجرفهم معه. وكل ما يستطيعونه هو محاولة تحويل الأنظار باتجاه آخر عن طريق تقديم اقتراح مختلف. وأحياناً تجيء كلمة في الوقت المناسب أو تثار

صورة معينة فتحـول الجماهير عن اقتراف أبشع الأعمال الدموية.

إذن إليكم الآن مجـموع الخصائص الأساسية للفرد المنخـرط في الجمهور: تـلاشي الشخصية الواعية، هيمنة الشخصية اللاواعية، توجه الجميع ضمن نفس الخط بواسطة التحـريض والعدوى للعواطف والأفكار، الميل لتحـويل الأفكار المحرَّض عليها إلى فعل وممارسة مبـاشرة. وهـكذا لا يعـود الفرد هـو نفسه، وإنما يصبح عبارة عن إنسان آلي ما عـادت إرادته بقادرة على أن تقوده.

هـذا يعني أنه بمجـرد أن ينضوي الفرد داخـل صفوف الجمهور فـإنه ينزل درجـات عديدة في سلم الحضارة. فهـو عندما يـكون فرداً معـزولاً ربما يـكون إنساناً مثقفاً متعقلاً، ولكنـه ما إن ينضم إلى الجمهور حـتى يصبح مقوداً بغريزته وبالتـالي همجياً. وهو عندئذٍ يتصف بعفوية الكائنات البدائية وعنفها وضراوتها وحماستها وبطولاتها أيضاً. ويقترب منها أكثر بالسهولة التى يترك نفسه فيها عرضة للتأثُّـر بالكلمات والصور التي تقوده إلى اقتراف أعمال مخالفة لمصالحه الشخصية بشكل واضح وصريح. إن الفرد المنخرط في الجمهور هو عبارة عن حبـة رمل وسط الحبات الرملية الأخـرى التي تذروها الرياح على هواها.

عـلى هذا النحو يمكننا أن نفهم كـيف أن هيئات التحـكيم الجماعية تصدر أحـكاماً كان يمكن أن يدينها كـل عضو مأخـوذاً على حدة. وهكذا نفهم كـيف أن المجـالس البرلمانية تتبنى القوانين والمراسيم التي كان سيخالفها كـل عضو مؤخوذاً على حـدة. وإذا ما نظرنا إلى أعضاء الجمعية التأسيسية بعد الثورة الفرنسية وجدنا أنهم كانوا بورجوازيين هـادئين ذوي عادات مسالمة. ولكنهـم ما إن اندمجـوا بالجمهور حتى أصبحوا هائجين متحمسين. ولم يترددوا تحت تأثير بعض المشاغبين في أن يرسلوا إلى المقصلة الأشخاص الأكثر بـراءة. وقد ساروا بذلك عكس مصالحهـم الخاصة وتخـلوا عن حصانتهم البرلمانية وأبادوا أنفسهم بأنفسهم.

إن الفرد المنخـرط في الجمهور لا يخـتلف فقط بالأعمال

والتصرفات عن نفسه وهو في الحالة العادية، وإنما نلاحظ أنه حتى قبل أن يفقد كل استقلالية فإن أفكاره وعواطفه قد تحولت وتغيرت إلى درجة القدرة على تحويل البخيل إلى كريم، والشكَّاك إلى مؤمن، والرجل الشريف إلى مجرم، والجبان إلى بطل. إن تخلي النبلاء الفرنسيين عن كل امتيازاتهم وتصويتهم على قرار التخلي هذا في لحظة حماسة واندفاع في تلك الليلة الشهيرة لأربعة أغسطس/آب من عام (١٧٨٩) ما كان ممكناً أن يحصل أو يقبل من قبل كل واحد منهم مأخوذاً على حدة.

لنلخص كل الملاحظات السابقة قائلين بأن الجمهور هو دائماً أدنى مرتبة من الإنسان المفرد فيما يخص الناحية العقلية والفكرية. ولكن من وجهة نظر العواطف والأعمال التي تثيرها هذه العواطف فإنه يمكن لهذا الجمهور أن يسير نحو الأفضل أو نحو الأسوأ. وكل شيء يعتمد على الطريقة التي يتم تحريضه أو تحريكه بها. وهذه هي النقطة التي جهلها الكتَّاب الذين لم يدرسوا الجماهير من وجهة النظر الجرائمية. صحيح أن الجماهير غالباً ما تكون مجرمة، ولكنها غالباً ما تكون أيضاً بطلة. فمن السهل اقتيادهم إلى المذبحة والقتل باسم النضال من أجل انتصار عقيدة إيمانية أو فكرة ما. ومن السهل تحريكهم وبث الحماسة في مفاصلهم من أجل الدفاع عن المجد والشرف. وبالإمكان تجييشهم واقتيادهم بدون خبز وبدون سلاح تقريباً كما حصل أثناء الحروب الصليبية من أجل تخليص قبر المسيح من أيدي الكفار، أو من أجل الدفاع عن تراب الوطن كما حصل عام (١٧٩٣) أي بعد قيام الثورة الفرنسية بأربع سنوات فقط. صحيح أنها بطولة لا واعية إلى حد ما، ولكن التاريخ لا يصنع إلا من قبل بطولات كهذه. وعلى فرض إننا لم نتذكر من فضائل الشعوب إلا الأعمال التي أنجزتها بكل برودة أعصاب وعقلانية هادئة، فإن حوليات العالم لن تسجل إلا العدد القليل جداً منها.

الفصل الثاني

عواطف الجماهير وأخلاقيتها

بعد أن تحدثنا بشكل عام جداً عن الخصائص الأساسية للجماهير، سوف نتحدث الآن عنها بالتفصيل.

إن العديد من خصائص الجماهير الخصوصية من مثل سرعة الإنفعال والنزق والعجز عن المحاكمة العقلية وانعدام الرأي الشخصي والروح النقدية والمبالغة في العواطف والمشاعر، وغيرها، كل ذلك نلاحظه لدى الكائنات التي تنتمي إلى الأشكال الدنيا من التطور كالشخص المتوحش أو الطفل مثلاً. وهذه المقارنة التشبيهية لا أثيرها هنا إلا عرضاً. فالبرهنة عليها تتجاوز حدود هذا الكتاب وإطاره. وسوف تكون بلا جدوى بالنسبة للمطلعين على علم نفس الأشخاص البدائيين، وسوف يكون اقناعها ضعيفاً بالنسبة لأولئك الذين يجهلونه.

سوف أتناول الآن الخصائص الأساسية الواحدة بعد الأخرى، هذه الخصائص التي تسهل ملاحظتها لدى معظم أنواع الجماهير.

١ ـ سرعة انفعال الجماهير وخفتها ونزقها

كنا قد قلنا سابقاً عندما درسنا الخصائص الأساسية للجمهور بأنه مقود كلياً تقريباً من قبل اللاوعي. فأعماله واقعة تحت تأثير النخاع الشوكي أكثر مما هي واقعة تحت تأثير المخ أو العقل. ويمكنها أن تنجز هذه الأعمال بكل دقة وتمام من حيث التنفيذ. ولكن بما أنها غير

موجهـة من قبل المخ فـإن الفرد يتصرف على هـوى صـدف التحـريض والإثـارة. إن الجمهور، الذي يمثل لعبة واقعة تحـت تأثير كـل المحرضات الخارجية، يعـكس متغيراتها التي لا تتوقف. وبالتالي فهـو عبد للتحريضـات التي يتلقاها. والفـرد المعزول يمكنه أن يخضـع لنفس المحرضات المثيرة كالإنسان المنخـرط في الجمهور. ولكن عقله يتدخـل ويبين له مساوىء الانصياع لها، وبالتـالي فـلا ينصاع. ويمكننا أن نحـدد فيزيولوجيا هذه الظاهرة عن طريق القول بـأن الفرد المعزول يمتلك الأهلية والكفاءة للسيطرة على ردود فعله، هـذا في حين أن الجمهور لا يمتلكها.

إن الإنفعالات التحريضية المختلفة التي تخضع لها الجماهير يمكنها أن تكون كريمة أو مجرمة، بطولية أو جبـانة وذلك بحسب نوعية هذه المحرضات. ولكنها سوف تـكون دائماً قوية ومهيمنة على نفوس الجماهير إلى درجة أن غريزة حـب البقاء نفسها تـزول أمامها. (بمعنى أنها مستعـدة للموت من أجلهـا).

وبما أن المحرضات القادرة على تهييج الجماهير متنوعة ومتعـددة، وبما أن الجماهير تنقاد لها دائماً، فـإننا نجـدها حيوية ومتحركة إلى أبعد حـد. فنحـن نجدها تنتقل في لحظة واحـدة من مرحلة الضراوة الأكثر دموية إلى مرحلة البطولة المطلقة. إن الجمهور يمكنه بسهولة أن يصبح جـلاداً، ولكـن يمكنه بنفس السهولة أن يصبح ضحية وشهيداً. فمن أعماقه سالت جـداول الـدم الغزيرة الضرورية لانتصار أي عقيدة أو إيمان جـديد. ولا داعي للعودة إلى العصور البطولية لكي نعرف مـدى إمكانيات الجماهير وقدراتها. فهـي لا تبخل أبداً بحياتها عندما يحـدث الهياج الشعبي. والدليل على ذلك أن جنرالاً في الجيش أصبح شعبياً فيما بعد واستطاع أن يسوق معه مائة ألف شخـص مستعدين للتضحية بأنفسهم من أجـل قضيته. (المقصود نابليون).

وإذن فـلا شيء متعمَّد أو مـدروس لـدى الجماهير. فهي تستطيع أن تـعيش كـل أنواع العواطف وتنتقل من النقيض إلى النقيض بسرعة البرق وذلك تحت تأثير المحرض السائد في اللحظة التي تعيشها. إن

الجماهير تشبه الأوراق التي يلعب بها الإعصار ويبعثرها في كل اتجاه قبل أن تتساقط على الأرض. إن دراسة بعض الجماهير الثورية تقدم لنا بعض الأمثلة عن تغير عواطفها وتنوعها وتقلبها.

وهذه الصفة الحركية المتغيرة التي تتميز بها الجماهير تجعل من الصعب حكمها، وخصوصا عندما يسقط جزء من السلطات العامة في يدها. ولو أن ضرورات الحياة اليومية لا تشكل نوعاً من الميزان الناظم غير المرئي للأحداث لما استطاعت الأنظمة الديمقراطية أن تستمر. ولكن الجماهير التي ترغب في الوصول إلى الأشياء بنوع من السعار المجنون لا تثبت عليها لفترة طويلة. فهي عاجزة عن الإرادة الدائمة مثلما هي عاجزة عن التفكير الدائم والمستقر.

ولكن الجمهور ليس فقط انفعالياً ومتقلباً. وإنما هو أيضاً كالإنسان الهمجي لا يعبأ بأي عقبة تقف بين رغبته وبين تحقيق هذه الرغبة. نقول ذلك وخصوصاً أن عدده الكبير يشعره بامتلاك قوة لا تقاوم. فمهوم المستحيل لا معنى له بالنسبة للفرد المنخرط في الجمهور. فالإنسان المعزول يعرف جيداً أنه لا يستطيع أن يحرق قصراً أو ينهب مخزناً، وبالتالي فإن مجرد التفكير بذلك لا يخطر على باله. ولكنه ما إن ينخرط في الجمهور حتى يحس بالقوة الناتجة عن العدد والكثرة. وفي أي فرصة تسنح للقتل أو النهب فإنه ينصاع فوراً ولا يتردد في اقتراف ذلك. وكل عقبة مفاجئة تعترض طريقه يكسرها بجنون مسعور. وإذا كان الجسم البشري يسمح بتأبيد الهيجان فإنه يمكننا القول بأن الحالة الطبيعية للجمهور المغيظ هي الهيجان.

وفي نزق الجماهير وانفعاليتها وتقلبها وفي كل العواطف الشعبية التي سندرسها لاحقاً تتدخل دائماً الخصائص الأساسية للعرق. فهذه الخصائص تشكل الأرضية الثابتة التي تنبت عليها عواطفنا أو مشاعرنا. لا ريب في أن الجماهير ـ كل الجماهير ـ تتسم بالنزق والانفعالية، ولكن بدرجات متفاوتة ومتغيرة. فالفرق بين الجمهور اللاتيني والجمهور الانغلوساكسوني مثلاً يثير الدهشة حقاً. والأحداث القريبة التي شهدها

تاريخنا تـلقي أضواء ساطعة على ما نقـول. ففي عام (١٨٧٠) كان مجـرد نشر برقية تتضمن شتيمة مزورة كافياً لإنفجـار الغضب الذي أدى مبـاشرة إلى إشعال حـرب رهيبة. وبعد بضع سنوات من ذلك التـاريخ كان الإعلان برقاً عن حصـول فشل لا أهمية له في لانغسون قد ولّد انفجـاراً جـديداً أيضاً أدى إلى القلب الفوري للحكومة الفرنسية. ولكن تعرضت حملة إنكليزية أمام الخرطوم في نفس اللحظة لفشل آخر (أو لهزيمة أخـرى) أكثر أهمية بـكثير ولم ينتج عنها في إنكلترا إلا انزعاج خـفيف، ولم يستقل أي عضو من أعضـاء الحكومة. إن الجماهير أنثوية في كل مكان، ولكن أكثرهـا أنثوية هي الجماهير اللاتينية. والقائد الذي يعتمد عليها يمكنه أن يصعد عالياً وبسرعة شديدة ولكنه يحـاذي الخطر باستمرار ويعرف يقيناً أنـه سوف يسقط يوماً ما لا محـالة.

٢ ـ سرعة تأثر الجماهير وسذاجتها وتصديقها لأي شيء

قلنا سابقاً بـأن إحـدى الخصائص العامة للجماهير هي سرعة تأثرها بـأي اقتراح، وبيَّنا حجـم عدوى وانتشار أي اقتراح يطلق في تجمع بشري معين. وهـذا ما يفسر لنا القدرة على التوجيه السريع لعواطف الجمهور باتجاه محـدد.

وأيـاً تكن حيادية الجمهور، فـإنه يجـد نفسه في غالب الأحيان في حالة من الترقب المهيـأة لتلقي أي اقتراح. وأول اقتراح يظهر يفرض نفسه مبـاشرة عن طريق العـدوى والانتشار لـدى كـل الأذهـان، ثم يحـدد الاتجـاه الذي ينبغي اتباعه حـالاً. ولـدى الأشخـاص المستثارين تميـل الفكرة الثابتة إلى أن تتحـول إلى فعل. وسواء أكـان هذا الفعل هـو حـرق قصر أم القيام بعمل خـيري جـليل فـإن الجمهور ينخـرط من أجله مبـاشرة وبنفس السهولة. وكـل شيء يعتمد على طبيعة المحرِّض، وليس على العلاقات الكائنة بين العمل المحرَّض عليه وبين حجـم السبب الـذي قد يعاكس تحقيقه كما هو عليه الحـال لدى الفرد المعزول.

إن الجمهور يشرد باستمرار على حـدود اللاشعور ويتلقى بطيبة خـاطر كل الاقتراحـات والأوامر. كما أنه مليء بالمشاعر الخاصة

بالكائنات غير القادرة على الاحتكام للعقل ومحروم من كل روح نقدية. وبالتالي فهو لا يستطيع إلا أن يبدي سذاجة وسرعة تصديق منقطعة النظير. والمستحيل غير موجود بالنسبة له، وينبغي التذكير بذلك من أجل أن نفهم كيف تخلق الأساطير والحكايات الأكثر غرابة وشذوذاً، وكيف تشيع وتنتشر بسهولة[1].

إن خلق الأساطير التي تنتشر بمثل هذه السهولة في أوساط الجماهير ليس فقط ناتجاً عن سرعة كاملة في التصديق، وإنما عن تشويه هائل أو تضخيم هائل للأحداث في مخيلة الأفراد المحتشدين (أي الجمهور). فالحدث الأكثر بساطة يتحول إلى حدث آخر مشوه بمجرد أن يراه الجمهور. فالجمهور يفكر عن طريق الصور، والصور المتشكلة في ذهنه تثير بدورها سلسلة من الصور الأخرى بدون أي علاقة منطقية مع الأولى. ويمكننا أن نتصور بسهولة هذه الحالة عن طريق التفكير بالتتابع الغريب للأفكار الذي يقودنا إليه تذكر حدث معين. والعقل يبين لنا عدم تماسك مثل هذه الصور، ولكن الجمهور لا يرى ذلك. فالواقع إنه يخلط بين التضخيم الذي يلحقه بالحدث وبين الحدث ذاته. وبما أنه غير قادر على التمييز بين الذاتي والموضوعي فإنه يعتبر الصورة المثارة في خياله بمثابة الواقعية والحقيقية، هذا على الرغم من أنها ذات علاقة بعيدة جداً مع الواقعة المرئية.

ومن المتوقع أن تكون التضخيمات والتشويهات التي يلحقها جمهور ما بحدث مايشهده شخصياً، كثيرة جداً وذات معان متعددة، وذلك لأن الأشخاص الذين يشكلون الجمهور ذوو طباع شديدة الاختلاف والتنوع. ولكن الواقع غير ذلك أبداً. ذلك أنه بسبب العدوى، فإن هذه التشويهات هي ذات طبيعة واحدة ومعنى واحد بالنسبة لكل أفراد الجماعة. فأول تشويه يلحظه أحدهم يشكل نواة التحريض المُعدِي. نضرب على ذلك مثلاً القديس جورج. فقبل أن يظهر على جدران القدس بالنسبة لكل الصليبيين، كان قد ظهر فقط لأحد الحاضرين أولاً. وعن طريق التحريض والعدوى فإن المعجزة التي شاهدها هذا الشخص قد أصبحت مقبولة من قبل الجميع.

هـذه هي الآليَّة التي تحـرك تلك الهلوسات الجماعية المتكررة كـثيراً جـداً في التـاريخ، والتي تبدو وكأنها تمتلك كـل الخصائص الكلاسيكية للصحة والموثوقية لأنها تخـص ظواهر ملاحظة من قبل آلاف الأشخـاص.

والقيمة العقلية للأفـراد الذين يشكلون الجمهور لا تنقض هذا المبدأ. فهـي غير ذات أهمية. ذلك أنه بمجـرد أن يجتمع هـؤلاء على هيـئة جمهور فـإن الجاهل والعالم يصبحـان عاجـزين عن الملاحـظة والنظر.

وقد تبـدو هذه الفكرة تناقضية. ولكي نبرهن عليها ينبغي أن نستعيد عـدداً كـبيراً من الوقائع التـاريخية. ولو قمنا بتأليف عـدة كـتب عن هذه النقطة لما كفـاها.

ولكن بما أني لا أريد أن أتـرك القارىء يتلقى هذه الأقوال دون برهـان، فـإني سأقـدم له بعض الأمثـلة التي يمكن تناولها بالمصادفة من بين كـل الأمثلة العديدة التي يمكننا ملاحظتها.

والواقعة التـالية التي سأذكرها تعتبر نمطية وعامة لأنها مخـتارة من بيـن تلك الهلوسات الجماعية التي تحـل بالجمهور الـذي يتواجـد فيه أفـراد من كـل نوع سواء أكانوا جهـلة أم متعلمين. وقـد ذكر عرضاً من قبل ضابـط البحرية جوليان فيليكس في كتـابه عن تيـارات الماء البحرية.

كـانت الفرقاطة الملقبة **بالدجاجة الجميلة** تنتشر في البحر من أجـل العثور على السفينة الحربية الملقبة **بالمهد** التي كانت عاصفة عنيفة قد فصلتها عنها. وكـان ذلك في عـز النهار تحت السماء ذات الشمس الساطعة. وفجـأة رأى مراقـب السفينة زورقاً مضطرباً خائفاً. وعندئذٍ وجـه الفريق أنظاره نحـو النقطة المرصودة، أي نحـو الزورق. ورأى الجميع من ضبـاط وبحـارة طوافة محملة بالرجـال المجـرورين بواسطة زوارق، وتلوح عليها علائم الاستغاثة. وعندئذٍ جهَّـز الأميـرال ديسفوسي قارباً محمـلاً بالأسلحـة وأرسلـه من أجـل إنقـاذ هؤلاء الأشخـاص المهددين بالغرق. وعندما اقترب الضباط والبحـارة منهـم تخيلوا رؤيـة «مجـموعة

من الرجال الذين يتخبطون في الماء ويمدون أيديهم للإنقاذ. وتخيلوا سماع أصوات عديدة تصرخ منادية بالإستغاثة». ولكن عندما وصلوا إليهم وإلى الطوافة المزعومة فإنهم لم يجدوا إلا مجموعة من أغصان الأشجار المغطاة بأوراق منتزعة من الشاطىء المجاور! وأمام هذه الحقيقة الواضحة كعين الشمس تبخرت الهلوسات وانتهت.

إن هذا المثال يعري لنا بوضوح آلية الهلوسة الجماعية كما كنا قد شرحناها سابقاً. فمن جهة نجد الجمهور في حالة الانتظار والترقب، ومن جهة أخرى نجد الاقتراح التحريضي الذي أثاره مراقب مرصد السفينة وأشعل بذلك الهلوسة بخصوص الزورق المضطرب والضائع في البحر. وهذا الاقتراح التحريضي انتشر إلى الآخرين بواسطة العدوى وقبلوه جميعاً من ضباط أو بحارة عاديين.

وليس الجمهور بحاجة لأن يكون كثير العدد لكي تُدمَّر إمكانيته على الرؤية بشكل صحيح، ولكي تحل الهلوسات محل الوقائع الحقيقية التي لا علاقة لها بها. فيكفي أن يجتمع بعض الأفراد لكي يشكلوا جمهوراً، وحتى لو كانوا علماء متميزين، فإنهم يتحلون بكل صفات الجماهير فيما يخص الموضوعات الخارجة عن دائرة اختصاصهم. ذلك أن مَلَكَة الملاحظة والروح النقدية التي يمتلكها كل واحد منهم تضمحل وتتبخر.

وقد قدم لنا عالم النفس الأريب السيد «دافي» مثالاً غريباً على ذلك. وأوردته **حوليات العلوم النفسية** على صفحاتها. وهو يستحق الذكر هنا. فقد دعا السيد دافي مجموعة من المراقبين الكبار لحضور اجتماع خاص. وكان من بينهم أحد علماء إنكلترا الكبار السيد والاس. وقد أجرى أمامهم عملية تحضير الأرواح بعد أن تركهم يتفحصون كل المواد التي استخدمها ويتركون عليها بصماتهم أو دمغاتهم. وقد تمثلت هذه العملية بتجسيم الأرواح والكتابة على ألواح اردواز، إلخ... وبعد أن حصل من مشاهديه المشهورين على تقارير مكتوبة تؤكد على أن الظواهر التي جرت أمام أعينهم قد حصلت بوسائل

خارقة للطبيعة، فإنه كشف لهم أنهم وقعوا ضحية حيلة أو خدعة بسيطة جداً. وقد كتب ناقل هذه القصة يقول: «الشيء المدهش أكثر في دراسة السيد دافي ليس إعجاب الجميع بأنفسهم، وإنما الضعف الهائل للتقارير التي كتبها مشاهدون غير مجربين بهذه الأشياء. وبالتالي فإنه يمكن للشهود أن يرووا حكايات عديدة وإيجابية عما شاهدوه، ولكنها خاطئة. ومفادها أنه إذا **ما قبلنا بصحة ما تقوله**، فإنه لا يمكن تفسير الظواهر التي يذكرونها بأنها خدعة. والمناهج التي اخترعها السيد دافي كانت بسيطة إلى درجة أننا أصبنا بالدهشة لأنه استخدمها. ولكنه كان يمتلك سلطة كبيرة على الجماهير إلى درجة أنه كان قادراً على إقناعها برؤية ما لا تراه». وهذه هي دائماً سلطة المنوِّم مغناطيسياً على المنوَّم. ولكن عندما نرى هذه السلطة تمارس على شخصيات كبيرة يصعب خداعها فإنه يمكننا أن نتصور مدى السهولة التي تسقط فيها الجماهير العادية في الأوهام.

والأمثلة الشبيهة بذلك عديدة جداً. فقبل بضع سنوات تحدثت الصحف عن طفلتين غرقتا في نهر السين وتم سحبهما. وقد تعرف عليهما بشكل قاطع دزينة من الشهود. وأمام مثل هذه التأكيدات القاطعة لم يبق هناك أي شك لدى قاضي التحقيق. وسمح عندئذٍ بكتابة وثيقة الوفاة. ولكن في اللحظة التي تهيأوا فيها للدفن شاءت الصدفة أن تكشف أن الضحيتين المفترضتين كانتا على قيد الحياة ولا تشبهان إلا قليلاً جداً الفتاتين الغريقتين. وهكذا نجد كما في الأمثلة العديدة السابقة أن شهادة الشاهد الأول الواقع ضحية الوهم تعدي بقية الشهود.

وفي الحالات المشابهة نجد أن نقطة الإنطلاق للاقتراح التحريضي تكمن دائماً في الوهم المتولد لدى فرد ما عن طريق التذكر المبهم والغامض قليلاً أو كثيراً، ثم بعدئذٍ عن طريق العدوى المتمثلة بالتأكيد على هذا الوهم الأولي. وإذا كان المراقب الأول للظاهرة متأثراً جداً، فإنه يكفي أن تتصف الجثة التي يعتقد بأنه قد تعرف عليها ببعض العلامات الخصوصية كنُدْب مثلاً أو أي شيء آخر قادر على أن يثير لديه صورة شخص آخر. وعندئذٍ تصبحْ هذه الفكرة المثارة نواة لنوع من

التبلور والتضخم الذي يغزو ساحة العقل ويشل كل فعالية نقدية. وما يراه المراقب عندئذٍ لا يعود الشيء ذاته، وإنما الصورة المثارة في مخيلته عنه. وهكذا يمكن تفسير التعرف الخاطىء على جثث الأطفال من قبل أمهم كما هو عليه الحال في القصة التالية. وفي هذه القصة القديمة نجد كلا النوعين من التحريض اللذين تحدثت عن آليتهما آنفاً:

«لقد تم التعرف على الطفل من قبل طفل آخر، وكان مخطئاً. وعندئذٍ ابتدأت سلسلة من التعرف غير الدقيق.

ثم رأينا شيئاً خارقاً للعادة. ففي صبيحة اليوم الذي تعرف عليه تلميذ مدرسة صرخت امرأة قائلة: «آه يا إلهي، إنه طفلي!».

فأدخلوها حتى أصبحت على مقربة من الجثة، وتفحصتها ولاحظت وجود ندب في الجبين. وقالت: «إنه ولدي المسكين بالفعل. لقد ضاع منذ شهر يوليو الماضي. لقد سرقوه مني وقتلوه!».

كانت المرأة تشتغل بواباً في شارع «فور» وكان اسمها شافاندريه. ثم أحضروا أخ زوجها الذي قال بدون أي تردد: «ها هو فيليبير الصغير». وقد تعرف العديد من سكان الشارع على فيليب شافاندريه في الطفل الميت، هذا دون أن نعد أستاذه في المدرسة الذي تعرف عليه من خلال الميدالية في عنقه.

ولكن! ولكنٍ على الرغم من كل ذلك فإن الجيران وأخ الزوج والأستاذ كانوا جميعاً مخطئين. فبعد ستة أسابيع من ذلك التاريخ استطاع المحققون أن يتأكدوا من هوية الطفل. وكان طفلاً من بوردو، قتل في بوردو، ونقل عن طريق البريد إلى باريس»[٢].

لنلاحظ أولاً بأن كل شهادات التعرف هذه قد قدمت من قبل النساء والأطفال، أي من قبل الكائنات الأكثر عرضة للتأثر والتأثير الذاتي. وهيٍ تدل على هشاشة مثل هذه الشهادات أمام العدالة. وما كان ينبغي أبداً إثبات شهادات الأطفال بشكل خاص. صحيح أن القضاة

يكررون تلك الكليشيه التي تقول بأن الأطفال لا يكذبون في مثل تلك السن. ولو كانوا يمتلكون ثقافة متماسكة في علم النفس لعرفوا أن الأطفال يكذبون في مثل هذه السن بشكل دائم تقريباً. صحيح إنها كذبة بريئة ولكنها كذبة على أي حال. ويفضل أن ندين متهماً ما عن طريق لعبة الوجه أو القفا على أن ندينه من خلال شهادة طفل.

ولكي نعود إلى الملاحظات التي تتشكل لدى الجماهير نقول بأن الملاحظات الجماعية هي الأكثر بعداً عن الصواب. وهي تمثل في الأغلب الأعم مجرد وهم تشكل لدى فرد واحد ثم انتقل عن طريق العدوى إلى الآخرين.

وهناك وقائع لا حصر لها ولا عد تدعونا إلى عدم الثقة بشهادات الجماهير. فمثلاً لقد شهد آلاف البشر تلك الهجمة الشهيرة للخيَّالة في معركة سيدان، ومع ذلك فمن المستحيل أن نعرف من الذي قادها بسبب الشهادات البصرية الأكثر تناقضاً. وقد أثبت الجنرال الإنكليزي ولسلي في كتاب حديث، أنه قد ارتكبت أبشع الأخطاء بخصوص الوقائع الشهيرة لمعركة واترلو، هذا على الرغم من تأكيد مئات الشهود على هذه الوقائع بالذات[٣].

وكل هذه الأمثلة تبين لنا، ولأكرر ذلك مرة أخرى، قيمة شهادات الجماهير أو بالأحرى عدم قيمتها. نحن نعلم أن كتب المنطق تعتبر إجماع شهود عديدين على شيء ما بصفته إحدى المقولات البرهانية الأكثر إقناعاً على صحة هذا الشيء أو تلك الواقعة. ولكن ما نعرفه عن نفسية الجماهير يثبت لنا مدى حجم أوهامهم وأخطائهم بخصوص هذه النقطة. فالأحداث الأكثر شبهة هي تلك التي لاحظها أكبر عدد من الأشخاص. وإذا قلنا بأن حادثة ما قد لوحظت في نفس الوقت من قبل آلاف الشهود، فإن ذلك يعني أن الحادثة الحقيقية هي بشكل عام مختلفة جداً عن الرواية المنقولة عنها.

ينتج عن كل ما قلناه سابقاً بأنه ينبغي أن نعتبر كتب التاريخ بمثابة كتب الخيال الصرف. فهي عبارة عن حكايات وهمية عن وقائع

لوحظت بشكل رديء، كما إنها مصحوبة بتأويلات شكلت فيما بعد. ولو أن الماضي لم يورثنا كتبه الأدبية والفنية والتذكارية لما عرفنا شيئاً عن الواقع. فهل نعرف كلمة واحدة صحيحة عن حياة الرجال العظام الذين لعبوا دوراً كبيراً في تاريخ البشرية كهرقل وبوذا والمسيح ومحمد؟ في الغالب الأعم لا. وفي نهاية المطاف فإن سيرة حياتهم الحقيقية لا تهمنا كثيرا. فالأشخاص الذين أثروا على الجماهير كانوا أبطالاً أسطوريين وليسوا أبطالاً حقيقيين.

ولكن للأسف فإنه ليس للأساطير أي تماسك ذاتي. فخيال الجماهير يحولها ويعدلها باستمرار بحسب الأزمان، وخصوصاً بحسب الأعراق والأجناس. فإله التوراة المرعب والدموي (ياهوه) مختلف جداً عن إله المحبة الذي كانت تؤمن به القديسة تيريزا، وبوذا المعبود في الصين لا علاقة له ببوذا المعبود في الهند.

وليس من الضروري أن تمضي القرون العديدة على أبطال التاريخ لكي تتشكل أسطورتهم ويتم تحويرها بواسطة خيال الجماهير. فالتحوير قد يتم خلال بضع سنوات. فقد شهدنا بأم أعيننا تحول أسطورة أحد كبار أبطال التاريخ مرات عديدة خلال الخمسين سنة الماضية أو أقل. أقصد بذلك نابليون بونابرت. فقد أصبح نوعاً من الشخصيات المثالية والمحبة للإنسانية والليبرالية في ظل حكم سلالة البوربون. لقد أصبح صديقاً للضعفاء والفقراء الذين احتفظوا بذكراه تحت أكواخهم لفترة طويلة بحسب أقوال الشعراء. ولكن بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ تحولت صورة هذا البطل الطيب القلب والرحيم إلى نوع من المستبد الدموي المبتز للسلطة والحرية والذي ضحى بثلاثة ملايين رجل من أجل طموحاته في السلطة والمجد. ونلاحظ الآن أن أسطورته قد أخذت تتحول أيضاً من جديد. وبعد أن تمر عشرات القرون على ذكراه، فإن علماء المستقبل سوف يقفون محتارين أمام كل هذه الروايات المتناقضة عنه وربما شكُّوا في وجوده أصلاً، كما نشك نحن أحياناً بوجود بوذا. ولا يعودون يرون فيه إلا أسطورة شمسية أو نوعاً من التكبير لأسطورة هرقل. وسوف يتعزون بسهولة عن هذه الشكوك لأنهم

سيكونون عندئذٍ أكثر دراية بعلم نفس الجماهير، وبالتالي فيعلمون أنه لا يـمكن للتاريـخ أن يخـلّد إلا الأساطير.

٣ ـ عواطف الجماهير: تضخيمها وتبسيطها

إن العواطف التي تعبر عنها الجماهير سواء أكانت طيبة أم شريرة تتميز بطابع مزدوج: بمعنى أنها مضخمة جـداً ومبسَّطة جـداً. وفيما يخـص هذه النقطة وغيرها من النقاط نجـد أن الفرد المنخـرط في الجمهور يقترب كثيراً من الكائنات البدائية. فهـو غير قادر على رؤية الفروقات الدقيقة بين الأشياء ،وبالتـالي فهو ينظر للأمور ككتلة واحـدة ولا يعرف التدرجات الإنتقالية. وفيما يخـص الجمهور نلاحـظ أن المبالغة في العاطفة مدعَّمة من قبل الحقيقة التـالية: بما أن هذه العاطفة تنتشر بسرعة شديدة عن طريق التحريض والعدوى، فـإن الاستحسان والقبول الـذي تلقاه يزيد من قوتها إلى حـد كـبير.

إن بساطة عواطف الجماهير وتضخيمها يحميها من عـذاب الشكوك وعـدم اليقين. فالجماهير، كالنساء، تذهب مبـاشرة نحو التطرف. فما إن يبدر خاطر ما حـتى يتحول إلى يقين لا يقبل الشك. والشعور البسيط بالنفور من شيء أو عـدم استحسانه يظل في حجمه الطبيعي لدى الشخص العادي، ولكنه يتحول مبـاشرة إلى حقـد هائج لـدى الفرد المنخـرط في جمهور.

وعنف عواطف الجماهير يـزداد مبالغة وتضخيماً لـدى الجماهير غير المتجانسة بسبب انعـدام المسؤولية. وتصبح الثقة بالنفس والاطمئنـان بعدم المعاقبة أقوى كلما كان عدد الجمهور أكبر لأن ذلك يشعره بزيادة سلطته. وهـذا ما يجعل الجماهير المحتشدة قادرة على القيام بأعمال يعجز عنها الفرد الواحـد. ففي الجمهور يتحرر الأبله والجاهل والحسود من الإحساس من دونيتهم وعـدم كفاءتهم وعجزهم، ويصبحـون مجيَّشين بقوة عنيفة وعابرة، ولكن هائلـة.

للأسف فـإن حس المبـالغة والتضخيـم لـدى الجماهير يتركز غالباً

على العواطف الشريرة التي تمثل بقايا وراثية عن الإنسان البدائي. ومن المعروف أن الخوف من العقوبة يجبر الإنسان الفرد والمسؤول على قمع هذه العواطف. وهكذا يمكننا تفسير السبب في استسلام الجماهير لأبشع أنواع الممارسات وأكثرها تطرفاً.

إن الجماهير إذ تحرَّض بذكاء تصبح قادرة على البطولة والتفاني من أجل قضية نبيلة. وهي أكثر قدرة على ذلك بكثير من الإنسان المعزول. وسوف تسنح لنا الفرصة قريباً لكي نتحدث عن هذه النقطة عندما ندرس أخلاقية الجماهير.

وبما أنه لا يمكن تحريك الجماهير والتأثير عليها إلا بواسطة العواطف المتطرفة، فإن الخطيب الذي يريد جذبها ينبغي أن يستخدم الشعارات العنيفة. ينبغي عليه أن يبالغ في كلامه ويؤكد بشكل جازم ويكرر دون أن يحاول إثبات أي شيء عن طريق المحاجة العقلانية. وهذه هي الطريقة التي يستخدمها الخطباء في الملتقيات الشعبية.

ويطالب الجمهور أيضاً بنفس المبالغة والتضخيم في عواطف أبطاله أو مشاعرهم. فصفاتهم وفضائلهم الظاهرية ينبغي أن تضخَّم دائماً أكثر. ففي المسرح مثلاً يطلب الجمهور من بطل المسرحية الكثير من الفضائل والشجاعة والأخلاقية التي لا يمكن أن تنوجد في الحياة.

لقد أثرنا بحق المنظور الخصوصي للمسرح. فهناك منظور له بدون شك، ولكن قواعده مخالفة غالباً للحس الصائب والمنطق ولا علاقة لها بهما. ففن التحدث إلى الجماهير واتقانه يعود إلى مستوى أدنى، ولكنه يتطلب كفاءات خاصة جداً. وأحياناً نستغرب نجاح بعض المسرحيات ولا نعرف كيف نفسر سبب هذا النجاح. فمديرو المسارح أنفسهم يبدون عموماً غير واثقين من نجاحها، وذلك لأنه ينبغي عليهم أن يتحولوا إلى جمهور لكي يستطيعوا الحكم عليها(٤).

ولو كنا نمتلك الوقت الكافي للدخول في التفاصيل لكان من السهل علينا أن نبين أيضاً التأثير المهيمن للعرق. فالمسرحية التي يتحمس لها الجمهور في بلد ما لا تلقى أحياناً أي نجاح في بلد آخر أو

أنها تـلقى نوعاً من الإحـترام المحـدود لأنها لا تجـيش الحوافز القادرة على إثـارة حماسة جمهورها الجـديد.

لا داعي للقول بـأن مبالغة الجماهير تخـص العواطف وليس العقل بـأي شكل من الأشكال. فبمجـرد أن ينخـرط الفرد في الجمهور، فـإن مستواه الفكري ينخفـض إلى حـد بعيد كما برهـنت سابقا. وقد توصل السيد تـارد إلى نـفس الملاحظة عندما ركـز بحـوثه على دراسة جرائم الجماهير. وإذن فـإنه يمكن للجماهير على المستوى العاطفي فقط أن ترتفع عالياً جـداً أو أن تنحط إلى أسفل السافلين.

٤ ـ تعصب الجماهير واستبداديتها ونزعتها المحافظة

وبما أن الجماهير لا تعرف إلا العواطف البسيطة والمتطرفة، فـإن الآراء والأفكـار والعقائد التي يحرضونها عليها تقبل من قبلها أو ترفض دفعة واحـدة. فـأما أن تعتبرها كحقائق مطلقة أو كأخطاء مطلقة. وهذه هي دائماً حالة العقائد المتشكلة عن طريق التحـريض بدلاً من أن تكون متولدة عن طريق التعقل والمحاجة العقلانية. وكلنا يعلم مـدى تعصب العقائد الدينية ومـدى الهيمنة الاستبـدادية التي تمارسها على النفوس.

وبما أن الجمهور لا يشك لحظة واحـدة فيما يعتقده الحقيقة أو الخطأ، وبما أنه واع كـل الوعي بحجـم قوته فـإن استبداده يبدو بحجم تعصبه. وإذا كان الفرد يقبل الاعتـراض والمناقشة، فـإن الجمهور لا يحتملهما أبداً. وفي الاجتماعات العامة نلاحـظ أن أقـل اعتراض يصـدر عن خـطيب ما سرعان ما يقابل بالصياح والغضـب والشتائم العنيفة، ثم بالضرب والطـرد إذا ما أصر هذا الخطيب على موقفه. ولولا وجـود قـوات الأمن لذبحـوه في غالب الأحيـان.

إن نزعتي الاستبـدادية والتعصب عامتان لـدى كـل فئات الجماهير، ولكنهما تتجسدان بأنواع ودرجات متفاوتة جـداً. وهنـا أيضاً نلتقي مـرة أخـرى بالمفهـوم الأساسي للعرق وتأثيره. فهـو الذي يهيمن على عواطف البشر وأفكارهـم. ونحـن نلاحظ أن الاستبـداد والتعصب

منتشران بشكل خاص لـدى الجماهير ذات العرق اللاتيني. فهما قويان ومتأصـلان فيه إلى حـد أنهما يـدمران لديه عاطفة الاستقلاليـة الفردية المتطورة جـداً لـدى أبناء عرق الأنغلوساكسون. أما الجماهير اللاتينية فهي ليست حساسة إلا للاستقلالية الجماعية لطائفتها. وسمة هذه الاستقلالية هي الحاجة إلى إخضـاع كل المنشقين لعقائدهم عن طريق القسر والعنف. ونلاحـظ لـدى الشعوب اللاتينية أن اليعاقبة في كل العصور منذ عصر محـاكم التفتيش لم يستطيعوا الارتفـاع بأنفسهم إلى مستوى مفهـوم آخـر للحرية.

إن الإستبداد والتعصب يشكلان بالنسبة للجماهير عواطف واضحة جـداً، وهي تحتملها بنفس السهولة التي تمارسها. فهـي تحترم القوة ولا تميـل إلى احـترام الطيبة التي تعتبرها شكلاً من أشكـال الضعف. وما كانت عواطفها متجهـة أبداً نحـو الزعماء الرحيمين والطيِّـبي القلب، وإنما نحو المستبدين الذين سيطروا عليها بقـوة وبأس. وهي لا تقيم تلك النصب التذكاريـة العالية إلا لهـم. وإذا كانت تدعس بأقدامها الديكتاتور المخـلوع فذلك لأنـه قد فقد قوته ودخل بالتـالي في خانة الضعفاء المحتقرين وغير المهابين. إن نمط البطل العزيز على قـلب الجماهير هـو ذلك الـذي يتخـذ هيئة القيصر. فخيلاؤه تجـذبها، وهيبته تفرض نفسها عليها، وسيفه يرهبهـا.

وبمـا أن الجماهير مستعـدة دائماً للتمرد على السلطة الضعيفة فـإنها لا تحـني رأسها بخـنوع إلا للسلطة القوية. وإذا كانت هيـبة السلطة متناوبة أو متقطعة فـإن الجماهير تعود إلى طباعها المتطرفة وتنتقل من الفوضى إلى العبودية، ومن العبودية إلى الفوضى.

إن الاعتقاد بهيمنة الغرائز الثورية على الجماهير يعني الجهل بنفسيتها. فعنفها وحـده هو الذي يوهمنا بخـصوص هذه النقطة. فانفجـارات الإنتفاضة والتدمير التي تحصل من حين لحين ليست إلا ظواهر عابرة ومؤقتـة. فالجماهير محكومة كثيراً باللاوعي، وبالتـالي فهي خاضعة أكثر مما يجـب لتأثير العوامل الوراثية العتيقة التي تجعلها تبدو

محافظة جداً جداً. فإذا ما تركت لنفسها فإنها تملّ من فوضاها وتتجه بالغريزة نحو العبودية. فأكثر أنواع اليعاقبة اعتداداً بأنفسهم وافتخاراً راحوا يصفقون لنابليون بشدة عندما راح يلغي كل الحريات ويحكم بيد من حديد.

ومن الصعب فهم تاريخ الثورات الشعبية إذا ما جهلنا غرائز الجماهير المحافظة جداً. صحيح أنها تريد تغيير أسماء مؤسساتها وتقوم أحياناً بثورات عنيفة من أجل تحقيق هذه المتغيرات. ولكن عمق هذه المؤسسات ومضمونها يبقى معبراً عن الحاجيات الوراثية للعرق وبالتالي فهي تعود إليه دائماً في نهاية المطاف. فحركيتها المستمرة لا تخص إلا الأشياء السطحية. في الواقع إنها تمتلك غرائز محافظة نهائية. وكجميع الناس البدائيين فإنها تشعر باحترام وثني تجاه التقاليد وبهلع لا واع تجاه البدع المستجدة القادرة على تعديل الظروف الحقيقية لوجودها. ولو أن القوة الحالية للأنظمة الديمقراطية قد وجدت في الفترة التي اخترعت فيها المِهَن الميكانيكية والبخار وسكك الحديد لكان إنجاز مثل هذه المخترعات مستحيلاً أو فقط بعد أن دفع ثمنه على هيئة الثورات المتتابعة. ولحسن حظ تقدّم الحضارة فإن هيمنة الجماهير على الحياة العامة لم تولد إلا بعد أن كانت الإكتشافات الكبرى للعلم والصناعة قد تحققت وانتهت.

٥ ـ أخلاقية الجماهير

إذا كنا نربط بكلمة الأخلاقية معنى الاحترام الحقيقي لبعض الأعراف والتقاليد الاجتماعية ثم القمع الدائم للنزوات الأنانية فإنه لمن الواضح أن الجماهير صاحبة نزوات وغرائز شديدة الهيجان وبالتالي فغير مهيأة لاحترام النزعة الأخلاقية. ولكن إذا كنا نعني بالأخلاقية بعض الصفات كالتفاني والإخلاص والنزاهة والتضحية بالذات وحسن العدالة فإنه يمكننا أن نقول على العكس بأن الجماهير قادرة على أرفع أنواع الأخلاقية. فعلماء النفس النادرون الذين درسوا الجماهير لم يدرسوها إلا من وجهة نظر أفعالها الجرائمية، ولما رأوا أن هذه الأفعال عديدة

ومتكـررة فـإنهم استنتجـوا بـأن الجماهير ذات أخلاقية منحـطة جـداً.

لا ريب في أن الجماهير تبرهن على إنحـطاط أخلاقيتها غالباً. ولكن لماذا؟ لسبب بسيط هـو أن غرائز التوحش الهدَّامة هي عبـارة عن بقايا العصور البدائية النائمة في أعماق كـل منا، وسوف يـكون من الخـطر إرضاؤها أو إشباعها بالنسبة للفرد المعـزول، هـذا في حين أن انخـراطه في جمهور ما غير مسؤول يجعلـه قادراً على اتباعها لأنـه يعرف بعدم تعرضه للمعاقبة. ولما كنـا غير قـادرين عادة على ممارسة هذه الغرائز الهدامة على أشباهنا فـإننا نحـرص على ممارستها على الحيوانات. والهـوس بالصيد كضـراوة الجماهير مشتقـان من مصدر واحد. فالجمهور الـذي يمزق إرباً إرباً وببـطء ضحية لا تستطيع الـدفاع عن نفسها يبرهن على قسوة جبانة جـداً. ولكنه بالنسبة للفيلسوف يشبه تماماً جماعة الصيادين المجتمعين بالدزينات لكي يشاهدوا بنوع من المتعة كـيف تمزق كلابهم غزالاً بـائساً كانوا قد اصطادوه.

وإذا كان الجمهور قادراً على القتل والحـرق ومخـتلف أنواع الجرائم، فـإنه قادر أيضاً على أفعـال التضحية والنزاهة الأكثر ارتفاعاً بـكثير من تـلك التي يقدر عليها الفرد الواحـد. فالتأثير يتم بشكل خـاص على الفرد المنخـرط في الجمهور وذلك عن طريق التركيز على عواطف المجـد والشرف والدين والوطن. فالتـاريخ مـليء بالأمثلة المشابهـة للحـروب الصليبية أو الجنود المتطوعين عام ١٧٩٣ للدفاع عن الثورة الفرنسية. ووحدها الجماهير الجماعية تـكون قادرة على إنجـاز الأعمال الكبرى والتفاني العظيم والنزاهة من أجـل القضايا الكبرى. فـكم هو عدد الجماهير التي ضحت بأنفسها بنوع من البطولة من أجل عقائد وأفكـار لا تفهمها إلا بالكـاد! فالجماهير التي تضرب عن العمل تفعل ذلك من أجل إطاعة الأوامر أكثر مما تفعله من أجـل الحصول على زيادة الرواتب. ونـادراً ما تكـون المصلحة الشخصية محركاً قوياً لـدى الجماهير، هـذا في حين أنها تشكل المحـرك الكلي تقريباً لـدوافع الفرد الواحـد. فمن المؤكد أنها ليست هي التي تجيش الجماهير في الحـروب العديدة غير المفهومة بالنسبة لعقلها، وحـيث تترك نفسها لعبة للمجـازر

السهلة وتقع في الفخ كما تقع القبرات المخـدوعة من قبل مرآة الصياد.

وأرذل أنواع الأوغاد يمكنهم أن يتحـلوا بمبادىء أخلاقية صارمة بمجـرد أن ينخرطـوا في الجمهور. ويلاحـظ عالم الاجتماع الفرنسي «تين» أن الـذين قاموا بمجـازر سبتمبر قد جـاؤوا بمحافظ النقود والحـلى والجواهر التي وجـدوها في جيـوب ضحاياهم وسلموها للجـان الثورية. وكان من السهل عليهم أن يسرقوها دون أن يعرف بذلك أحـد. وكـذلك الأمر فيما يخـص الجمهور الهادر والزاخـر والبائس الذي هجـم على قصر التويلري أثناء ثورة ١٨٤٨ فـإنه لم يسرق أي تحفة ثمينة من تحفه. وكانت واحـدة منها فقط كافية لإطعامه أياماً عديدة.

صحيح إن جعل الفرد أخلاقياً من خـلال الجمهور لا يشكل قاعدة عامة أو مستمرة. ولكننـا نلاحـظ أنها تتكرر غالباً، وحـتى في ظـروف أقل ضخامة وخطورة من تـلك التي ذكرتها. ففي المسرح نلاحـظ كما قـلت سابقاً أن الجمهور يطلب من بطل المسرحية التحـلي بفضائل مبالغ فيها. وحـتى الحضور المشكَّلون من عناصر أدنى مستوى يبدون محتشمين في بعض الأحيـان. فمحـترف الملـذات المنغمس فيها والقوَّاد والأزعر المتهـكم يتمتمون غالباً بصوت هامس أمام مشهد خطر أو كلام خفيف غير مزعج على الإطلاق بالقياس إلى عاداتهم المعهودة في الحديث والنقاش. (عادات الصخب والعنف).

وإذن فـإن الجماهير التي تستسلم غالباً للغرائز المنحـطة تقدم أحياناً أيضاً عدة أمثلة على أعمال أخلاقية عالية. وإذا كانت قيم النزاهة والإنقيـاد والتفاني المطلق في سبيل مثـال أعلى وهـمي أو واقعي تمثل فضائل أخلاقية، فـإنه ليمكننا القول بـأن الجماهير تمتلك أحياناً هذه الفضائل بدرجة عاليـة لم يتوصل إليها أعظـم الفلاسفة والحـكماء إلا نـادراً، وهي تمارسها بـلا وعي بـدون شك. ولكن لا يهـم، فلـو أن الجماهير قد حكَّمت عقلها غالباً واستشارت مصالحهـا الآنية، لربما انعدمت كـل حضارة على سطح كوكبنا الأرضي وما تطورت، ولما كان للبشرية من تـاريخ.

الفصل الثالث

أفكار، محاجّات عقلية، مخيلة الجماهير

١ ـ أفكار الجماهير

كنا قد درسنا في كتاب سابق دور الأفكار بخصوص تطور الشعوب، وبرهنا على أن كل حضارة مشتقة من عدد صغير من الأفكار الأساسية التي نادراً ما تجددت أو تغيرت. وقد شرحنا كيف تنغرس هذه الأفكار في روح الجماهير، وهول الصعوبات التي تصطدم بها قبل أن تنفذ إليها. كما وبيّنا أيضاً أن الإضطرابات التاريخية الكبرى تنتج غالباً عن المتغيرات التي تصيب هذه الأفكار الأساسية.

ولما كنت قد عالجت هذا الموضوع بما فيه الكفاية، فإني لن أعود إليه. وسوف أكتفي بقول بعض الكلمات عن هذه الأفكار السهلة الموجودة في متناول أيدي الجماهير، وتحت أي صيغة أو هيئة تتصورها الجماهير.

ويمكننا أن نقسم هذه الأفكار إلى فئتين. في الفئة الأولى نضع الأفكار الطارئة والآنية العابرة التي تتشكل تحت تأثير اللحظة. نضرب على ذلك مثلاً الانبهار بفرد ما أو بعقيدة ما. ونضع في الفئة الثانية الأفكار الأساسية التي تقدم لها البيئة والوراثة والرأي العام استقراراً كبيراً. نذكر من بينها الأفكار الدينية سابقاً، والأفكار الديمقراطية والاجتماعية اليوم. (المقصود بالاجتماعية هنا الإشتراكية أو العدالة الإجتماعية).

ويمكن تشبيه الأفكار الأساسية بواسطة مياه نهر يجري ببطء،

وأمـا الأفكار العابرة فتشبه الأمواج الصغيرة المتغيرة دائماً والمتحـركة على السطح. وعلى الرغم من أنها غير ذات أهمية حقيقية فـإنها أكثر ظهـوراً ووضوحاً من مسار النهر نفسه.

وفي أيامنا هذه نلاحـظ أن الأفكار الكبرى الأساسية التي عاش عليها آباؤنا قد أصبحت مهتزة أكثر فـأكثر. وبالتـالي فـإن المؤسسات التي ترتكز عليها قد أصبحـت مزعزعة إلى حـد كبير. والآن تتشكل الكثير من الأفكـار الصغيرة المؤقتـة التي كـنت قد تحـدثت عنها للتـو. ولكـن يبدو أن القليل منها مؤهـل لأن يمـارس تأثيراً مهـماً أو دائماً.

وأيـاً تـكن الأفكار التي تُوحَى للجماهير أو تحرَّض عليها، فـإنه لا يمكنها أن تصبح مهيمنة إلا بشرط أن تتخـذ هيئة بسيطة جـداً وأن تتجسد في نفوسها على هيئة صـور. وليس هناك أي رابط منطقي من النوع القياسي أو المتوالي يربط هذه الأفكار ـ الصور فيما بينها. فيمكنهـا بسهولة أن تحـل الواحـدة محـل الأخـرى كزجاجـات المصباح السحري التي يسحبهـا العامل الميكانيكي من العلبـة حـيث تكون مصفوفة فوق بعضها البعض. وهـكذا يمكننا أن نجد الأفكار الأكثر تناقضاً تتابع على الجمهور. وبحسب اللحظات وصدفها فـإن الجمهور يتعرض لتأثير إحـدى الأفكار المتنوعة والمختزنة في عقله، وبالتالي فهـو يرتكب الأعمال الأكثر تناقضاً واختلافاً. فانعـدام الروح النقدية لـديه لا يسمح له برؤية التناقضـات.

وهـذه الظاهرة ليست حـكراً على الجماهير، وإنما نحـن نجدها لدى الكثير من الأفـراد الوحيدين. وليس فقط لدى الكائنـات البدائية، وإنمـا لـدى كـل أولئك الـذين يقتربون في إحـدى خصائصهم من البدائيين (كالمتعصبين لإيمان ديني كـثيف مثـلاً). فمثلاً لقد لاحظـت الظاهرة لـدى الهنود المتعلمين الـذين تربوا في جـامعاتنا الأوروبية ونـالوا منها كـل الشهادات الجامعية. فعـلى المخـزون الثابت لأفكارهـم الدينية والاجتماعية الموروثة تركَّبت دون أن تغيرها في شيء طبقة من الأفكـار الغربية لا علاقة لها بالأولى. وبحـسب اللحظة وصدفها فـإن الطبقة

الأولى هي التي تظهر أو الثانية. وكل واحدة منهما مصحوبة بموكب خطاباتها الخصوصية المعروفة. وهكذا نجد أن نفس الأفراد يبرزون بتناقضاتهم الأكثر وضوحاً وسطوعاً. وهذه التناقضات ظاهرية أكثر مما هي حقيقية، وذلك لأن الأفكار الوراثية هي وحدها القوية والمهيمنة لدى الفرد الواحد، وبالتالي فهي وحدها القادرة على أن تصبح حوافز مؤثرة فعلاً على سلوكه ومحركة له. وفي حالة واحدة فقط يجد المرء نفسه عن طريق التقاطعات متوزعاً بين دوافع وراثية مختلفة، وبالتالي فإن أعماله يمكن أن تكون متناقضة تماماً من لحظة إلى أخرى. ولا داعي للإلحاح هنا على هذه الظواهر، على الرغم من أن أهميتها النفسية حاسمة وأساسية. وأنا أرى أنه يلزمنا عشر سنوات على الأقل من الرحلات في البلدان المختلفة وجمع الملاحظات لكي نتوصل إلى فهمها.

ولما كانت الأفكار تستعصي على الجماهير إذا لم تتخذ هيئة بسيطة جداً فإنه ينبغي لكي تصبح شعبية أن تتعرض لتحويل كامل. وعندما يتعلق الأمر بأفكار فلسفية أو علمية عالية نسبياً، فإننا نلاحظ مدى عمق التحويل اللازم لكي تنزل من طبقة إلى طبقة حتى تصل إلى مستوى الجماهير. وهذه التحولات تعتمد أساساً وبشكل خاص على العرق الذي تنتمي إليه هذه الجماهير، ولكنها دائماً تخفيضية وتبسيطية للأفكار المعنية. كما أنه لا يوجد في الواقع من وجهة النظر الاجتماعية أية مراتبية للأفكار، أقصد للأفكار العالية قليلاً أو كثيراً. فبمجرد أن تتوصل فكرة ما إلى الجماهير وتقدر على تحريكها فإنها تصبح معرَّاة من كل ما صنع رفعتها وعظمتها.

والواقع أن القيمة المراتبية الهرمية لفكرة ما لا أهمية لها. وحدها الآثار الناتجة عنها ذات أهمية. فالأفكار المسيحية في العصور الوسطى والأفكار الديمقراطية في القرن الماضي والأفكار الاجتماعية السائدة اليوم ليست مرتفعة جداً بدون شك. ويمكننا فلسفياً أن نعتبرها كأخطاء فقيرة وبائسة بما فيه الكفاية. ولكن دورها كان ضخماً

وسيكـون. وسوف تؤثر لفترة طويلة على سلوك الأنظمة والـدول باعتبارها إحـدى العوامل الأساسية.

ولكـن حـتى بعد أن تتعرض الفكرة لتحـولات تجعلهـا في متناول أيدي الجماهير فـإنها لا تفعل فعلها ولا تؤثـر إلا بعد أن تدخـل إلى اللاوعي وتصبح عاطفة متماسكة أو متينة مبلـورة من قبل مجريـات مختلفة سوف ندرسها في مكان آخـر. وهذا التحـول يكون عادة طويلاً جـداً.

وعلى أي حـال فلا ينبغي علينا أن نعتقد أن مجـرد البرهـنة على صحـة فكرة ما يعني أنها سوف تفعل مفعولها حـتى لـدى النـاس المثقفين فعلاً. ويمكننا أن نتحـقق من ذلك عندما نـرى أن البرهـنة الأكثر وضوحاً ليس لهـا تـأثير على معظـم البشر. صحيح أنه يمكن للحقيقة الساطعة أن تلقى أذناً صاغية لـدى السامع المثقف، ولكـنه سيعيدها فوراً بـواسطة لا وعيه إلى تصوراته البدائية. حـاولوا أن تـروه بعد بضعة أيـام فسوف ترونه يستخـدم من جـديد محاجـاته القديمة وبنفس الألفاظ تماما. وذلك لسبب بسيط هـو أنه واقع تحت تـأثير الأفكار السابقة التي تحـولت إلى عواطف وترسخـت. وهذه الأفكار هي وحـدها التي تؤثـر علينا وتحـرك بواعثنا العميقة التي تربض خـلف أعمالنا وكلامنا.

وعندما تتوصل فـكرة ما بواسطة مجريـات متعـددة إلى الإنغـراس في روح الجماهير فـإنها تكتسب قـوة لا تقـاوم وينتج عنها سلسلة من الإنعكاسات والنتائج. فالأفكـار الفلسفية التي أدت إلى الثورة الفرنسية أخـذت وقتاً طويلاً قبل أن تنغرس في الروح الشعبية. ونحـن نعلم مـدى قوتها التي لا تقـاوم بعدما استقـرت في النفوس. لقد أدت إلى انتفاضة شعب بأسره من أجـل التوصل إلى العدالة الاجتماعية، ومن أجـل إنجـاز الحقوق المجـردة والحريـات المثالية إلى زعزعة كـل العروش، وقلبت بعمق كـل العالم الغربي. وخـلال عشرين سنة راحـت الشعوب تهـجم على بعضها البعض، وشهـدت أوروبا مجـازر تشبه تـلك التي حصـلت على يد جنكيزخـان وتيمورلنـك. وهـكذا لم يحـصل في أي يوم من الأيـام أن اتخـذت فيه الأفكار مثل هذه الأهمية ومـدى قدرتها على تغيير وجهـة العواطف إذا ما جُيِّشت وعُبِّئت.

وإذا كان يلزم وقت طويل لكي تترسخ الأفكار في نفوس الجماهير، فإنه يلزم وقت لا يقل عنه طولاً لكي تخرج منها. وهكذا نجد من وجهة النظر الفكرية أن الجماهير متأخرة عن العلماء والفلاسفة بعدة أجيال. وكل رجالات الدولة السياسيين يعرفون اليوم ما الذي تشتمل عليه الأفكار الأساسية المذكورة آنفاً من أخطاء. ولكن بما أن تأثيرها على النفوس لا يزال قوياً حتى الآن، فإنهم مضطرون للحكم بموجبها على الرغم من أنهم انفكوا عن الإقتناع بحقيقتها.

٢ ـ المحاجات العقلية للجماهير

لا يمكننا القول بشكل مطلق أنه لا يمكن التأثير على الجماهير بواسطة المحاجات العقلية. ولكن الحجج التي تستخدمها وتلك التي تؤثر عليها تبدو من وجهة النظر المنطقية جداً متدنية إلى حد أنه لا يمكننا وصفها بالعقلانية إلا عن طريق القياس والتشبيه.

والمحاجات المتدنية للجماهير مرتكزة على الترابط والضم مثلها في ذلك مثل المحاجات العالية للمثقفين. ولكن الأفكار الموصولة ببعضها البعض ليس بينها إلا روابط ظاهرية من التشابه أو التوالي. فهي تتلاحم على طريقة أفكار الأسكيمو الذين يعرفون عن طريق التجربة أن الجليد يشكل جسماً شفافاً ويذوب في الفم عندما نضعه فيه. وبما أن الزجاج شيء شفاف أيضاً فإنهم يعتقدون أنه يذوب في الفم أيضاً! أو تشبه «منطق» الإنسان المتوحش الذي يعتقد أنه إذا ما أكل قلب عدو شجاع فإنه يكتسب شجاعته، أو منطق العامل المستغل من قبل رب عمل معين فيستنتج من ذلك أن كل أرباب العمل مستغلون.

فهذه ترابطات بين أشياء متنافرة ليس بينها إلا علاقات سطحية ظاهرية، كما أنهم يقومون بتعميم مباشر لحالات فردية وخصوصية. وهاتان هما الخاصيتان الأساسيتان للمنطق الجماعي. والخطباء الذين يعرفون كيفية التلاعب بالجماهير يستخدمون مثل هذه الترابطات. فهي وحدها قادرة على تحريكهم والتأثير عليهم. وأما سلسلة المحاجات العقلانية الصارمة فلا يمكن أن تفهم إطلاقاً من قبل الجماهير. ولهذا

السبب يمكن القول بـأنها لا تفكر أو أنها تفكر بشكل خاطىء ولا يمكن التأثير عليها عن طريق التفكير العقلاني.

وضعف بعض الخطابات التي مارست تأثيراً ضخماً على السامعين تدهشنا أحياناً عندما نقرؤها. ولكننا ننسى أنها قد كتبت من أجـل تعبئة الجماهير وليس من أجـل أن تقـرأ من قبل الفلاسفة. والخـطيب المتواصل بشكل حميمي مع الجمهور يعرف كـيف يثير الصور التي تجـذبها وتحـركها. فـإذا ما نجح تحـقق هدفه. ومجـموعة كـبيرة من الخـطب لا تساوي بضعـة جمـل نجحـت في جـذب النفوس التي ينبغي إقناعهـا.

لا داعي للقول بـأن عجـز الجماهير عن التفكير المتعقل يحرمها من كـل روح نقدية، أي من كل قـدرة على التمييز بين الحقيقة والخطـأ، وبالتـالي من تشكيل حـكم دقيق على الأمور. فالأحـكام التي تقبلها ليست إلا أحـكاماً مفروضة من فوق، أي غير قابلة للنقاش. ومن وجهـة النظر هذه نلاحـظ أن الأفـراد الـذين لا يرتفعـون فوق مستوى الجماهير هم عديـدون. فالسهولة التي تنتشر فيها بعض الآراء وتصبح عامـة تعود بشكل خـاص إلى عجـز معظم النـاس عن تشكيل رأي خـاص مستوحـى من تجاربهم الشخصية في المحـاكمة والتعقل.

٣ ـ خيـال الجماهير (أو مخيَّلة الجماهير)

إن الخيال الخـاص بالجماهير، كخيال كـل الكائنات التي لا تفـكر عقلانياً، مهيأ لأن يتعرض للتأثير العميق. فالصور التي تثيرها في نفوسهم شخصية ما أو حـدث ما أو حادث مـا لها نفس حيوية وقوة الأشياء الواقعية ذاتها. فالجماهير تشبه إلى حـد ما حالة النائم الذي يتعطل عقله مؤقتـا ويترك نفسه عرضة لانبثـاق صورة قوية ومكثـفة جداً، ولكنها سرعان ما تتبخـر على محـك التفكير. ولما كانت الجماهير غير قادرة لا على التفكير ولا على المحـاكمة العقلية فـإنها لا تعرف معنى المستحيـل أو المستبعد الحـدوث. ونحـن نعلم أن الأشياء الأكثر استحـالة هي عادة الأكثر ادهاشاً وتأثيراً.

ولهـذا السبب فـإن الجوانب الساحـرة والأسطورية من الأحـداث هـي التي تدهش الجماهير دائماً وتؤثر عليها. والواقع أن العجيـب الساحر والأسطوري هما الدعامتان الحقيقيتان للحضارة. ونلاحـظ أن المظهـر قد لعب دائماً في التـاريخ دوراً أكثر أهمية من الواقع. فـاللاواقعي يهيمن فيه على الواقعـي.

ولمـا كانت الجماهير عاجـزة عن التفكير إلا بـواسطة الصور فـإنه لا يمكن جذبها والتأثير عليها إلا عن طريق الصور. ووحـدها هذه الأخيرة ترعبهـا أو تجـذبها وتصبح باعثاً على العمل والممارسة.

ولهـذا السبب فـإن التمثيلات المسرحية التي تقدم الصور بصيغتها الأكثر وضوحاً لها دائماً تأثير ضخـم على الجماهير. وكان الخبز والعـروض المسرحية يشكلان قديماً مثال السعادة بالنسبة لكـل الناس في روما القديمة. ولم يتغير هذا المثال إلا قـليلاً على مـدار العصور المتتابعة. ولا شيء يـؤثر على الخيـال الشعبي أكثر من قطعة مسرحية. فـكل الصالة التي تشاهدها تحـس بنفس المشاعر، وإذا لم تتحـول هذه المشاعر فوراً إلى أعمال فعلية فـذلك لأن المشاهد الأكثر لاوعياً لا يمكنه أن يجهـل أنه واقع ضحية الأوهام، وأنه قـد ضحـك أو بكى من مغامـرات خيـالية بحتـة.

ولكـن أحياناً تـكون العواطف الموحـاة من قبل الصور قوية إلى درجة أنها تميل لأن تتحـول إلى ممارسة وفعل تماماً كالمقترحـات العادية. وغالباً ما رووا قصة ذلك المسرح الشعبي المأساوي الذي يضطر لحماية الممثل على المخـرج بعد انتهاء المسرحية، وذلك خـوفاً من اعتـداء المشاهـدين عليه بسبب جرائمة الخيالية. وهنا تكمن في رأيي إحـدى أهـم العلامات والمؤشـرات على الحالة العقلية للجماهير، وخصوصاً على درجة السهولة التي يمكن لهم أن يـؤثـروا عليها فيها ويحرضوها. فـاللاواقعي له نفس الأهمية تقريباً بالنسبة لهم كالواقعي. وهي تميل بشكل واضح إلى عـدم التمييز بينهـما.

وعـلى قاعدة الخيال الشعبي تأسست مقدرة الفاتحيـن وقوة

الـدول. فعن طريق التأثير عليها تم تجييش الجماهير وتحريكها. وكـل الأحـداث التاريخية الكبرى كتأسيس البوذية والمسيحية والإسلام والإصلاح اللوثري والثورة الفرنسية ثم في أيامنا هذه الغزو المهدِّد للإشتراكية، كـل ذلك عبـارة عن نتـائج مبـاشرة أو بعيدة لانطباعات قوية أثرت على خيـال الجماهيـر.

ولهـذا السبب نجـد أن رجـالات الدولة الكبـار في كل العصور وفي كـل البلدان بما فيها الأكثر استبداداً قد اعتبروا الخيـال الشعبي بمثابة أكبر دعم لسلطتهم. فهم لم يحـاولوا أبـداً أن يحكموا ضـده. قـال نابليون بهذا الصدد الكلام العميق التـالي في مجـلس الدولة الفرنسي: «لم أستطع إنهاء حرب الڤانـدي[1] إلا بعد أن تظاهرت بـأني كاثوليكي حقيقي. ولم أستطع الإستقرار في مصر إلا بعد أن تظاهرت بأني مسلم تقي. وعندما تظاهرت بـأني بابوي متطرف استطعت أن أكسب ثقة الكهنة في إيطاليا. ولو أنه أتيح لي أن أحـكم شعباً من اليهود لأعدت من جديد معبد سليمان»! ربما لم يفهم أي رجـل كبير في العالم منذ الإسكندر المقدوني والقيصر كيف ينبغي جذب الجماهير والتأثير على مخيلتها مثلما فهـم نابليون. فقد كان همه الأول والدائم الضرب على وترهـا وإدهاشها. وكان يفكر فيها أثناء انتصاراته وخطبه وخطاباته وفي كل حـالاته. وحـتى على فراش الموت كان يفكر في الجماهير ومخيلتها.

ولكن، كـيف يمكن التأثير على خيـال الجماهير ونيل إعجابها؟ سوف نـرى ذلك قريباً. لنقـل منذ الآن بـأن التظاهـرات والوسائل الموجَّهـة للتأثير على الفهم والعقل عاجـزة عن تحقيق هـذا الهدف. فانطونيو ليس بحاجة إلى بلاغة خطابية متقعرة لكي يستنهض الشعب ضد قتلة القيصر. يـكفي أن يقـرأ عليه وصيته ويـريه جثته.

كـل ما يؤثـر على مخيلة الجماهير يقدم نفسه على هيئة صورة مؤثـرة وصريحة مخلَّصة من كل تأويل ثانوي، أو غير مصحوبة إلا من قبل بعض الوقائع العجيبة الساحرة: كالنصر الكبير، أو المعجـزة الكبيرة، أو جريمـة كـبيرة، أو أمـل كـبير. ومن المهم هنا عـرض الأشياء ككتلة

واحدة وبدون تبيان منشئها أو ولادتها. فمائة جريمة صغيرة أو مائة حادث صغير لا تؤثر أبداً على مخيلة الجماهير ولا تحركها. ولكن جريمة واحدة كبيرة أو كارثة واحدة كبيرة تؤثران عليها بعمق حتى ولو كانت نتائجهما أقل بكثير من النتائج القاتلة لمائة حادث مجتمعة. إن وباء الأنفلونزا الكبير الذي أهلك في باريس خمسة آلاف شخص في بضعة أسابيع لم يؤثر إلا قليلاً على المخيلة الشعبية. فهذه المذبحة الكبرى لم تتجسد في صور مرئية ومكشوفة وإنما فقط من قبل التأشيرات الأسبوعية للإحصائيات. ولو حصل في نفس اليوم وعلى الساحة العامة حادث أودى بحياة خمسمائة شخص فقط بدلاً من خمسة آلاف كأن يقع برج إيفل مثلاً لولَّد تأثيراً ضخماً وهائلاً على النفوس. والخسارة المفترضة لقارب عابر للأطلسي انقطعت أخباره واعتقد أنه غرق في وسط البحر أثر بعمق طيلة ثمانية أيام على مخيلة الجماهير. هذا مع العلم أن الإحصائيات الرسمية بينت أنه قد غرق في نفس السنة ألف قارب وزورق. ولم تكترس الجماهير لحظة واحدة لهذه الخسارة الجسيمة التي تزيد أضعافاً مضاعفة من حيث الأرواح البشرية والسلع عن الخسارة الأولى.

نستنتج من ذلك إذن أنه ليست الوقائع بحد ذاتها هي التي تؤثر على المخيلة الشعبية، وإنما الطريقة التي تعرض بها هذه الوقائع. وينبغي على هذه الأحداث عن طريق التكثيف إذا جاز التعبير أن تولد صورة مؤثرة وأخاذة تملأ الروح كالهوس. إن معرفة فن التأثير على مخيلة الجماهير تعني معرفة فن حكمها.

الفصل الرابع

الأشكال الدينية التي تتخذها كل قناعات الجماهير

كنَّا قد رأينا أن الجماهير لا تفكر عقلانياً، وإنها تتبنى الأفكار دفعة واحدة أو ترفضها، وإنها لا تحتمل لا مناقشة ولا اعتراضاً، وأن التحريضات المؤثرة عليها تغزو كلياً ساحة فهمها وتميل للتحول إلى فعل وممارسة فوراً. وكنَّا قد بيَّنا أن الجماهير التي يعرفون تحريضها بشكل جيد تصبح مستعدة للتضحية بنفسها من أجل المثال الأعلى الذي حرضوها عليه. ثم بيَّنا أخيراً أنها تعرف فقط العواطف العنيفة والمتطرفة. فالتعاطف مع شيء ما يتحول لديها فوراً إلى عبادة، والنفور يتحول مباشرة إلى حقد. وهذه الإشارات العامة تتيح لنا أن نفهم طبيعة قناعاتها.

وإذا ما تفحصنا عن كثب قناعات الجماهير في فترات الإيمان كما في فترات الإنتفاضات السياسية الكبرى التي حصلت في القرنين الماضيين وجدنا أنها تمثل دائماً شكلاً خاصلاً لا أستطيع وصفه إلا باسم العاطفة الدينية.

ولهذه العاطفة خصائص بسيطة جداً: أولاً عبادة إنسان يعتبر خارقاً للعادة، الخوف من القوة التي تعزى إليه، الخضوع الأعمى لأوامره، استحالة أي مناقشة لعقائده، الرغبة في نشر هذه العقائد، الميل لاعتبار كل من يرفضون تبنيها بمثابة أعداء. وسواء أُسقطت عاطفة كهذه على الالٰه الذي لا يُرَى، أو على صنم معبود، أو على بطل أو فكرة سياسية، فإنها تبقى دائماً ذات جوهر ديني. كما أن كلاً من العنصرين الخارق للطبيعة والمعجز يتواجد فيها. فالجماهير تخلع على التشكيلة

السياسية أو الزعيم الـذي يلهب حماستها مؤقتاً نفس القوة السرية المليئة بالأسرار.

فالإنسان ليس متديناً فقط عن طريق عبـادة آلهـة معينة، وإنما أيضاً عندما يضـع كـل طاقاته الروحية وكـل خضـوع إرادته، وكل احتـدام تعصبه في خـدمة قضية ما أو شخـص ما كان قد أصبـح هـدف كـل العواطف والأفكار وقائدهـا.

إن عـدم التسامح والتعصب يشكـلان المرافق الطبيعي للعاطفة الدينية. وهما موجودان حتماً لـدى أولئك الـذين يعتقدون بأنهـم يمتلكون سر السعادة الأرضية أو الأبـدية. وهاتـان الخاصيتان موجودتـان لـدى كـل البشر المنخرطين في جماعة ما، وذلك عندما يحركهـم يقين أو اعتقاد ما. فاليعاقبة الذين فرضوا الرعب أثنـاء المرحلـة الثانية من الثورة الفرنسية كانوا متدينين بعمق مثل الكاثوليك الـذين قاموا بمحـاكم التفتيش، وضراوتهم الوحشية مستمدة من نفس المنبع.

إن قناعـات الجماهير تتسم بهذه الخصائص من الخضوع الأعمى، والتعصب العنيد، وحـب الدعاية العنيفة الملازمة لكل عاطفة دينية. وبالتـالي فيمكننا أن نقول بـأن كـل عقائدها تتلبس زياً دينياً. فالبطل الـذي تصفق له الجماهير هو بالفعل إله بالنسبة لها. وقد مثَّل ذلك نابليون مـدة خـمسة عشر عاماً. ولم يحـصل تأليه لشخص مثلما حـصل له. ولم يحـصل أن استطاع معبـود إرسـال النـاس إلى الموت بمثل هذه السهولة مثلما فعل هو. فآلهـة الوثنية والمسيحيـة لم تستطع أن تمـارس هيمنة مطلقة على النفوس أكثر مما فعـل نـابليون.

إن مؤسسي العقائد الدينية أو السياسية لم يؤسسوها إلا عندما عرفوا كـيف يفرضون على الجماهير عواطف التعصب الديني هـذه، هذه العواطف التي تجعل الإنسان يجـد سعادته في العبادة وتدفعه لأن يضحي بحيـاته من أجـل معبوده. وهـذا ما حـصل في كـل العصور. وفي كتـابه الجميل عن بـلاد الغال الرومانية نبَّه «فوستيـل دو كولانج» إلى أن الأمبراطورية الرومانية لم تستمر على قيد الحياة بواسطة القوة، وإنما

بواسطة الإعجاب الديني الذي تلهمه للناس. يقول بحق: «سوف يكون من غير المعقول أن يستمر نظام سياسي ما مدة خمسة قرون وهو مكروه من قبل الشعب. . . هذا شيء لا سابقة له في تاريخ العالم. ولا نستطيع أن نفهم كيف يمكن لثلاثين فوجاً عسكرياً في الإمبراطورية أن تهيمن على مائة مليون وتجبرهم على الطاعة». فإذا كانوا يخضعون ويطيعون فذلك لأن الامبراطور الذي يجسد العظمة الرومانية كان معبوداً من قبل الشعب كإله. ففي أصغر قرية من قرى الأمبراطورية كانت له هياكل. ثم يقول الكاتب المذكور مردفاً: «وقد شهدنا في ذلك الزمن انبثاق دين جديد في النفوس في طول الامبراطورية وعرضها. وكانت آلهة هذا الدين الأباطرة أنفسهم. فقبل بضع سنوات من العهد المسيحي كانت منطقة الغال نفسها ممثلة بستين مدينة. وقد ساهمت جميعها في إقامة معبد على شرف الإمبراطور أوغست بالقرب من مدينة ليون. . . وكان كهنته الذين ينتخبون من قبل اجتماع المدن الغالية هم أعيان مناطقهم وشخصياتها الأولى. . . ومن المستحيل أن نعزو كل ذلك إلى الخوف والعبودية. فشعوبٌ بأكملها لا يمكن أن تكون عبدة أو مستعبدة، ولا يمكن أن تظل كذلك طيلة ثلاثة قرون. فلم يكن الممالقون هم وحدهم يعبدون الحاكم وإنما روما كلها. ولم تكن روما وحدها وإنما كل بلاد الغال، واسبانيا واليونان وآسيا».

وأما في أيامنا هذه فإن معظم الفاتحين والمهيمنين على النفوس لا يمتلكون هياكل شخصية في المدن والقرى، ولكن لهم تماثيل عديدة وصور معلقة. والعبادة التي يتلقونها من قبل الناس ليست مختلفة كثيراً عن عبادة الأباطرة في العصور القديمة. ولن نستطيع أن نفهم قليلاً فلسفة التاريخ إلا بعد أن نفهم هذه النقطة الأساسية الخاصة بنفسية الجماهير: أقصد ينبغي على الحاكم أن يكون إلٰهاً بالنسبة لها أو لا يكون.

فهذه الأشياء ليست خرافات تنتمي إلى العصور القديمة، ثم جاء العقل وطردها نهائياً. فالعاطفة في صراعها الأبدي ضد العقل لم تكن مهزومة أبداً. صحيح أن الجماهير لم تعد تريد أن تسمع كلمتي

الآلهـة والدين اللتين هيمنتا عليها زمناً طويلاً. ولكن ليس هناك من فتـرة في التـاريخ شهـدت ارتفاع التماثيل وبناء الهياكـل على يدهـا مثل فترتنا هذه (أي منذ قـرن من الزمن). فالحركة الشعبية الفرنسية المعروفة باسم البولانجـية[1] تبين لنا مـدى حجـم السهولة التي تنبعث فيها الغرائز الدينية للجماهير من جـديد. فـلا يوجـد أي نزل أو فندق في قـرى فرنسا إلا وهو يعلق صورة البطل. فقد كانوا يعتقدون أنه قـادر على علاج كـل أنواع الظلم وكـل الأمراض والشرور. وكان آلاف البشر مستعدين للتضحية بأرواحهـم في سبيله. ويا لها من مكانة ضخـمة تلك التي كان سيحتلهـا في التـاريخ لو أن شخصيته كانت قـادرة على دعـم أسطورته!

نستنتج من ذلك أنه لا داعي لتكرار الحقيقة البدهية بـأن الجماهير بحاجة إلى دين. فالعقائد السياسية والسماوية والاجتماعية لا تترسخ لديها إلا بشرط أن تكتسي دائماً الحلة الدينية التي تضعها بمنأى عن المناقشة والأخـذ والرد. فـلو أنه أمكن فرض الإلحـاد على الجماهير لاتخـذت كـل ضراوة التعصب الخـاص بالعاطفة الدينية، ولأصبحـت بسرعة في أشكالها الخارجية نوعاً من الـطقس الشعائـري. والتطور الأخـير للطائفة الوضعية الصغيرة يـقدم لنا برهانـاً غريباً على ذلك. فهـي تشبه ذلك العدمي الـذي روى لنا الكاتب العميق دوستويفسكي قصته. فبعد أن أضاءته أنوار العقل يوماً ما، فـإنه كـسر صور الآلهـة والقديسين التي كانت تزين هيكل مصلاّه الصغير، وأطفأ الشمعات، وبـدون أن يضيع لحظة واحـدة فـإنه استبدل بالصور الممزقة مؤلفات بعض الفلاسفة الملحـدين، ثم أعـاد من جـديد إشعال الشمعات. لا ريب في أن موضوع عقائده الدينية قد تحـول، ولكن هـل يمكننا القول فعلاً بـأن عواطفه الدينية قد تغيـرت؟

سوف أكرر مـرة أخـرى القول بـأننا لن نفهم بعض الأحـداث التـاريخية وخصوصاً الأكثرها أهمية إلا بعد أن نـدرك الصيغة الدينية التي تنتهي عقائد الجماهير بتلبُّسها أخـيراً. وهناك الكثير من الظواهر الاجتماعية التي تتطلب دراسة عالم نفس أكثر مما تتطلب دراسة عالم الطبيعة. إن مؤرخنا الكبير «تين» لم يـدرس الثورة الفرنسية إلا من خـلال وجهـة نظر العالم الطبيعي، ولهـذا السبب فـإن المنشأ الحقيقي

للأحداث قد خفي عليه سابقاً. لقد رصد وقائعها وأحداثها بشكل ممتاز، ولكن بما أنه لم يقدر على فهم نفسية الجماهير، فإن كاتبنا المشهور لم يعرف دائماً كيف يعود إلى الأسباب العميقة لهذه الثورة. وبما أن أحداثها قد أرعبته بجانبها الدموي والفوضوي والمتوحش فإنه لم ير في أبطال الملحمة الكبرى إلا عصابة من البرابرة المتوحشين والمصروعين الذين يستسلمون بدون أي وازع لنزواتهم. فأعمال العنف التي نتجت عن الثورة الكبرى ومجازرها وحاجتها للدعاية وإعلانها الحرب على كل الملوك، كل ذلك لا يمكن فهمه إلا إذا اعتبرنا أنها زرعت إيماناً دينياً جديداً في نفوس الجماهير. فحركة الإصلاح الديني اللوثري ومجزرة سان بارتيليمي[٢] وحروب الأديان ومحاكم التفتيش والرعب الذي فرضته الثورة الفرنسية، كلها عبارة عن ظواهر متماثلة ومنجزة بتحريض من هذه العواطف الدينية التي تؤدي بالضرورة إلى استئصال كل من يعارض ترسيخ الإيمان الجديد بالحديد والنار. فالأساليب التي اتبعتها محاكم التفتيش المسيحية وتلك التي استخدمتها الثورة الفرنسية أثناء ما يدعى بمرحلة الرعب هي أساليب المؤمنين المقتنعين حقيقة. ولن يكونوا مقتنعين ولا مؤمنين لو أنهم اتبعوا أساليب أخرى.

إن الإنقلابات المشابهة لتلك التي ذكرتها ليست ممكنة إلا عندما تجعلها روح الجماهير تنبثق. فأكبر المستبدين ليسوا قادرين على إثارتها أو تهييجها. والمؤرخون الذين يلقون بمسؤولية مجزرة سان بارتيليمي على الملك يجهلون نفسية الجماهير مثلما يجهلون نفسية الملوك. فتظاهرات كهذه (أو مجازر كهذه) لا يمكن أن تخرج إلا من الروح الشعبية. وأكبر قوة مطلقة لعاهل مستبد لا يمكنها أن تفعل شيئاً يذكر فيما يخص هذه الوقائع الكبرى، اللهم إلا أن تسرِّع من لحظتها قليلاً أو تؤجل قليلاً. وليس الملوك هم الذين فعلوا مجزرة سان بارتيليمي ولا حروب الأديان، مثلما أنه ليس روبسبيير ولا دانتون ولا سان جوست هم الذين نظموا الرعب بعد قيام الثورة الفرنسية. فوراء أحداث كبرى كهذه نجد دائماً روح الجماهير.

الكِتابُ الثاني

آراء الجماهير وعقائدها

الفصل الأول

العوامل البعيدة
المشكلة لعقائد الجماهير وآرائها

انتهينا للتو من دراسة التكوين الـذهني للجماهير. وأصبحنا نعرف أساليبها في الإحـساس، والتفكير، والمحاجّة. لنـدرس الآن إذن كـيف تولد آراؤها وعقائدهـا وكـيف تترسخ في النفوس.

إن العوامل التي تحـدد آراء الجماهير وعقائدهـا ذات نوعين: عوامل بعيدة وعوامل قريبة (أو مبـاشرة).

فالعوامل البعيدة تجعـل الجماهير قـادرة على تبني بعض القناعات وغير مؤهـلة لتبني قناعات أخـرى. فهـذه العوامل تمهـد الأرضية لتبرعم وانبثاق الأفكار الجديدة التي تدهشنا بقوتها ونتائجهـا. ولكن عفوية انبثاقها ليست إلا شيئاً سطحياً وظاهرياً. فانفجـار بعض الأفكار وتبلورها لـدى الجماهير يشكل أحياناً مباغتة صاعقة. ولكـن ذلك ليس إلا أثـراً سطحياً يخبىء وراءه عادة عمـلاً طويلاً وبطيئاً سابقاً.

وأما العوامل المباشرة فهي تـلك التي إذا ما تـراكبت على ذلك العمل التمهيدي الطويل الذي لا يمكِّنها أن تفعل فعلها بـدونه، أثـارت الإقتناع الفعال لـدى الجماهير. نقصد بـذلك أنها تبلور الفكرة وتخـلع عليها هيئتها ثم تجيشها وتهيجها بـكل نتائجها وانعكاساتها. وتحـت ضغط هـذه العوامل المبـاشرة تنبثق القرارات التي تحـرك الجماعات البشرية فجـأة. فهـي التي تؤدي إلى انفجـار تمرد شعبي ما أو شن إضـراب ما. وهـي التي تـدفع أغلبية كـبيرة من الشعب إلى الوصول بشخـص ما إلى سدة السلطة، أو إسقاط حـكومة معينة.

وفي كـل الأحـداث الكبرى للتـاريخ نـلاحظ وجـود التأثير المتتالي لهذيـن النوعين من العوامل. فـإذا ما ضربنـا مثلاً الثورة الفرنسية التي تشكل أحد أهـم الأمثلة وأكثرها إثارة، وجـدنا أن من بين عواملها البعيدة نقد الكتَّـاب والمفكرين للنظـام القديم، ثم ابتـزاز هـذا النظام القديم وتجـاوزاته. وهـكذا تمت تهيئة روح الجماهير للثورة واستطاعـوا تجـييشها فيما بعد بواسطة عوامل مباشرة كخطابات الخطباء مثـلا ومقاومة البلاط الملكي لإجـراء اصلاحـات زهيدة لم تعد ذات معنى.

ومن بين العوامل البعيدة هناك عوامل عامة نجـدها في أعماق كـل عقائد الجماهير وآرائها: كالعرق مثلاً، والتقاليد الموروثة، والزمن، والمؤسسات، والتربية والتعليم. وسوف نـدرس فيما يـلي دور كـل منها على التوالي.

١ ـ العـرق

إن عامـل العرق ينبغي أن يوضع في المرتبة الأولى لأنـه هو وحـده أهم من كـل العوامل الأخـرى مجتمعة. وقد درسناه بما فيه الكفاية في كتـاب سابق، ولن نعود إليه مطولاً هنا. كنا قد بيَّنا ما الـذي يعنيه العرق التـاريخي، وكـيف أنه ما إن تتشكل خصائصه وعقائده ومؤسساته وفنونـه، وباختصـار كـل عناصر حضارته، حـتى تصبح التعبير الخـارجي لروحـه. إن قـوة العرق كـبيرة إلى درجة أنه لا يمكن لأي عنصر أن ينتقل من أي شعب إلى آخـر دون أن يتعرض للمتغيرات الأكثـر عمقاً[١].

فالبيئة والظروف والأحـداث تمثل المقترحـات الاجتماعية الخـاصة باللحـظة. ويمكنها أن تمـارس فعلاً مهماً، ولكن دائماً مؤقتاً، إذا كانت مضادة لمقترحـات العرق أي لكـل سلسلة الأسلاف والآباء والأجـداد.

وسوف تتاح لنا الفرصة في فصـول عديدة من هـذا الكتاب لكي نعود إلى أهمية العرق ومـدى تأثيره، ولكي نبين أن هـذا التأثير من القوة والأهـمية بحـيث أنه يسيطر على الخصائص المتعلقة بـروح الجماهير. ولهـذا السبب فـإن العديد من البلدان المختلفة تجـسد في عقائدهـا

وسلوكها اختلافات متمايزة وقوية جداً، ولا يمكن التأثير عليها بنفس الطريقة.

٢ ـ التقاليد الموروثة

إن التقاليد تمثل الأفكار والحاجيات والعواطف الخاصة بالماضي. وهي تمثل خلاصة العرق وتضغط بكل ثقلها علينا.

فعلوم الأحياء كانت قد تعرضت للتحول والتغيير منذ أن كان علم الأجنة قد بيَّن التأثير الهائل للماضي على تطور الكائنات. وسوف تشهد العلوم التاريخية نفس الظاهرة عندما يصبح هذا المفهوم أكثر انتشاراً. فهي غير منتشرة حتى الآن بالحد الكافي، والكثير من رجال السياسة لا يزالون عائشين على أفكار منظِّري القرن الماضي. فهم يتخيلون أنه يمكن لمجتمع ما أن يقطع مع ماضيه ويعيد تشكيل نفسه من جديد عن طريق اتخاذه لأنوار العقل قائداً ودليلاً.

ولكننا نرى أن الشعب هو عبارة عن كائن عضوي مخلوق من قبل الماضي. وهو، ككل الكائنات العضوية الأخرى، لا يمكنه أن يتغير إلا بواسطة التراكمات الوراثية البطيئة.

فالقادة الحقيقيون للشعوب هم تقاليدها الموروثة. وكما كررت أكثر من مرة فإنهم لا يغيرون منها بسهولة إلا الأشكال الخارجية. ولا يمكن لأي حضارة أن تنوجد بدون تقاليد، أي بدون روح قومية.

والواقع أن أكبر همَّين للإنسان منذ أن وجد على سطح هذه الأرض كانا يتمثلان في خلق شبكة من التقاليد أولاً، ثم في تدميرها عندما تكون اثارها الإيجابية والنافعة قد استنفدت. وبدون تقاليد ثابتة لا يمكن أن توجد حضارة. وبدون الإزالة البطيئة والتدريجية لهذه التقاليد لا يمكن أن يوجد تقدم. والصعوبة تكمن في إيجاد توازن عادل بين الثبات والتحول. وهذه الصعوبة ضخمة جداً. فعندما يتيح شعب ما لأعرافه وتقاليده أن تثبت وتترسخ بقوة زائدة طيلة أجيال عديدة، فإنه لا يعود يستطيع التطور ويصبح كالصين عاجزاً عن التطور والإصلاح. وحتى

الثورات العنيفة نفسها تصبح عاجزة عن ذلك لأنه يحصل عندئذٍ إما أن تلتحم الأجزاء المكسورة من السلسلة ببعضها البعض وعندئذٍ يستعيد الماضي هيمنته دون تغيير، وأما أن تولِّد هذه الأجزاء المتفرقة نوعاً من الفوضى أولاً ثم الإنحطاط لاحقاً.

وبالتالي فإن المهمة الأساسية الملقاة على عاتق شعب ما ينبغي أن تكمن في الحفاظ على مؤسسات الماضي عن طريق تعديلها شيئاً فشيئاً. وإنها لمهمة صعبة وشاقة. ويمكن القول بأن الرومان في الماضي والإنكليز في الحاضر هم وحدهم الذين استطاعوا إنجازها.

إن المحافظين الأكثر عناداً وصلابة على الأفكار التقليدية والذين يعارضون بإصرار أي محاولة لتغييرها هم الجماهير بالذات، وخصوصاً الفئات التي تشكل الطبقات المغلقة ذات الإمتيازات. كنت قد لفتُّ الإنتباه إلى هذه الروح المحافظة وبيَّنت أن الكثير من الإنتفاضات لا تؤدي إلا إلى تغيير في الكلمات. نضرب على ذلك المثل التالي:

اعتقد الناس في نهاية القرن الماضي أمام الكنائس المدمَّرة والكهنة المطرودين أو المعدومين بالمقصلة والاضطهاد الكوني الشامل للشعائر الكاثوليكية أن الأفكار الدينية العتيقة قد انتهت وفقدت كل سلطة. ولكن بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ أدت الالتماسات والمطالب الكونية العامة إلى إعادة الشعائر الملغاة[٢].

وليس هناك من مثال آخر يبين لنا بشكل أفضل مدى تأثير التقاليد الموروثة على روح الجماهير. فالمعابد لا تحتوي على الأصنام المعبودة الأكثر جبروتاً، كما أن القصور لا تحتوي على الطغاة الأكثر استبداداً. ذلك أنه يمكن تدميرها بسهولة. فالأسياد المتوارون الذين يسيطرون على أرواحنا يقاومون كل محاولة للإطاحة بهم ولا يستسلمون إلا للإستهلاك البطيء للقرون.

٣ ـ الزمن

إن الزمن يشكل بالنسبة للمشاكل الاجتماعية كما بالنسبة للمشاكل

البيولوجية أحـد العوامل الأكثر تأثيراً ونشاطاً. فهـو يمثل المولِّد الحقيقي والمدمِّر الكبير. فهـو الـذي بنى الجبال من حبـات الرمال، ورفع إلى مستوى الكرامة البشرية تـلك الخلية الحية الصغيرة عبر الأزمنة الجيولوجية. ويـكفي لكي نحـول ظاهـرة ما أو نغيرها أن ندخـل عامل الزمن والقـرون. وكما قالوا بحـق فـإن النملة تستطيع أن تزيل الجبل الأبيض[٣] لو امتلكت الزمن الكافي. والشخص الـذي يمتلك القوة السحرية للتحـكم بالزمن والتلاعـب به، سوف يمتلك الجبـروت الـذي يعزوه المؤمنون لآلهتهم.

ولكـن لا تـكمن مهمتنا هـنا في دراسة تأثير الزمن على منشأ آراء الجماهير. فتأثيره من وجهـة النظر هذه عظيم. فهـو يتحـكم بالقوى الكبرى المؤثـرة كالعرق مثلاً، وهـي لا تستطيع التواجد والتشكل إلا بـدونه. وهو الـذي يجعل كـل العقائد تتطور وتموت. فبه تمتلك قوتها وجـبروتها، وبـه تفقدها.

إن الزمن هـو الـذي يطبخ آراء وعقائد الجماهير على نـاره البطيئة، بمعنى أنه يهيئ الأرضية التي ستنشأ عليها وتبرعم. نستنتج من ذلك أن بعض الأفكار التي يمكن تحقيقها في فتـرة ما تبدو مستحيلة في فتـرة أخـرى. فالزمن يراكم البقايا العديدة جداً للعقائد والأفكار، وعلى أساسها تولد أفكـار عصـر مـا. فهـذه الأفكار لا تنبت بالصدفة أو عن طريق المغامـرة. وإنما نجـد جـذورها تضرب عميقاً في ماضٍ طويل. وعندما تزهـر يـكون الزمن قد هيَّأ المجـال لتفتحها. وإذا ما أردنا أن نفهم منشأها فينبغي دائماً أن نـرجع في الزمن إلى الوراء. فهـي بنات الماضي وأم المستقبل وعبدة الزمن دائماً (أي تابعة له).

وبالتالي فهـذا يعني أن الزمن هـو سيدنا الحقيقي، ويـكفي أن نتركه يفعلٍ فعله لكي نـرى كـل الأشياء تتحـول وتتغير. واليـوم نحـن نقلق كـثيراً من المطامح الخطرة للجماهـير، ومن الـدمار والإنقـلابات التي تنذر بها. والزمن هـو وحـده الـذي يتكفَّل بإعادة التوازن. كـتب السيد لافيس ومعه كـل الحـق يقول: «لا يمكن لأي نظـام سياسي أن

ينهـار في يوم واحـد. فالتنظيمات السياسية والاجتماعيـة هي عبـارة عن أعمـال تتطلب قـروناً لإنجـازها. وقد انوجـد النظام الإقـطاعي بشكل هـلامي وفوضوي طيلة قـرون عديدة قبـل أن يستقر ويبلور قواعده وأسسه. والنظام الملكي المطلق عـاش قـروناً عـديدة أيـضاً قبل أن يجـد الوسائل المستقرة والمنتظمة للحـكم. وقد حصـلت اضطرابات كـبرى في فواصل الإنتظـار هـذه».

٤ ـ المؤسسات السياسية والاجتماعية

إن الفكـرة القائلة بـأن المؤسسات يمكنها أن تشكل علاجـاً لنواقص المجتمع، وإن تقدم الشعوب نـاتج عن اكتمال الدساتير وأشكال الحـكومات، وإن المتغيرات الإجتماعية يمكن أن تنتج بمجـرد سن القوانين، هـي فكرة لا تـزال شائعة جـداً حـتى الآن كما قـلت. وقد انطلقت منها الثورة الفرنسية، وكـذلك الأمر فيما يخـص النظريات الإجتماعية الحالية فهـي تستند إليها.

إن التجـارب الأكثر استمرارية وتواصلية لم تنجح في زعزعة هـذا الوهم الكـبير. وقد حـاول الفلاسفة والمؤرخـون أن يبرهـنوا على عبثيته ولكن دون جـدوى. هـذا على الرغم من أنه لم يـكن من الصعب عليهم أن يبينوا أن المؤسسات هـي بنت الأفكـار والعواطف والأخـلاق والطبائع، وإنه لا يمكننا إعـادة هذه الأشياء عن طريق إعادة القوانين. فـالشعب ـ أي شعب ـ لا يخـتار مؤسساته مثلما لا يخـتار لون عيونه أو شعره. فالمؤسسات والحـكومات تمثل منتوج العرق. وبـدلاً من أن تكون خـلاّقة العصر فهـي مخلوقته. والشعوب ليست محـكومة طبقاً لنزوات لحـظة ما، وإنما طبقاً لما تمليه طباعها وخـصائصهـا. ويـلزم أحياناً عدة قـرون من أجـل تشكيل نظـام سياسي معين، وعـدة قـرون أخـرى من أجـل تغييره. فالمؤسسات ليس لها أيـة ميزة أزلية أو أبـدية، وليست جيـدة أو رديئة بحـد ذاتها. فهـي قد تكون جيدة في لحظة ما لشعب ما، وقد تصبح كريهة بالنسبة لشعب آخـر.

وإذن فـإن الشعب لا يمتلك أبداً أية قـدرة حقيقية على تغيير

مؤسساته. لا ريب في أنه يستطيع تعديل اسمها عن طريق إشعال الثورات العنيفة، ولكـن المضمون لا يتغير. وبما أن الأسماء هي عبـارة عن إشارات لا أهمية لهـا فـإن المؤرخ المشغول بالقيم الفعلية للأشياء لا يعيرها أي انتبـاه. هـكذا نجـد مثلاً أن إنكلتـرا، أكثر البلدان في العالم ديمقراطية، خـاضعة لنظام ملكي(٤). هـذا في حين أن الجمهوريات الإسبانية ـ الأمريكية المحكومة من قبل الدساتير الجمهورية تتعرض لأبشع أنواع الاستبـداد. فطباع الشعب وليس الحكومات هـي التي تحسم مصيرها. وقد حـاولت البرهـنة على هذه الحقيقة في كتـاب سابق عن طريق الاتكاء على أمثلة قاطعـة.

وإذن فـإنها مهمة تافهة وتمريناً بلاغياً لا جـدوى منه أن نضيع وقتنا في صناعة الدساتير أو تأليفها. فالضرورة والزمن كفيـلان ببلورتها عندما نترك هذين العاملين يفعـلان فعلهما. وقد بيَّن لنا المؤرخ الكبير ماكولاي في مقطع ينبغي أن يحفظه السياسيون عن ظهـر قـلب في كـل البلدان اللاتينية أن البريطانيين قد تصرفوا بهـذه الطريقة. فبعد أن فسر فوائد القوانين التي تبدو من وجهـة نظر العقل عبـارة عن فوضى مليئة بالعبث والتناقض، فـإنه قـارن بين الـدساتير الإثني عشر التي ماتت أثنـاء الإنتفاضات التي شهدتها الشعوب اللاتينية لأوروبا وأمريكـا مع دستور إنكلتـرا. وبيَّن لنا أن هذا الأخـير لم يعدَّل أو يغيَّر إلا ببـطء شديد وبشكل جـزئي، وذلك تحت تأثير الحاجيات المبـاشرة وليس أبداً طبقاً للمحاكمات العقلية النظرية. قـال بالحـرف الواحد: «ينبغي عـدم الإهتمام أبـداً بالتماثل أو بالتنـاسق أثناء صنع الدساتير، وإنما فقط بالفائدة والمنفعة. ولا تحذفوا أي شذوذ فقط لأنه شـذوذ. ولا تحـاولوا أبـداً أن تجـددوا أو تبتكروا إلا إذا أحسستم بوجود انحـراف أو انزعاج. وعندئذٍ ابتكـروا فقط بالقـدر الكافي لإزالة هـذا الإنحـراف المزعج. لا تحـاولوا أبـداً تقديم قـانون أو مقترح أكبر من الحـالة الخاصة التي ابتكر لعلاجهـا. هذه هي القواعد التي قادت مـداولات برلماناتنا المائتين والخـمسين منـذ عصر يوحنا وحـتى عصر فيكتوريا».

ينبغي أن نـدرس قوانين ومؤسسات كـل شعب الواحـد بعد الآخـر

لكي نبيِّن إلى أي مدى تمثل التعبير عن حاجيات عرقها، وبالتالي فلا يمكن تغييرها عن طريق العنف. يمكننا مثلاً أن نتناقش فلسفياً، وكما نشتهي ونريد، حول فوائد المركزية ومساوئها. ولكن عندما نجد شعباً ما مؤلفاً من أعراق مختلفة يكرس ألف عام من الجهود لكي يتوصل تدريجياً إلى هذه المركزية، وعندما نلاحظ أن ثورة كبرى قد هدفت إلى كسر كل مؤسسات الماضي ولكنها اضطرت ليس فقط إلى احترام هذه المركزية وإنما إلى زيادتها أيضاً، فإننا نستنتج من ذلك أن المركزية هي وليدة ضرورة قاهرة، بل وحتى شرطاً للوجود. ونتأسف عندئذٍ للضعف العقلي لأولئك السياسيين الذين يتحدثون عن تدميرها (المقصود الوحدة المركزية لفرنسا بالطبع، ثم الثورة الفرنسية). وإذا ما حصلت الصدفة وانتصرت فكرتهم فإن هذا النجاح سوف يكون مؤشراً على فوضى[٥] عميقة تؤدي في النهاية إلى مركزية جديدة أكثر صرامة من القديمة.

لنستنتج من كل ما سبق أن البحث عن وسيلة للتأثير على روح الجماهير لا ينبغي أن يكون في المؤسسات. فبعض البلدان، كالولايات المتحدة مثلاً، تزدهر بشكل رائع من خلال المؤسسات الديمقراطية. وبعضها الآخر، كالجمهوريات الإسبانية الأمريكية، تعيش بشكل خامل على الرغم من وجود مؤسسات مشابهة. ولا علاقة لهذه المؤسسات بعظمة الولايات المتحدة، كما أنه لا علاقة لها بانحطاط الجمهوريات المذكورة. فهي ليست السبب. فالشعوب تبقى محكومة بخصائصها وطباعها. وكل المؤسسات التي لم تتلبس كلياً هذه الطباع لا تمثل إلا رداء مستعاراً، وقناعاً مؤقتاً. لا ريب في أنه قد حصلت حروب دموية، وثورات عنيفة، وسوف تحصل في المستقبل أيضاً من أجل فرض مؤسسات تعزى إليها مقدرة خارقة للطبيعة على خلق السعادة. وبالتالي فيمكننا القول بمعنى من المعاني أن المؤسسات تؤثر على روح الجماهير لأنها تولد انتفاضات كهذه. ولكننا نعرف في الواقع أنها سواء أكانت منتصرة أم مغلوبة، فإنها لا تمتلك بحد ذاتها أي فضيلة. وبالتالي فإن متابعة اقتناصها والحصول عليها تشبه ملاحقة الأوهام.

٥ ـ التعليم والتربية

من بين أوائل الأفكار المهيمنة في عصرنا توجد الفكرة التالية: إن النتيجة المؤكدة للتعليم تكمن في تحسين أوضاع البشر وأصلاحهم، بل وجعلهم متساوين. وبسبب من تكرار هذه الفكرة دون كلل أو ملل فإنها قد أصبحت إحدى العقائد الأكثر رسوخاً للديمقراطية. وقد أصبح جداً من الصعب المسّ بها الآن أو مناقضتها كما كان من الصعب سابقاً أن يمسّ المرء إحدى عقائد الكنيسة.

ولكننا نجد أن الأفكار الديمقراطية تقع في تناقض عميق مع معطيات علم النفس والتجربة فيما يخص هذه النقطة ونقاط أخرى عديدة. فالفلاسفة العديدون، وخصوصاً هيربيرت سبنسر كانوا يستطيعون البرهنة بسهولة على أن التعليم لا يجعل الإنسان لا أكثر أخلاقية ولا أكثر سعادة، وإنه لا يغير غرائزه وأهواءه الوراثية. وإذا ما طبق بشكل سيّء فإنه يصبح ضاراً أكثر مما هو نافع. وقد أكد علماء الإحصاء على هذه الآراء عندما قالوا لنا بأن الجريمة تتزايد مع تعميم ظاهرة التعليم، أو على الأقل تعميم نوع معين من أنواع التعليم. كما وبرهنوا لنا على أن أكبر أعداء المجتمع، أي الفوضويين، يجنّدون غالباً في صفوف الفائزين الأوائل في المدارس. وقد لاحظ أحد القضاة المرموقين السيد أدولف غيلو إننا نعد الآن ثلاثة آلاف مجرم متعلم مقابل ألف مجرم أمي. وقال بأن الجريمة قد زادت خلال خمسين عاماً من مائتين وسبعة عشرين مقابل كل مائة ألف شخص إلى خمسمائة واثنين وخمسين مقابل نفس العدد، أي أن الزيادة كانت بنسبة ١٣٣٪. كما واكتشف أيضاً مع زملائه أن الجريمة تتزايد أساساً لدى الشبيبة التي حلت لديها المدرسة المجانية محل سلطة رب العمل.

بالطبع لا أحد يقول بأن التعليم الجيد لا يؤدي إلى نتائج مفيدة جداً. وإذا كان لا يرفع مستوى الأخلاقية لدى الشخص، فإنه على الأقل يتيح له تطوير قدراته المهنية. للأسف، فإن الشعوب اللاتينية قد أسست نظامها التعليمي، خصوصاً منذ ثلاثين سنة، على مبادىء ناقصة

جداً. وعلى الرغم من الملاحظات الإنتقادية التي وجهها إليه مفكرون كبار إلا أنهم يصرون على خطئهم الفادح. وكنت أنا شخصياً قد بينت في كتب عديدة[٦] أن تعليمنا الحالي يحول عدداً كبيراً من أولئك الذين يتلقونه إلى أعداء للمجتمع. كما أنه يقدم الكثير من المجندين والأنصار للإنخراط في أبشع أنواع الإشتراكية.

والخطر الأول لهذه التربية المدعوة حقاً باللاتينية هو ارتكازها على خطأ نفسي أساسي مفاده أن استذكار الكتب المدرسية يطور الذكاء أو يجعله يتفتح. وبناء على ذلك فيجهد الطلاب في تعلم أكبر قدر من المواد والمعلومات واختزانها. وهكذا نجد أن الطالب الشاب ما ينفك منذ السنة الابتدائية وحتى الدكتوراه أو شهادة التبريز يبتلع مضمون الكتب بدون أن يشغِّل عقله أو رأيه الشخصي. فالتعليم بالنسبة له يتمثل في الحفظ والطاعة. يقول السيد جول سيمون الوزير السابق للتعليم بهذا الصدد ما يلي: «إن تعلم الدروس وحفظ القواعد أو المختصرات عن ظهر قلب، ثم ترددها وتقليدها جيداً يشكل ثقافة مسلية. وفيها نجد أن كل جهد هو عبارة عن إيمان واعتقاد بمعصومية الأستاذ. وهي لا تؤدي في النهاية إلا إلى خفض مستوانا وجعلنا عاجزين».

ولو كان هذا التعليم عديم الجدوى فقط لاكتفينا بالحزن والرثاء على الأطفال الذين يعلَّمون بدلاً من الأشياء الكثيرة الضرورية شجرة النسب لأبناء كلوتير وصراعات نوستري وأوستراسي أو التصنيفات الحيوانية، ولكنه يمثل خطراً أكبر بكثير لأنه يوحي للطفل الذي تلقاه تقززاً عنيفاً من البيئة التي ولد فيها والرغبة الشديدة في الخروج منها. فالعامل لم يعد يرغب في أن يبقى عاملاً، والفلاح لم يعد يرغب في أن يبقى فلاحاً، وآخر البورجوازيين لم يعد يرى لأولاده من مهنة ممكنة إلا أن يصبحوا موظفين ذوي رواتب لدى الدولة. وبدلاً من تحضير رجال المستقبل لمواجهة الحياة، فإن المدرسة لا تحضرهم إلا للوظائف العامة حيث لا يتطلب النجاح أي جهد شخصي أو مبادرة ذاتية من طرف الطالب. فهو يخلق في أسفل السلم الاجتماعي جيوشاً من

البروليتاريين الناقمين على وضعهم والمستعدين دائماً للتمرد. ويخلق في أعلى السلم الاجتماعي بورجوازيتنا الطائشة، المتشككة والساذجة في آن معاً. هذه البورجوازية التي تثق ثقة خرافية بالدولة وكأنها قادرة على صنع المعجزات. وعلى الرغم من ذلك فهي تلومها باستمرار وتتهم الحكومات باقتراف أخطائها الخاصة بالذات. وهي عاجزة عن القيام بأي مبادرة أو مشروع بدون تدخل السلطة.

والدولة التي تخرِّج بواسطة هذه الكتب المدرسية البائسة كل هؤلاء الطلاب لا تستطيع أن توظف منهم إلا عدداً صغيراً، وتترك الآخرين بدون عمل. وبالتالي فعليها أن تقنع بإطعام الأولين، وجعل الآخرين أعداء لها. ومن أعلى الهرم الإجتماعي إلى أسفله نجد أن الكمية الضخمة من الخريجين تحاصر كل المهن والوظائف اليوم. فالتاجر لا يجد إلا بصعوبة شديدة وكيلاً يقبل بالذهاب إلى المستعمرات لتمثيله فيها. ولكن أكثر الوظائف تواضعاً تتلقى آلاف الطلبات من قبل المرشحين للتوظيف. فمحافظة السين تحتوي وحدها على عشرين ألف معلم ومعلمة بدون عمل. وبما أنهم يحتقرون العمل في الحقول أو في المصانع فإنهم يتوجهون بطلباتهم إلى الدولة لكي يعيشوا. وبما أن عدد المقبولين محدود، فإن عدد الناقمين كبير بالضرورة. وهؤلاء الأخيرون مستعدون لخوض كل الثورات أياً تكن أهدافها أو قادتها. فاكتساب المعارف التي لا يمكن استخدامها هو الوسيلة المؤكدة لتحويل الإنسان إلى متمرد(٧).

بالطبع فقد فات الأوان لتدارك مثل هذا الأمر وعكس التيار. فوحدها التجربة، المربية الأولى والأخيرة للشعوب، قادرة على الكشف عن خطئنا. ووحدها قادرة على إقناعنا بضرورة تغيير كتبنا المدرسية الغبية، ومسابقاتنا المحزنة واستبدال التعليم المهني والتخصصي بها. فهو وحده القادر على إعادة الشبيبة إلى الحقول والمصانع والشركات الاستعمارية المهجورة اليوم.

وهذا التعليم المهني الذي يطالب به جميع المستنيرين اليوم هو

الـذي كان قد تلقاه آباؤنا بالأمس. وهو الـذي عرفت الشعوب التي تهيمن اليوم على العالم بإرادتها ونشاطها وحس المبـادرة لديها أن تحـافظ عليه. وقد بيَّن «تين» في صفحـات ناصعة سوف أقـدم فيما بعد أهـم مقاطعهـا كيـف أن نظامنا التعليمي في الماضي كان يماثل تقريباً نظـام التعليم الإنكليزي أو الأمريكي السائد اليوم. ثم يقيم مقارنة رائعة بين النظام اللاتيني والنظام الأنغلوساكسوني، ويبيِّن النتائج والإنعكاسات المترتبة على كـل منهما (أي على منهجيتهما).

ربما كـان ممكناً أن نقبل كـل أضرار نظامنا التعليمي الكلاسيكي، هـذا على الرغم من أنه لا ينتج إلا الساقطين والناقمين لو أن الإكتساب السطحي لكل هذه المعلومات والترداد الببغائي لكـل تلك الكتب المدرسية يرفعـان من مستوى الذكاء والفهم. ولكن هـل يؤدي بالفعل إلى هـذه النتيجة؟ لا، للأسف الشديد! فالحـكم الصائب والتجربة وحس المبادرة والطبع القوي تشكل شروطاً للنجاح في الحياة، ولا يمكننا أن نجدها في الكتب. ذلك أن الكتب هي عبـارة عن قواميس مفيدة للاستشارة، ولكـن ليس ضرورياً أبـداً أن نخـزن في الرأس مقاطع مطولة منها.

كـيف يمكن للتعليم المهني أن يطور الذكاء إلى حـد يستعصي تماماً على التعليم الكلاسيكي؟ لقد بيَّن لنا ذلك العلاّمة تين في السطور التـالية:

«إن الأفكـار لا تتشكل إلا في وسطها الطبيعي والعادي. والشيء الـذي ينبت براعمها هو الإنطباعات الحسية العديدة جـداً والتي يتلقاها الصبي كـل يوم في المشغل أو في المنجـم أو في المحكمة أو في المدرسة أو في الـورشة أو في المستشفى أو في مجموعة الآلات.

لنقل: أجهـزة وعمليات تحت تصرف الزبائن، والعمال، عمل، وبضاعة مشغولة بشكل جيد أو رديء، غالية الثمن أو مربحة. هذه هي الأشياء الحسية التي تبصرها العين والأذن والأيدي وحـتى حاسة الشمّ. وهي التي يتلقاها التلميذ الصغير بشكل لا إرادي من الطبيعة بعد أن

تنضج بشكل صامت، ثم تنتظم فيه لكي توجه عاجلاً أو آجلاً نحو هذه التركيبة الجديدة أو غيرها، ونحو هذا التبسيط، أو ذلك الاقتصاد، أو تلك التمامية والاختراع. ونلاحظ أن الطفل الفرنسي محروم من كل هذه الإتصالات الثمينة، ومن كل هذه العناصر الضرورية والقابلة للتمثل والهضم. وبشكل أخص فهو محروم منها في أخصب مراحل عمره. وبدلاً من ذلك فهو مسجون لمدة سبع أو ثماني سنوات في المدرسة بعيداً عن التجربة المباشرة والشخصية التي كانت ستقدم له الفهم الدقيق والمنعش للأشياء، وللبشر، ومختلف الأساليب للتعامل معها ومعهم.

... وعلى الأقل فتسعة على عشرة من هؤلاء التلاميذ أضاعوا وقتهم وتعبهم وسنوات عديدة من حياتهم. وإنها لسنوات فعالة ومهمة، بل وحاسمة. احسبوا أولاً نصف أولئك الذين سيتقدمون للإمتحان أو حتى ثلثيهم، فهم من الساقطين. ثم فيما بعد نجد من بين الناجحين أصحاب الدرجات والمسجلين وأصحاب الشهادات، أي كل أولئك المرهقين. فقد كلفهم المدرسون فوق طاقتهم عندما طلبوا منهم أن يرددوا في مجموعة العلوم وهم جالسون على الكرسي أو واقفون أمام اللوح طيلة ساعتين كاملتين الفهرس الجامع لكل المعارف البشرية! في الواقع إنهم فعلوا ذلك أو كله تقريباً في اليوم المذكور ولمدة ساعتين. ولكن بعد شهر من ذلك التاريخ، لا يعودون يعرفون شيئاً يذكر لأنهم لن يتعرضوا مرة أخرى للإمتحان. وبما أن مكتسباتهم المعرفية عديدة أكثر مما يجب وثقيلة أكثر مما يجب فإنها تتبخر من عقولهم ولا يعوضون عنها بمعارف جديدة. فقوتهم العقلية تدهورت، والنسغ الخصب جف ونضب. فالإنسان المصنوع بشكل جاهز يظهر للعيان، وفي الغالب يظهر كإنسان منته. فهذا الإنسان المدجَّن والمتزوج والمستسلم للدوران في حلقة مفرغة إلى ما لا نهاية ينغلق داخل وظيفته الضيقة. وهو يقوم بواجبه كما ينبغي، ولكن لا شيء آخر. وهذا هو المردود الوسطي، وبالتأكيد فإن الحصيلة الناتجة لا تساوي الثمن المدفوع. وأما في إنكلترا وأمريكا كما في فرنسا قبل (١٧٨٩) فإنهم يستخدمون المنهجية المعاكسة، وكان المردود الحاصل مساوٍ للجهد المبذول أو أكبر منه».

إن المؤرخ الشهير يبين لنا فيما بعد الفرق بين نظامنا التعليمي ونظام الأنغلوساكسون. فالتعليم لديهم لا يجيء من الكتب وإنما من الأشياء ذاتها. فالمهندس مثلاً يتدرب في المشغل ونادراً في المدرسة، وكل طالب يتوصل بالضبط إلى الدرجة التي يمتلكها عقله. فهو يتوصل إلى درجة العامل أو رئيس العمال إذا كان ذكاؤه لا يسمح له بالذهاب أبعد من ذلك. وهو يتوصل إلى مرتبة مهندس إذا كانت ملكاته تسمح بذلك. وهذه هي الطريقة الديمقراطية والمفيدة للمجتمع. فهي أفضل من تلك التي تجعل كل مستقبل الفرد ومهنته تعتمد على مسابقة تدوم بضع ساعات فقط، وتتم في سن الثامنة عشرة أو العشرين.

ثم يتابع تين قائلاً:

«إن التلميذ الذي دخل صغيراً جداً للتدرب في المستشفى أو في المنجم أو في المصنع أو لدى المهندس المعماري أو لدى المحامي يحصل على تدريبه الأولي ودورته التعليمية تماماً كما يفعل رجل الدين الذي يكرس نفسه للدراسة أو التلميذ الرسام في محترفه. فهو قد حصل مسبقاً، أي قبل الدخول، على بعض الدروس العامة والمختزلة من أجل أن يمتلك إطاراً جاهزاً لكي يموضع فيه الملاحظات التي سوف يسجلها لاحقاً. ولكنه يجد في متناول يده غالباً بعض الدروس التقنية التي يمكنه حضورها في ساعات فراغه، وذلك من أجل تنسيق التجارب اليومية التي يقوم بها شيئاً فشيئاً. وفي ظل نظام كهذا تقوى المقدرة العملية للتلميذ وتتزايد من تلقاء ذاتها، وذلك بحسب درجة ذكائه ومواهبه، وطبقاً للاتجاه الذي تتطلبه مهمته المقبلة عن طريق الاختصاص الذي انخرط فيه منذ تلك اللحظة وأراد التأقلم معه. وبهذه الطريقة يتوصل التلميذ في إنكلترا والولايات المتحدة إلى تقديم أفضل ما يمكن أن يعطيه أو تقدر أن تعطيه مواهبه. ومنذ سن الخامسة والعشرين وحتى قبل ذلك بكثير يستطيع إذا كانت الملكات لا تنقصه أن يكون ليس فقط منفذاً نافعاً لمهنة ما، وإنما أيضاً مقاولاً حقيقياً ليس فقط بالدولاب وإنما بالمحرك زيادة على ذلك. وأما في فرنسا فقد سيطرت

المنهجية المعاكسة وأصبحت أكثر بلادة في كل جيل، وبالتالي فإن مجمل القوى الضائعة يبدو ضخماً».

ثم يتوصل الفيلسوف الكبير إلى النتيجة التالية الخاصة بالتفاوت المتزايد بين تعليمنا اللاتيني والحياة العملية ويقول:

«هناك طبقات ثلاث للتعليم تخص مرحلة الطفولة والمراهقة والشباب. والتحضير النظري والمدرسي على مقاعد الدرس بواسطة الكتب تطاول وأثقِل بالدرجات والشهادات والإجازات من أجل الإمتحان فقط. واستخدموا لذلك أسوأ الوسائل عن طريق تطبيق نظام ضد الطبيعة وضد المجتمع لأنه يؤجل باستمرار مرحلة التدريب العملي وذلك بواسطة نظام التعليم الداخلي والتدريب الاصطناعي والتعبئة الميكانيكية، ثم بواسطة الإرهاق الذي لا يبالي بالزمن التالي، أي عندما يبلغ الإنسان سن النضج ويمارس مسؤولياته ومهنته بغض النظر عن العالم الحقيقي الذي سيسقط منه لاحقاً الشاب الصغير، وعن المجتمع المحيط الذي ينبغي أن يتأقلم معه أو يستسلم له سلفاً، وعن الصراع البشري الذي ينبغي عليه لكي يدافع عن نفسه ويقف على قدميه أن يجهز نفسه بشكل جيد مسبقاً ويسلح نفسه ويتدرب على الصعوبات ويصبح قوياً خشناً. وهذا التجهيز الضروري، وهذا الإكتساب الأكثر أهمية من كل ما عداه، وهذا الثبات للحس الصائب وللإرادة وقوة الأعصاب، كل ذلك لا توفره مدارسنا للتلميذ. على العكس. فبدلاً من أن تجعله مؤهلاً كفؤاً فإنها تنزع عنه كل أهلية وكفاءة فيما يخص مستقبله ووظيفته اللاحقة والنهائية. وبناء على ذلك فإن دخوله إلى مسرح العالم وخطواته الأولى في حقل الممارسة العملية ليست في غالب الأحيان إلا سلسلة متتابعة من السقوط المؤلم. ويظل يئن تحت وطأتها، ومدعوكاً لزمن طويل بسببها، وأحياناً عاجزاً أو مقعداً في البيت. وإنها لمحنة شاقة وخطرة. فالتوازن الأخلاقي والعقلي يفسد فيها ويصبح مهدداً بعدم العودة إلى سابق عهده من جديد. ثم تجيء فترة انقشاع الأوهام بشكل مفاجيء ومطبق، فالخيبات كانت أكبر مما يجب، والمرارات أقوى مما يمكن احتماله»[٨].

هـل ابتعدنا في كـل هذه الإستشهادات والصفحـات عن نفسية الجماهير؟ لا، بالتأكيد. ولكي نفهم الأفكـار والعقائـد التي تزرع اليـوم وتتفتح غداً، فـإنه ينبغي علينا أن نفهم كـيف تمت عملية تحـضير الأرض وتمهيدها. فالتعليم الـذي يقدم لشبيبة بـلد ما يتيح لنا أن نستشرف قليلاً مصير هـذا البلد ومستقبله. وتربية الجيل الحـالي تبرر كـل التوقعات والمخـاوف السوداء. فمع التعليم والتربية تتحسن روح الجماهير أو تفسد، فهما مسؤولان عن ذلك جزئياً. وبالتـالي فقد كان من الضروري تبيان كـيف أن النظام الحـالي قد شكل وعيها وعقليتها، وكـيف أن أغلبية اللامبالين والحيـاديين قد أصبحـت تدريجياً جيشاً هائـلاً من الناقمين المستعدين لاتبـاع كـل تحريضات الطوباويين وخطباء البلاغة والكلام. إن المدرسة تخرِّج اليوم الناقمين والفوضويين وتهيِّىء للشعوب اللاتينية زمن الانحـطاط.

الفصل الثاني

العوامل المباشرة التي تساهم في تشكيل آراء الجماهير

كنا قد تحدثنا عن العوامل البعيدة والتمهيدية التي تزود روح الشعوب بقابلية استقبال خصوصية، وتجعل ممكناً لدى الجماهير تفتح بعض العواطف وازدهار بعض الأفكار. وبقي علينا الآن أن نتفحص العوامل القابلة لممارسة عمل فوري ومباشر. وسوف نرى في فصل مقبل كيف ينبغي تسيير هذه العوامل من أجل أن تولِّد كل الآثار والنتائج المطلوبة.

إن الجزء الأول من كتابنا هذا قد عالج عواطف الجماعات البشرية وأفكارها ومحاجاتها أو حججها. وهذه المعرفة قادرة بالطبع وبشكل عام على تقديم الوسائل الكفيلة بالتأثير على روح الجماهير وجذبها. ونحن نعرف الآن ما الذي يدهش مخيلة الجماهير ويصدمها. كما ونعرف قوة التحريضات وحجم عدواها وانتشارها وخصوصاً إذا ما قدمت على هيئة صور. ولكن بما أن التحريضات الممكنة هي من أصول شديدة الاختلاف، فإن العوامل لقادرة على التأثير على روح الجماهير يمكنها أن تكون مختلفة بما فيه الكفاية. وبالتالي فمن الضروري أن ندرسها بشكل منفصل. فالجماهير تشبه إلى حد ما طائر العنقاء في الخرافة القديمة. بمعنى أنه ينبغي أن نعرف كيف نحل المشاكل التي تطرحها نفسيتها علينا، أو أن نستسلم لها فتبتلعنا.

١ ـ الصور، والكلمات، والعبارات (أو الشعارات)

عندما درسنا مخيلة الجماهير رأينا أنها تتأثر بالصور بشكل خاص.

فهـي تبهرها فعلاً. وإذا لم نـكن نمتلك الصور فـإنه من الممكن أن نثيرها في مخيلة الجماهير عن طريق الإستخـدام الذكي والصائب للكلمات والعبارات المنـاسبة. فـإذا ما استخدمناها بشكل فني لبق فـإنها تستطيع عندئذٍ أن تمتلك القوة السرية التي كان اتباع السحر يعزونها إليها في الماضي. فهـي تثير في روح الجماهير العديدة أقوى أنواع الإعصـار، ولكنها تعـرف أيضاً كـيف تهدئها. ويمكننا أن نبني هرماً أكثر علواً من هـرم كيوبس العتيق بـواسطة عظـام الضحايا فقط، أقصد ضحايا الجماهير التي هيجتها الكلمات والعبارات.

إن قـوة الكلمات مرتبطة بـالصور التي تثيرها، وهي مستقلة تماماً عن معانيها الحقيقية. والكلمات التي يصعب تحديد معانيها بشكل دقيق هي التي تمتلك أحياناً أكبر قـدرة على التأثير والفعل. نضرب على ذلك مثلاً الكلمات التـالية: ديمقراطية، اشتراكية، مساواة، حرية، إلخ.. فمعانيها من الغموض بحيث إننا نحتـاج إلى مجلـدات ضخمة لشرحهـا. ومع ذلك فـإن حروفها تمتلك قـوة سحرية بالفعل، كما لو أنها تحـتوي على حـل لكل المشاكل. فهـي تجمع المطامحة اللاواعية المتنوعة وتركبها، وتحـتوي على الأمل بتحـقيقها.

فالعقل والمحاجات العقلانية لا يمكنها أن تقاوم بعض الكلمات والصياغات التعبيرية. فما إن تُلفَظ بنوع من الخشوع أمام الجماهير حـتى تعلو آيـات الاحتـرام على الوجوه وتنحـني الجبـاه لها. والكـثيرون يعتبرونها بمثابة قـوةٍ من قـوى الطبيعة، أو قـوى خارقة للطبيعة. فهـي تثير في الـنفوس صوراً مجـيدة وغامضة، ولكـن الغموض الـذي يظللها يـزيد من قوتها السرية. ويمكننا أن نقارنها بتلك الآلهـة المرعبة المختبئة وراء خيمة لا يقترب منها الرجل الورع إلا وهو يرتجـف مرتعشاً.

وبما أن الصور المثـارة من قبل الكلمات مستقلة عن معانيها، فـإنها تختلف من عصر إلى عصر، ومن شعب إلى شعب، على الرغم من تماثل الصياغات التعبيرية ذاتها. وترتبط مؤقتـاً ببعض الكلمات بعض الصور. فالكلمة ليست إلا الزرّ الذي نكبسه لكي تخـرج الصور فوراً.

ولا تملك كـل الكلمات أو العبارات القدرة على الإيحـاء بالصور أو إثـارتها. ومنها ما يـرثّ ويبتذل بعد أن كان قادراً على إثـارتها، ولا يعود يوقظ أي شيء في الـروح وهي عندئذٍ تصبح أصواتاً فارغة هدفها إعفـاء من يستخـدمها من ضـرورة التفكير. ومع المخـزون الصغير من الصياغات التعبيرية والأشياء المبتـذلة المتعلّمة في الطفولة، فـإننا نمتلك كـل ما يلزمنا من أجـل عبـور الحياة بـدون الحاجة المتبعة والمضنية لأن نفكر.

فـإذا ما أخـذنا لغة معينة للـدراسة، وجـدنا أن الكلمات التي تتركب منها تتغير ببـطء كـبير عبر الـقرون والعصور. ولكن الصـور التي تثيرها أو توحي بها تتغير دون توقف، وكـذلك المعنى الـذي نربطه بها. ولهـذا السبب توصلت في كتـاب آخـر إلى نتيجـة مفادها أن الترجمة الدقيقة للغة ما، وخـصوصاً عندما يتعلق الأمر بالشعوب الميتة، هـي شيء مستحيل كلياً. فماذا نفعل نحـن في الواقع عندما نحـل كلمة فرنسية محـل كلمة لاتينية أو إغريقية أو سنسكريتية أو حـتى عندما نبحـث عن فهـم كتـاب مكتوب في لغتنا الخاصة منذ بضعـة قـرون؟ إننا نحـل بكل بساطة الصـور والأفكـار التي أثارتها الحيـاة الحـديثة في عقلنا محـل المفاهيم والصور المختلفة بشكل قـاطع والتي كانت الحياة القديمة قد جعلتهـا تولد في روح الأعـراق الخاضعة لشروط وجـود لا علاقة لها بشروط وجودنا. فأناس الثورة الـذين توهموا أنهم يقلـدون الإغريـق والرومان لم يفعلوا إلا أن أعطـوا للكلمات القديمة معنى لم تعرفه أبـداً. فما هـي أوجه التشابه التي يمكن أن توجـد بين مؤسسات الإغريق والمؤسسات الـتي نعرفها حـالياً وتحـمل نفس الأسماء؟ فماذا كـانت تعني الجمهورية آنـذاك، اللهم إلا مؤسسة أرستقراطية مشكلة من اتحـاد مستبدّين صغار يهيمنون على جمهور من العبيد الخـاضعين للإستعبـاد المطلق؟ وهـذه الارستقراطيات القروية المرتكزة على نظـام العبودية ما كان بـإمكانها أن توجـد لحظة واحدة لولاه. وإذن فما العلاقة بين جمهوريتهم وجمهوريتنا؟

ثم لنأخـذ كلمة الحرية أيـضاً. فماذا يمكن أن تعني آنـذاك من

شيء يشبه ما نفهمه منها اليوم؟ ماذا كانت تعني في فترة لم تكن تخطر فيها على بال أحد حرية التفكير؟ وحيث لم تكن فيها جريمة أكبر ولا أكثر ندرة من مناقشة آلهة المجتمع وقوانينه وأعرافه. وكلمة وطن كانت تعني عبادة أثينا أو سبارطة وليس أبداً عبادة اليونان التي كانت مشكلة من مدن متنافسة وفي حالة حرب دائمة. ولكن نفس الكلمة، ماذا كان يعني معناها لدى الغاليين القدماء المنقسمين إلى قبائل متنافسة، وأعراق ولغات وأديان مختلفة، والذين انتصر عليهم القيصر بكل سهولة لأنه كان له بينهم حلفاء بشكل دائم؟

فروما وحدها زودت بلاد الغال بوطن عندما حققت لها وحدتها السياسية والدينية. وبدون أن نعود كثيراً في الزمن إلى مثل هذا الحد، وإنما فقط قرنين، هل نعتقد أن معنى كلمة وطن كانت هي ذاتها لدى الأمراء الفرنسيين ككوندي الكبير مثلاً، هؤلاء الأمراء الذين تحالفوا مع الأجنبي ضد ملكهم؟ ثم ألم تكن الكلمة ذاتها تعني شيئاً آخر مختلفاً عن معناها الحديث بالنسبة للمغتربين؟ فهؤلاء كان يتخيلون أنهم يطبقون قانون الشرف عن طريق محاربتهم لفرنسا، وهم في الواقع ينصاعون لوجهة نظرهم الخاصة لأن القانون الإقطاعي يربط الفلاح بالإقطاعي وليس بالأرض، وأنه حيث يهيمن الملك يوجد الوطن الحقيقي.

هكذا نجد أن الكلمات التي غيرت معناها عبر العصور كانت عديدة. ولا نستطيع أن نفهم المعنى الذي كان لها في الماضي إلا بعد بذل جهود كبيرة. وينبغي أن نقوم بقراءات عديدة، كما قالوا بحق، لكي نتوصل فقط إلى تصور معنى كلمة الملك مثلاً أو العائلة الملكية بالنسبة لأجداد أجدادنا. فماذا يمكن القول إذن بالنسبة لكلمات أكثر تعقيداً؟

نستنتج من ذلك إذن أن الكلمات ليس لها إلا معان متحركة ومؤقتة ومتغيرة من عصر إلى عصر، ومن شعب إلى شعب. وعندما نريد أن نؤثر على الجمهور بواسطتها، فإنه ينبغي علينا أولاً أن نعرف ما هو

معناها بالنسبة له في لحظة معينة، وليس معناها في الماضي أو معناها بالنسبة لأفراد ذوي تكوين عقلي مختلف. فالكلمات تعيش كالأفكار.

وعندما تشعر الجماهير بنفور عميق من الصور التي تثيرها بعض الكلمات وذلك على أثر الإنقلابات السياسية والمتغيرات التي أصابت العقائد، فإن الواجب الأول لرجل الدولة الحقيقي هو تغيير هذه الكلمات دون أن يمس الأشياء ذاتها بالطبع. فهذه الأخيرة مرتبطة جداً بالتكوين الوراثي ولا يمكن تغييرها أو تحويلها. فالأريب الحكيم توكفيل قال بأن إنجاز نظامي حكومة القناصل والأمبراطورية يتلخص أساساً في تلبيس معظم مؤسسات الماضي بكلمات جديدة. بمعنى أنها تستبدل بالكلمات التي تثير في المخيلة صوراً مزعجة كلمات أخرى تمنع بجدتها إثارة مثل هذه الصور. فكلمة (taille) التي كانت تعني ضريبة تفرض قديماً في فرنسا أثناء الحروب أصبحت (Contribution foncière) أي المساهمة العقارية. وكلمة (gabelle)، أي ضريبة الملح أصبحت (L'impôt du sel) التي تعني نفس الشيء، وكلمة (les aides) التي كانت تعني المساعدات والتي أصبحت تعني مساهمات غير مباشرة وحقوق في آن معاً (Contribution indiredctes et droits réunis) ثم كلمة (La taxe des maîtrise et jurandes) أي ضريبة السيطرة والتكليف المحلَّف التي أصبحت تعني (Patente) أي ضريبة المهنة، إلخ . . .

وإذن فإن إحدى المهام الأساسية لرجالات الدول هو أن يعمِّدوا بكلمات شعبية أو على الأقل حيادية الأشياء المحتقرة من قبل الجماهير تحت أسمائها القديمة. فقوة الكلمات وتأثيرها من الضخامة بحيث أنه يكفي على القادة أن يعرفوا اختيار الكلمات لكي يجعلوا الجماهير تقبل أبشع أنواع الأشياء. ويلاحظ الفيلسوف تين بهذا الصدد أن اليعاقبة استطاعوا عن طريق رفع شعار الحرية والأخاء، أي الكلمتين الأكثر شعبية آنذاك، أن يفرضوا «نظاماً استبدادياً لا يقل بشاعة عن نظام داهومي، وأن ينصبوا محكمة مماثلة لمحاكم التفتيش، وأن يرتكبوا مذابح بشرية مشابهة لمذابح المكسيك القديمة».

والواقع أن بـراعة الحكام تتمثل، كبراعة المحـامين، في معرفة كيفية التلاعب بالكلمات. وإنه لفن صعب. وذلك لأن نفس الكلمات تمتلك في نفس المجتمع معـاني مختلفة بالنسبة للطبقات الإجتماعية المختلفة. فهـذه الطبقات تستخدم ظاهرياً نفس الكلمات ولكنها لا تتكلم نفس اللغة.

في كـل الأمثلة التي سبقت كنا قد أدخلنا عامل الزمن بصفته العامل الأساسي المؤدي إلى تغيير معاني الكلمات. وإذا ما أدخلنا أيضاً عامل العرق فـإننا نجـد في نفس الفترة ولـدى شعوب متحضرة أيضاً ولكن من أعـراق مختلفة إن الكلمات المتماثلة تـدل غالباً على أفكـار مختلفة تماماً. ولا يمكننا أن نفهم هـذه الإخـتلافات إلا بعد القيام برحـلات عديدة، وبالتالي فلا أستطيع الإلحـاح عليها هنا. وإنما سأكتفي بالقول أن الكلمات الأكثر استخداماً هي بالذات الكلمات التي تمتلك المعاني الأكثر اختلافاً إذا ما انتقلنا من شعب إلى شعب. نضرب عليها مثلاً كلمتي ديمقراطية واشتراكية اللتين يشيع استخـدامهما حـالياً.

فالواقع إنهما تـدلان على أفكار وصور متضادة تماماً لـدى الروح اللاتينية من جهـة، والروح الأنغلوساكسونية من جهـة أخـرى. فكلمة ديمقراطية تعني لدى اللاتين بشكل خـاص إمحـاء الإرادة وحس المبادرة لـدى الفرد لكي تصبحا تابعتين للدولة.

فهـذه الأخيرة تصبح مسؤولة أكثر فأكثر عن القيادة وتطبيق المركزية واحتكار تسيير الأمور والتصنيع. وإليها تلجـأ كـل الأحـزاب بـدون استثناء من راديكالية واشتراكية وملكية، وذلك بشكل مستمر. وأما لـدى الأنغلوساكسون وخصوصاً في أمريكا فـإن كلمة ديمقراطية ذاتها تعني على العكس التنمية المكثفة للإرادة وللفرد، كمـا وتعني إمحـاء الدولة وضعف دورها في تسيير الأمور. ففيما عـدا قطاعات البوليس والجيش والعلاقـات الديبلوماسية لا تقـود الدولة أي شيء بما في ذلك قطاع التعليم. وبالتـالي فـإن نفس الكلمة تعني لـدى هذين الشعبين معنى مختلفاً كلياً[1].

٢ ـ الأوهـام

لقد تعرضت الشعوب دائماً لتأثير الأوهام، وذلك منذ فجـر البشرية. فهـي قد أقامت أكثر المعابد والتماثيل والهياكل لخلاقي الأوهام ومبدعيها. وكانت في الماضي القديم أوهاماً دينية، ثم أصبحـت فلسفية واجتماعية في وقتنا الحاضر. ونحن نجد هؤلاء «الملوك ـ الأوهام» يتربعون على عرش كـل الحضارات التي ازدهرت وتعاقبت على سطح كوكبنا الأرضي. فبـاسم هذه الأوهام أقيمت معابد الكلدانيين ومعابد مصر، وكل النصب التذكارية الدينية في القرون الوسطى. وباسمها تم قـلب أوروبا كلهـا قبل قرن من الزمان (المقصود أوهام الثورة الفرنسية). وليس لدينا أي تصـور فني أو سياسي أو اجتماعي إلا وهو مطبوع بطابعها القوي. صحيح أن الإنسان قد يقلبها أحياناً بعد أن يـدفع الثمن على هيئة اختلاجـات وتشنجات مرعبة، ولكن يبدو أنه مجـبر على إعادتها دائماً من جـديد. فلولاها لما كـان قـادرا على الخـروج من الهمجية البدائية، ولولاها لسقط في هذه الهمجية من جـديد. لا ريب في أنها تمثل ظلالاً عبثيـة، ولكن بنات أحلامنا هذه قد حثت الشعوب على خـلق كـل ما يصنع بهاء الفنون وعظمة الحضارات. كتـب أحـد المؤلفين ملخصاً عقيدتنا بهذا الخصوص قائـلاً:

«فـلو أننا دمرنا كـل الأعمال الفنية والنصب التذكارية المستلهمة من قبل الدين والموجودة في المتاحـف والمكتبات وجعلناها تتساقط على بـلاط الرصيف، فما الـذي سيتبقى بعدئذٍ من الأحـلام البشرية الكبرى؟ إن سبب وجـود الآلهـة والأبطال والشعراء أو مبـرر هذا الوجود هو خـلع بعض الأمل والوهم على حياة البشر الـذين لا يمكنهم أن يعيشوا بـدونهما. وقد بـدا لبعض الوقت أن العلم يضطلع بهذه المهمة. ولكن الشيء الـذي حـطَّ من مكانته في نظر القلوب الجائعة للمثال الأعلى، هو أنه لم يعد يجـرؤ على توزيع الوعود هنا وهناك، كما أنه لا يعرف أن يـكذب بما فيه الكفاية».

لقد كـرس فلاسفة القرن الماضي جهـودهم بـكل حماسة لتدمير الأوهام الدينية والسياسية والاجتماعية التي عـاش عليها آباؤنا طيلة قـرون

عديدة. وهم بتدميرهم لها جعلوا منابع الأمل والخضوع تجف وتنضب. ووراء الأوهام المضحَّى بها كالقرابين وجدوا قوى الطبيعة العمياء التي لا ترحم بالنسبة للضعفاء ولا تعرف الشفقة.

وعلى الرغم من كل هذا التقدم الذي تحقق فإن الفلسفة لم تستطع أن تقدم للشعوب أي مثال أعلى قادر على أن يجذبها ويسحرها. وبما أن الأوهام تشكل ضرورة حتمية بالنسبة لها فإنها تتوجه بالغريزة نحو الخطباء البلاغيين الذين يقدمونها لها كما تتوجه الحشرة نحو الضوء غرائزياً أيضاً. والعامل الكبير لتطور الشعوب ما كان الحقيقة أبداً، وإنما الخطأ. وإذا كانت الإشتراكية تشهد اليوم ازدياد قوتها وانتشارها لدى الجماهير، فذلك لأنها تشكل الوهم الوحيد الذي لا يزال حياً حتى الآن. فالبرهنة الرياضية والعلمية على خطئها لا تعرقل أبداً مسارها الصاعد والمتدرج. وتعود قوتها الأساسية إلى أن المدافعين عنها أو حاملي لوائها هم من الجهلة بواقع الأمور، وبالتالي فهم قادرون على توزيع الوعود بتحقيق السعادة للإنسان. إن الوهم الإجتماعي يسيطر اليوم على كل أنقاض الماضي المتراكمة، والمستقبل له بدون شك. فالجماهير لم تكن في حياتها أبداً ظمأى للحقيقة. وأمام الحقائق التي تزعجهم فإنهم يحولون أنظارهم باتجاه آخر، ويفضلون تأليه الخطأ، إذا ما جذبهم الخطأ. فمن يعرف إيهامهم يصبح سيداً لهم، ومن يحاول قشع الأوهام عن أعينهم يصبح ضحية لهم.

٣ ـ التجربة

تشكل التجربة تقريبا المنهجية الوحيدة الفعالة من أجل زرع حقيقة ما في روح الجماهير بشكل راسخ، وتدمير الأوهام التي أصبحت خطرة أكثر مما ينبغي. ولكن ينبغي تعميمها على أوسع مستوى وبشكل مكرر ومعاد من أجل التوصل إلى أفضل نتيجة. وعموماً فإن التجارب التي عاشها جيلٌ ما غير ذات جدوى بالنسبة للجيل اللاحق. ولهذا السبب فإن الأحداث التاريخية التي تضرب عادة كمثل على العظة والبرهنة لا تفيد شيئاً. ففائدتها الوحيدة تكمن فقط في البرهنة على مدى

ضرورة تكرار التجارب من عصر إلى عصر من أجل أن تمارس بعض التأثير وتنجح في زعزعة خطأ راسخ بقوة.

فقرننا وذلك الذي سبقه سوف يستشهد بهما مؤرخو المستقبل بدون شك بصفتهما عصران للتجارب الغريبة. فلم يشهد أي عصر آخر في التاريخ من التجارب مثلما شهدا.

وأضخم تجربة شهدناها كانت الثورة الفرنسية. فلكي نكتشف أنه لا يمكن إعادة بناء المجتمع من جديد على أساس تعليمات العقل الخالص، لزمنا أن نقتل ملايين عديدة من البشر وأن نقلب أوروبا كلها طيلة عشرين سنة. ولكي نبرهن تجريبياً على أن القياصرة يكلفون غالياً الشعوب التي تصفق لهم، فإنه لزمنا خوض تجربتين منهكتين خلال خمسين عاماً وعلى الرغم من وضوحهما فإنه لا يبدو أنهما قد أقنعتا البشر. هذا على الرغم من أن الأولى قد كلفت ثلاثة ملايين رجل وغزو كامل، في حين أن الثانية أدت إلى التقسيم وضرورة الاستنفار المستمر للجيوش. ثم حاولوا تجربة ثالثة أو بالأحرى مغامرة ثالثة منذ بضع سنوات، وسوف يحاولونها في المستقبل أيضاً. ولكي نجعل الجماهير تفهم أن الجيش الألماني الضخم لم يكن عبارة عن حرس وطني مسالم كما علمونا قبل عام (١٨٧٠) فإنه قد لزمنا أن ندفع الثمن غالياً ونخوض حرباً مرعبة[٢]. وسوف يلزمنا خوض تجارب مدمرة لكي نعترف بأن نظام الحماية يؤدي بالشعوب التي تعتمده إلى الإفلاس.

٤ ـ العقل

يمكن أن نعفي أنفسنا من ذكر العقل إذا ما عدّدنا العوامل القادرة على التأثير على روح الجماهير. ولكننا سنتحدث عنه كعامل سلبي لا كعامل إيجابي في التأثير.

كنا قد برهنا على أن الجماهير لا تتأثر بالمحاجات العقلانية، ولا تفهم إلا الروابط الشاذة أو الفظة بين الأفكار. ولهذا السبب فإن محركي الجماهير من الخطباء لا يتوجهون أبداً إلى عقلها وإنما إلى

عاطفتها. فقوانين المنطق العقلاني ليس لها أي تأثير عليها[٣]. فلكي نقنع الجماهير ينبغي أولاً أن نفهم العواطف الجياشة في صدورها، وأن نتظاهر بأننا نشاطرها إياها ثم نحاول بعدئذٍ أن نغيرها عن طريق إثارة بعض الصور المحرضة بواسطة الربط غير المنطقي أو البدائي بين الأشياء. وينبغي أن نعرف في كل لحظة كيف نتراجع، ثم ينبغي بشكل خاص أن نخمن في كل لحظة العواطف التي نولّدها. إن هذه الحاجة لتنويع الخطاب الموجَّه للجماهير طبقاً للأثر المتولد في اللحظة التي نتحدث فيها يمنع مسبقاً كل خطاب مدروس أو محضَّر بشكل جاهز. فالخطيب الذي يتبع فكره الخاص وليس فكر المستمعين يفقد بسبب ذلك وحده كل تأثير.

إن الناس المنطقيين المعتادين على سلسلة المحاجات العقلانية الصارمة نسبياً لا يستطيعون الإمتناع عن استخدام هذا النمط من الإقناع عندما يتوجهون إلى الجماهير. وهم يصابون بالدهشة والاستغراب دائماً لأن كلامهم لا يلقى أي صدى لدى الجماهير. يقول أحد المناطقة: «إن الإنعكاسات الرياضية المعتادة المرتكزة على القياس، أي على روابط التماثل والتشابه، هي ضرورية... فالضرورة تجبر حتى الجماهير غير المنظمة على القبول إذا كانت هذه الجماهير قادرة على فهم القياس أو الروابط بين أشياء متشابهة ومتماثلة». لا ريب في ذلك. ولكن الجماهير ليست قادرة على فهمها، مثلها في ذلك مثل الكتلة غير المنظمة، وليست قادرة على سماعها. ولكي تتيقنوا من صحة ذلك حاولوا أن تقنعوا الناس البدائيين أو المتوحشين أو الأطفال مثلاً بواسطة المحاجة العقلانية، وعندئذٍ سوف تتأكدون بأنفسكم من القيمة الضعيفة التي يمتلكها هذا النمط من المحاجة.

ولسنا بحاجة حتى إلى النزول إلى هذا المستوى من الناس البدائيين لكي نلمس بيدنا عجز المحاجات العقلانية الكامل عندما تقع في صدام مع العواطف والمشاعر. لنذكّر هنا فقط بمدى عناد واستمرارية الخرافات الدينية طيلة قرون وقرون على الرغم من تناقضها مع أبسط حدود المنطق. فخلال ألفي سنة تقريباً اضطرت أعظم

العبقريات للإنحناء أمام قوانينها، وقد لزمنا انتظار العصور الحديثة لكي يطعن في صحتها. لا ريب في أن العصور الوسطى وعصر النهضة قد شهدت مفكرين مستنيرين، ولكن أياً منهم لم ينبهه عقله إلى الجانب الطفولي لهذه الخرافات، أو شك لحظة واحدة بوجود الشيطان أو بالضرورة لحرق السحرة والمشعوذين.

والآن يطرح سؤالٌ نفسه: هل ينبغي أن نأسف لأن العقل لا يقود الجماهير؟ نحن لا نجرؤ على قول ذلك. لا ريب في أن العقل البشري قد فشل في زج البشرية على طرق الحضارة بكل تلك القوة والجرأة التي أثارته فيها أوهامه. وبما أن هذه الأوهام هي بنت اللاوعي الذي يقودنا ويحركنا، فربما كانت ضرورية. وكل عرق بشري يحمل في تكوينه العقلي أو الذهني قوانين مصيره، وربما كان يخضع لهذه القوانين بغريزة محتومة حتى في نزواته الأكثر عقلانية ظاهرياً. ويبدو أحياناً أن الشعوب خاضعة لقوى سرية مشابهة لتلك التي تجبر البلوطة للتحول إلى سنديانة، والمذنَّب إلى اتباع مداره.

والقليل الذي يمكن أن نفهمه عن هذه القوى ينبغي أن نبحث عنه في المسار العام لتطور شعب ما، وليس في الوقائع المعزولة التي يبدو أحياناً أن هذا التطور ينبثق عنها. وإذا لم نأخذ بعين الاعتبار إلا هذه الوقائع المعزولة، فإن التاريخ يبدو عندئذٍ بمثابة الصدف العبثية. فقد كان من المستحيل تخيله أن يصبح نجار جاهل من جبل الجليل في فلسطين إلها جبارا طيلة ألفي عام. وقد بنيت باسمه أكبر الحضارات. وكان من المستحيل تخيله أيضاً أن تستطيع بعض الزمر العربية الخارجة لتوها من الصحراء أن تحتل الجزء الأكبر من العالم اليوناني ـ الروماني القديم وتؤسس امبراطورية أكبر من امبراطورية الإسكندر. وكان من المستحيل تخيله في أوروبا العتيقة جداً ذات النظام المراتبي والهرمي الصارم أن ينجح ضابط مدفعية بسيط في السيطرة على عدد كبير من الشعوب والملوك. (أي نابليون).

لنترك إذن العقل للفلاسفة، ولكن ينبغي ألا نطلب منه ما لا يستطيع: أي أن يتدخل كثيراً في قيادة البشر وحكمهم. وليس بالعقل، بل غالباً ضده، أبدعت عواطف كعاطفة الشرف والتفاني والإيمان الديني وحب المجد والوطن. ومن المعروف أنها كانت حتى الآن تمثل أكبر البواعث التي تقف خلف تشييد الحضارات.

الفصل الثالث

محركو الجماهير، ووسائل الإقناع التي يمتلكونها

لقد أصبح التكوين العقلي للجماهير معروفاً لدينا الآن، وكذلك الأمر فيما يخص الدوافع التي تحركها وتؤثر عليها. بقي علينا أن نعرف الآن كيف ينبغي استخدام هذه الدوافع والمحركات ومن هو الذي يستطيع استخدامها بشكل ناجع وفعال.

١ ـ محركو الجماهير

ما إن يتجمع عدد ما من الكائنات الحية، سواء أكان الأمر يتعلق بقطيع من الحيوانات أو بجمهور من البشر، حتى يضعوا أنفسهم بشكل غريزي تحت سلطة زعيم ما، أي محرِّك للجماهير أو قائد.

ونلاحظ أن القائد يلعب دوراً ضخماً بالنسبة للجماهير البشرية. فإرادته تمثل النواة التي تتحلق حولها الآراء وتنصهر فيها. والجمهور عبارة عن قطيع لا يستطيع الإستغناء عن سيِّد.

والقائد كان غالباً في البداية شخصاً مقوداً منبهراً بالفكرة التي أصبح فيما بعد رسولها ومبشراً بها. فقد غزته وهيمنت عليه إلى حد اختفاء كل شيء آخر ما عداها، وكل رأي معاكس لها يبدو له خطأ وخزعبلات. نضرب على ذلك مثلاً روبسبيير المبهور بأفكاره الوهمية، والذي استخدم أساليب محاكم التفتيش من أجل نشرها.

إن القادة ليسوا في الغالب رجال فكر، ولا يمكنهم أن يكونوا، وإنما رجال ممارسة وانخراط. وهم قليلو الفطنة وغير بعيدي النظر.

فبعد النظر يقود عموماً إلى الشك وعدم الانخراط في الممارسة والعمل. ونحن نعثر عليهم عادة في صفوف المصابين بالعصاب، وفي صفوف المهتاجين وأنصاف المعتوهين الذين يقفون على حافة الجنون. وأياً تكن عبثية الفكرة التي يدافعون عنها أو عبثية الهدف الذي يطاردونه، فإن كل محاجة عقلانية تذوب وتتلاشى أمام قناعتهم الإيمانية والعاطفية. والاحتقار الذي يلقونه من الآخرين أو الإضطهاد لا يفعلان إلا أن يزيدا من إثارتهم وتهييجهم أكثر فأكثر. فهم مستعدون للتضحية بمصالحهم الشخصية وبعائلاتهم وبكل شيء إذا لزم الأمر. وحتى غريزة حب البقاء تمَّحي لديهم إلى درجة أن المكافأة الوحيدة التي يرجونها غالباً هي الإستشهاد. وكثافة الإيمان تعطي لكلامهم قوة تحريضية كبيرة. فالكثرة تصغي دائماً للإنسان المزوَّد بإرادة قوية. وبما أن الأفراد المتجمعين في الجمهور يفقدون كل إرادة فإنهم يتجهون غرائزياً نحو ذلك الشخص الذي يمتلكها.

والشعوب لم ينقصها أبداً قادة في التاريخ. ولكنهم لا يمتلكون جميعاً تلك القناعات القوية التي تصنع الرُسُل. فهؤلاء القادة هم غالباً عبارة عن خطباء ماهرين لا يفكرون إلا بمصالحهم الشخصية، وهم يحاولون إقناع الجماهير عن طريق دغدغة الغرائز الوضيعة. وبالتالي فإن النفوذ الذي يمارسونه على الناس يظل دائماً مؤقتاً وعابراً. أما المقتنعون الكبار بمبادئهم والذين استطاعوا التوصل إلى تحريك روح الجماهير وحماستها من أمثال بطرس الناسك ولوثر وسافونارول وقادة الثورة الفرنسية فهم لم يسحروا الجماهير ويبهروها إلا بعد أن كانوا هم بالذات قد سحروا بعقيدة ما أو بإيمان ما. وعندئذٍ استطاعوا أن يثيروا في النفوس تلك القوة الهائلة التي تدعى الإيمان، وهي القوة التي تجعل الإنسان عبداً مطلقاً لحلمه.

إن دور القادة الكبار يكمن في بثّ الإيمان سواء أكان هذا الإيمان دينياً أم سياسياً أم اجتماعياً. إنهم يخلقون الإيمان بعمل ما، أو بشخص ما، أو بفكرة ما. ومن بين كل القوى التي تمتلكها البشرية نجد أن الإيمان كان إحدى أهمها وأقواها. والانجيل على حق عندما يعزو

للإيمان قـوة قادرة على زحزحة الجبال. فـإذا ما تزود الإنسان بالإيمان تضاعفت قوته عشرات المرات. فغـالباً ما أنجـزت أحـداث التـاريخ الكبرى من قبل مؤمنين مجهـولين لا يمتلكون إلا إيمانهم الخـاص. والأديان التي حـكمت العالم والأمبراطوريـات الشاسعة الممتـدة من طرف العالم إلى طرفه لم تؤسس من قبل الأدباء والفلاسفة، ولا المتشككين بالطبـع.

ولكن مثل هذه الأمثلة لا تنطبق إلا عـلى القادة الكبـار، وهـؤلاء نـادرون جـداً إلى حـد أنه يمكن تعدادهم على مـدار التـاريخ. فهـم يشكلون القمة في سلسلة متواصلة ونـازلة مبتدئـة بالمتلاعب الكبير بعقول البشر ومنتهية بالعامل البسيط. أقصد بالعامل الموجود في نـزل مليءٍ بالدخنة، والذي يبهر ببطء زملاءه عن طريق تـكرار بعض العبارات التي لا يفهـمها على الإطلاق، ولكن التي يعتقد أن تطبيقها سوف يؤدي إلى تحـقيق كـل الأحـلام والآمـال.

وفي كـل الدوائر الإجتماعية من أعلاهـا إلى أسفلها نجـد أن الإنسان يقع تحـت سيطرة قائد ما إذا لم يكن معزولاً. ونجـد أن معظم الأفـراد، خـصوصاً في الجماهير الشعبية، لا يمتلكون، خارج دائرة اختصاصهم، آية فكرة واضحة ومعقلنة، وبالتـالي فهـم عاجـزون عن قيـادة أنفسهم بأنفسهم. وهنا يجيءُ القائد لكي يقودهم. ويمكن أن تحـل محلـه (ولكن بشكل نـاقص جـداً) تلـك المطبوعات الدورية التي تصنع الآراء لقرائها وتؤمن لهم جملاً وعبـارات جاهزة تعفيهم من عناء التفكير.

إن سلطة القادة استبدادية جـداً، ولا تتمكن من فرض نفسها إلا بـواسطة هذه الإستبدادية. وكنا قد لاحظنا مـدى السهولة التي يفرضون طاعتهم بهـا على الجماهير على الرغم من أنهم لا يمتلكون أي وسيلة لـدعم سلطتهم في الطبقات العمالية الأكثر شغباً. فهـم الذين يحـددون ساعات العمل، ويقـررون موعد الإضرابات، ويفرضون بدايتها ونهايتها كما يشاؤون.

ويميل قـادة الجماهير اليوم إلى أن يحـلوا تدريجياً محـل السلطات العامة كلما تركت هـذه الأخيرة نفسها عرضة للمجـادلة والإضعاف والنقض. ويستطيع هـؤلاء الأسيـاد الجـدد عن طريق طغيانهم أن يحصلوا من الجماهير على طاعة وانقياد أكبر بـكثير مما تحـصل عليه أي حـكومة. وإذا ما حـصل أن مات القائد بحـادث ما ولم يستبدل به فوراً فـإن الجمهور يتحـول إلى تجـمع بشري فقد تمـاسكه ومقاومته. ونضرب على ذلك مثلاً إضـراب سائقي الباصات في بـاريس، فقد كـان كافياً أن تقبض السلطات العامة على محركي الاضـراب لكي يتوقف فوراً. والشيء الـذي يهيمن على روح الجماهير ليس الحاجة إلى الحرية وإنما إلى العبودية. ذلك أن ظمأها للطاعة يجعلها تخـضع غرائزياً لمن يعلن بـأنه زعيمها.

ويمكننا تصنيف محـركي الجماهير وقادتها إلى فـئات متمايزة بما فيه الكفاية. فبعضهم رجـال نشطون ذوو إرادة قوية ولكن آنية ومؤقتـة. وبعضهم الآخـر أكثر نـدرة بـكثير، وهـم يمتلكون إرادة قوية ودائمة في آن معاً. والأولون يبدون عنيفين، شجعاناً، جـريئين. وهم يصلحـون بشكل خـاص لتوجيه ضربة خـاطفة، وجـر الجماهير إلى ما يـريدونه على الرغم من وجـود الخطر، ثم تحويل منهـكي الأمس إلى أبطال. نضرب على ذلك مثلاً ني ومورا[1] في ظـل الامبراطورية الأولى. ونضرب على ذلك مثـلاً في أيامنا هذه غاريبالدي، المغامر بـلا موهبة. ولكنه كان نشطاً وقد نجـح بمساعدة حفنـة من الرجـال في اقتحـام مملكة نـابلي القديمة على الرغم من دفاع جـيش قوي ومنظم عنها.

ولكن إذا كانت طاقة قادة كهـؤلاء ضخمة وجبـارة فـإنها تبقى آنية ومؤقتـة ولا يـمكن أن تعيش طويلاً بعد المحرِّض الـذي ولَّدها أو أثـارها. فبعد أن يعودوا إلى الحيـاة العادية نجـد الأبطال الـذين كانوا مشحونين بهذه الطاقة يبدون ضعفاً مدهشاً كأولئك الـذين استشهـدت بهم آنفاً. فهـم يبدون عاجـزين عن التفكير والتصرف النـاجح في الظروف الأكثر بساطة بعد أن كانوا قد عرفوا كـيف يقودون الآخـرين بـكل ذكاء. وهـؤلاء القادة لا يستطيعون ممارسة وظيفتهم إلا بشرط أن يكونوا مقودين أنفسهم

ومستشارين بـدون توقف، وبشرط أن يشعروا بوجـود رجـل فوق رأسهم باستمرار أو وجـود فكرة، وبشرط أن يتبعوا خـطاً في السلوك محـدداً تماماً.

أما الفئة الثانية من القادة والمتمثلة بالرجـال ذوي الإرادة الدائمة فـإنهم يمـارسون تـأثيراً أكبر بـكثير على الرغم من استخـدامهم لأساليب أقـل بهاء وإشراقاً. وفي صفوفهم نجـد المؤسسين الحقيقيين للأديان أو للمنجـزات الكبرى: كالقديس بـولس، ومحمد، وكريستوف كولومبس، وفرديناند دي ليسپـس. وسواء أكانوا أذكياء أم بليدين، فذلك لا يهم، لأن العالم سيكون دائماً لهـم. فالإرادة الدائمة التي يمتلكونها تمثل ملكة نـادرة جـداً جـداً، وجبـارة إلى أبعد حـد، وقـادرة على أن تخضـع كـل شيء. ومهمـا فعلنـا فـلن نعرف بما فيه الكفاية مـدى طاقة وإمكانيـات الإرادة القوية والمستمرة. فـلا شيء يستطيع مقاومتهـا أو الوقوف في وجهها: لا الطبيعة، ولا الآلهـة، ولا البشر.

وآخـر مثـال على هـؤلاء الرجـال العظام جسَّده لنا ذلك المهندس الـذي فصل بين عالمين وحـقق المهمة التي حـاول الملوك العظام تحقيقها طيلة ثلاثة آلاف عام، ولكـن دون جـدوى. وقد فشل فيما بعد في مهمة مماثلة، ولكـنه كان قد شاخ، وكـل شيء ينطفىء مع الشيخوخة بما فيها الإرادة. (المقصود فرديناند دي ليسپـس وشق قناة السويس).

ولكي نبرهن على مـدى إمكانيات الإرادة وقدرتها، فـإنه يـكفي أن نستعرض بالتفاصيل قصة الصعوبات التي تم التغلُّب عليها أثناء شق قناة السويس. فشاهد العيان، الدكتور كازاليس، لخـص لنا ببضعة أسطر مؤثـرة قصة هذا الإنجـاز الكبير محكية من قبل منجـزه الخالد. قـال: «وقصَّ علينا حـلقات هذه الملحـمة يوما بيوم. قـص علينا حكايـة الصعوبات التي تغلَّب عليها، وكـل المستحـيل الذي جعله ممكناً، وكـل العراقيل والتحـالفات التي عقـدت ضـده، وكـل الخيبات والتراجعـات والهزائم التي لم تستطع تثبيط همته أو إحـباطه. وقد تحـدث لنا عن إنكلترا ومحـاربتها له وهجومها عليه باستمـرار. ثم تحـدث عن مصر وفرنسا المترددة، وقـال بـأن قنصل فرنسا قد عارض أكثر من أي شخص

آخـر أعمال الحفر الأولى، ولما قاومناه ضغط على العمال العطشانين ومنع عنهم الماء العـذب. ثم تحـدث لنا عن وزير البحرية والمهندسين وكـل الرجـال المجربين والجـادين المعادين بالطبع للمشروع. فقد كانوا كـلهم مقتنعين بفشله علمياً فشلاً ساحـقاً. وقد حسبوا مـجيء هذا الفشل باليوم والساعة».

إن الكتـاب الـذي يتحـدث عن هذه الفئة من القادة العظام سوف يحـتوي على عدد قليل من الأسماء .ولكـن هذه الأسماء كـانت على رأس الأحـداث الأكثر أهـمية للحضارة والتـاريخ.

٢ ـ وسائل العمل التي يستخدمها المحركون أو القادة: التأكيد، التكرار، العدوى

عندما يتعلق الأمر بقيادة جمهور ما للحظة معينة وحـثه على ارتكاب عمل ما كأن ينهـب قصراً، أو يدافع عن متـراس ويتعرض للمجـزرة بسببه، فـإنه ينبغي أن نؤثر عليه بـواسطة محرضات سريعة. وأكثرها قـدرة على الفعل والتأثير هو النموذج والقدوة أيضاً. ذلك أنه ينبغي تهيئة الجمهور عن طريق بعض الظروف الخـاصة. كما وينبغي على الشخص الـذي يريد قيادتها أن يمتلك تـلك الميزة التي سأدرسها بعد قليل تحـت اسم: الهيبة الشخصية.

وعندما نـريد أن ندخل الأفكـار والعقائد ببطء إلى روح الجماهير (كـأن ندخل النظريات الاجتماعية الحـديثة مثلاً) فـإننا نجـد أن أساليب القادة تخـتلف. فهـم يلجأون بشكل أساسي إلى الأساليب الثلاثة التـالية: أسلوب التأكيد، وأسلوب التكرار، وأسلوب العدوى. لا ريب في أن تأثيرها بطيء، ولكـنه دائم.

إن التأكيد المجـرد والعاري من كل محاجة عقلانية أو برهانية يشكل الوسيلة الموثوقة لإدخـال فكرة ما في روح الجماهير. وكلما كان التأكيد قاطعاً وخـالياً من كـل برهان كلما فرض نفسه بهيبة أكبر. فالكتب الدينية وقوانين كـل العصور قد استخـدمت دائماً أسلوب التوكيد المجـرد

عن كـل شيء. ورجـال الدولة المدعـوون للدفاع عن قضية سياسية معينة يعرفون قيمة التوكيد، وكذلك الأمر فيما يخـص رجـال الصناعة الـذين ينشرون سلعهم عن طريق الإعلان.

ولكـن الإعلان لا يكتسب تأثيرا فعليا إلا بشرط تكراره باستمرار، وبنـفس الكلمات والصياغات مـا أمكن ذلك. كان نـابليون يقول بـأنه لا يوجـد إلا شكلٌ واحـدٌ جـادٌ من أشكال البلاغة هـو: التكـرار. فالشيء المؤكد يتوصل عن طريق التكرار إلى الرسوخ في النفوس إلى درجة أنه يُقبَل كحقيقة برهانية.

ويمكن أن نفهم جيـداً تأثير التكرار على الجماهير عندما ننظر إلى الهيبة التي يمارسها على الشخصيات الأكثر إستنـارة. فعندما نـكرر الشيء مـراراً وتكـراراً ينتهي به الأمر إلى الإنغـراس في تـلك الزوايا العميقة للاوعي حـيث تصنع دوافع كـل أعمالنا. فبعد أن تمـر فتـرة من الزمن ننسى من هو مؤلف القـول المكـرر وينتهي بنا الأمر إلى حـد الإيمان به. وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نفهـم القوة الهائلة للإعـلان. فعندما نقـرأ مائة مـرة أن أفضل أنـواعِ الشوكولاته هو نـوع (س) مثلاً، فـإننا نتخيل أننا قد سمعنا بـذلك كـثيراً وينتهي بنـا الأمر إلى الاقتنـاع به كحقيقة يقينية. وبعد أن نسمع ألف مزعم عن فضائـل الطحين (ع) مثـلاً وأنه قد شفى أكبر الشخصيـات من أعتى أنـواع الأمراض، فـإننا نصبح ميـالين إلى استخـدامه عندما نصـاب بمـرض مماثل. ومن كـثرة ما يـكررون في نفس الصحيفة أن (أ) هو وغدٌ حـقير وأن (ب) هو رجـل نبيل وشريف فـإن الأمر ينتهي بنا إلى تصديق ذلك ما دمنا لم نقـرأ صحيفة أخـرى ذات رأي مضـاد تماماً للأول. إن التأكيد والتكـرار هما من القوة بحـيث يقـدران على محـاربة بعضهما البعض.

وعندما يتاح لتوكيد ما أن يكرَّر بما فيه الكفاية، وأن يـكرر بالإجـماع، كما يحصـل ذلك لبعض الشركات المصرفية التي تشتري كل المبـاريات أو المسابقـات فـإنه يتشكل عندئذٍ ما نـدعوه بتيـار الرأي العام. وعندئذٍ تتدخـل الآلية الجبـارة للعدوى وتفعل فعلها. وفي

الجماهير نجد أن الأفكار والعواطف والانفعالات والعقائد الإيمانية تمتلك سلطة عدوى بنفس قوة وكثافة سلطة الجراثيم. ويمكننا أن نلاحظ هذه الظاهرة لدى الحيوانات نفسها، وذلك عندما تتجمع على هيئة جمهور. فصهال حصان في اسطبل ما سرعان ما يعقبه صهال الأحصنة الأخرى في نفس الاسطبل. وأي خوف أو حركة مضطربة ما تصيب بعض الخِراف سرعان ما تنتقل إلى بقية القطيع. وعدوى الإنفعالات هي التي تفسر لنا سر تلكَ المباغتة والمفاجأة لظاهرة الهلع والخوف. والإضطرابات العصبية، كالجنون مثلاً، تنتشر أيضاً بواسطة العدوى. ونحن نعرف مدى انتشار الجنون لدى الأطباء النفسانيين. بل ويذكرون أن بعض أنواع الجنون (كالخوف المرضي من الأرض الخلاء) تنتقل من الإنسان إلى الحيوان بواسطة العدوى.

والعدوى لا تتطلب الحضور المتزامن للأفراد في نقطة واحدة. بل يمكن أن تنتشر على البعد بتأثير من بعض الأحداث التى توجه النفوس في نفس الاتجاه وتخلع على الجماهير ميزاتها الخاصة، وبخاصة إذا كانت مهيأة لذلك عن طريق العوامل البعيدة التي درستها سابقاً. نضرب على ذلك مثلاً الإنفجار الثوري الذي حصل في فرنسا عام (١٨٤٨). فقد انطلق من باريس وامتد فجأة لكي يشمل جزءاً كبيراً من أوروبا ويزعزع العديد من الأنظمة الملكية[٢].

والتقليد الذي تعزى إليه تأثيرات كثيرة في الظواهر الاجتماعية ليس في الواقع إلا مجرد أثر من آثار العدوى. ولما كنت قد شرحت دوره في مكان آخر فإني سأكتفي هنا بنقل ما كنت قد قلته منذ زمن طويل والذي كان قد وسع وزيد من قبل كتاب آخرين فيما بعد. قلت ما يلي:

«إن الإنسان يشبه الحيوانات فيما يخص ظاهرة التقليد. فالتقليد يشكل حاجة بالنسبة له بشرط أن يكون هذا التقليد سهلاً بالطبع. ومن هذه الحاجة بالذات يتولد تأثير الموضة (أو الأزياء الدارجة). وسواء أكان الأمر يتعلق بالآراء أم بالأفكار أم بالتظاهرات الأدبية أم بالأزياء بكل بساطة فكم هو عدد الذين يستطيعون التخلص من تأثيره؟ فنحن

نستطيع قيادة الجماهير بواسطة النماذج والموديلات وليس بواسطة المحاجات العقلانية. وفي كل فترة نلاحظ أن عدداً قليلاً من الشخصيات هي التي تطبعها بطابعها وتؤثر عليها، ثم تقلدهم الجماهير اللاواعية. ولكن لا ينبغي على هذه الشخصيات أن تنحرف كثيراً عن الأفكار الشائعة أو السائدة في عصرها. ذلك أن تقليدها عندئذٍ يصبح صعباً جداً، وتأثيرها معدوماً. ولهذا السبب بالذات فإن الأشخاص المتفوقين جداً في عصرهم ليس لهم أي تأثير عليه. ذلك أن المسافة بينهم وبين معاصريهم ضخمة أكثر مما يجب. ولهذا السبب بالذات فإن الأوروبيين لا يستطيعون ممارسة أي تأثير على شعوب الشرق على الرغم من كل الميزات والإمتيازات التي تتمتع بها حضارتهم.

قلت في كتاب سابق:

«إن التأثير المزدوج للماضي والتقليد المتبادل يؤديان في نهاية المطاف إلى جعل كل البشر التابعين لنفس البلد ونفس الفترة متشابهين إلى درجة أنه حتى أولئك الذين يتوقع منهم أن يفلتوا من هذا التشابه كالفلاسفة والعلماء والأدباء يبدون متشابهين في أسلوبهم ومطبوعين بطابع الفترة التي ينتمون إليها. ويكفي أن نتناقش مع فرد ما مرة واحدة لكي نعرف عمقياً نوعية القراءات التي تؤثر عليه، وكذلك همومه المعتادة والبيئة التي يعيش فيها»[٣].

إن العدوى من القوة بحيث إنها تفرض على البشر ليس فقط بعض الآراء وإنما أيضاً بعض الطرق في الإحساس والشعور. فهي التي تجعل الناس يحتقرون في فترة ما عملاً أدبياً ما (كالتانهوسير مثلاً)، وهي التي تجعلهم بعد بضع سنوات يعجبون بنفس العمل، هم الذين كانوا قد تنكروا له واحتقروه.

وهكذا تنتشر الآراء والعقائد بواسطة آلية العدوى وليس بواسطة المحاجة العقلانية إلا في القليل النادر. والأفكار الحالية للعمال وتصوراتهم تتبلور في الحانات التي يلتقون فيها. وعقائد الجماهير في كل العصور تتبلور دائماً بهذه الطريقة. إن رينان يقارن بحق المؤسسين

الأوائل للمسيحية «بـأولئك العمال الإشتراكيين الـذين ينشرون أفكارهم من حـانة إلى حـانة». وكـان فولتير قد لاحـظ فيما يخـص الـدين المسيحي أن «أنذل الأوغاد هم وحـدهم الـذين اعتنقوه طيلة أكثر من مائة عام».

وفي الأمثلة المشابهة لتلك التي ضربتها نجـد أن العدوى بعد أن تكون قد انتشرت في الطبقات الشعبية تنتقل إلى الطبقات العليا من المجتمع. هـكذا نجـد مثلاً في أيامنا هذه أن الأفكار الإشتراكية قد أخـذت تصل إلى من سيكونون ضحايـاها الأول. ذلك أنه أمـام آليّة العـدوى فـإن المصلحة الشخصية نفسها تضمحل وتتلاشى.

ولهـذا السبب فـإن كـل فكرة أتيح لها أن تصبح شعبية تفرض نفسها على الطبقات الاجتماعية العليا حـتى ولو كانت عبثية هـذه الفكرة المنتصرة واضحة للعيـان. وهـذا التأثير الـذي تمارسه الطبقات الاجتماعية الدنيا على الطبقات العليا غريب فعلاً. نقول ذلك وخـصوصاً أن عقائد الجمهور متفرعة قـليلاً أو كثيراً وبشكل دائم عن فـكرة عليا معينة ظلت غالباً دون أي تأثير على الوسط الـذي ولدت فيه لأول مـرة. وهذه الفكرة العليا يستولي عليها القادة المسحورون بها ثم ينشرونها بشكل مشوّه أكثر فأكثر في أوساط الجماهير. وبعد أن تصبح فـكرة شعبية فـإنها تعود بشكل من الأشكال إلى منبعها الأول ثم تؤثـر من جـديد على الطبقات العليا في أمة من الأمم. وفي نهاية المطاف يمكن القول بـأن الذكاء هـو الـذي يقود العالم، ولكنه يقـوده من بعيد فعـلاً، أي بعد وقـت طويل. فالفلاسفة الخلاقـون للأفكـار لا تنتصر أفكـارهم إلا بعد موتهم وتحـوُّل أجسادهم إلى غبـار منذ زمن طويل. إنها تنتصر عن طريق الآليـات التي كنت قد شرحتها آنفـاً.

٣ ـ الهيبة الشخصية

إذا كـانت الآراء المنتشرة عن طريـق التأكيد والتكرار والعدوى تمتلك قـوة كـبيرة، فـذلك لأنها تمتلك تـلك القوة السرية المدعوة بالهيبة أو الإحـترام.

وكل ما هيمن في العالم، من أفكـار أو بشر، فرض نفسه أساساً عن طريق القوة التي تعبر عنها كلمة هيبة. ونحـن نعرف جميعاً معنى هذه الكلمة، ولكنهم يطبقونها بـأشكال مختلفة جـداً. وبالتـالي فليس من السهل تحديدها بـدقة. والهيبة يمكنها أن تشتمل على بعض العواطف كالإعجـاب والخـوف. وهما يشكلان أحياناً أساسها وقاعدتها. ولكن يمكنها أن تنوجد بـدونهما. والدليل على ذلك أن بعض الأشخـاص الموتى كالإسكندر المقدوني والقيصر ومحـمد وبوذا لا يـزالون يحظون حـتى الآن بهيبة كـبيرة على الرغم من أننا لم نعد نخشاهم.

في الواقع إن الهيبة هي عبارة عن نـوع من الجاذبية التي يمـارسها فردٌ ما على روحـنا، أو يمـارسها عمل أدبي ما أو عقيدة مـا. وهذه الجاذبية الساحـرة تشلّ كل ملكاتنا النقدية وتملأ روحنا بالدهشة والاحـترام. والعواطف المثـارة على هـذا النحـو لا يمكن تفسيرها ككل العواطف. ولكن ربما كانت من نـفس نوع التحريض الـذي يصيب شخصاً ممغنطاً (أي مصاباً بالمغناطيس). إن الهيبة هي أساس كل هيمنة. فالآلهـة والملوك والنساء ما كان ممكناً أن تسيطر لولاها.

ويمكننا أن نعيد الأنواع المختلفة من الهيبة إلى نوعين أساسيين هما: الهيبة المكتسبة والهيبة الذاتية أو الشخصية. فالهيبة المكتسبة هي تـلك التي تجـيء عن طريق الإسم (اسم العائلة) والثروة والشهرة. ويمكنها أن تـكون مستقلة عن الهيبة الشخصية. فالهيبة الشخصية تشكل، على العكس، شيئاً فردياً متعايشاً أحياناً مع الشهرة والمجـد والثروة أو مدعوماً من قبلها، ولكنه قادر تماماً على التواجـد بشكل مستقل.

إن الهيبة المكتسبة أو الاصطناعية أكثر انتشاراً بـكثير. فيكفي أن يحـتل فردٌ ما منصباً معيناً أو يمتلك ثروة ما أو يتزيّا ببعض الألقـاب حـتى يصبح مكلَّلاً بهالة الهيبة أياً تـكن قيمته الشخصية منعدمة أو منحـطة. فالضابط الـذي يلبس بزته العسكرية والقاضي المتلفع بردائه الأحـمر لهما دائماً هيبة. كان باسكال قد لاحـظ بحـق مـدى حاجة القضاة للرداء والشعر المستعار. فبدونهما يفقـدون جـزءاً كـبيراً من هـيبتهم. فحـتى

الاشتراكي الأكثر حماسة للاشتراكية يشعر بالتأثر والإنفعال لرؤية أمير ما أو مركيز. وألقاب كهذه كافية لأن تبتز من تاجر ما كل ما تريد(٤).

إن الهيبة التي أثرتها آنفاً ممارسة من قبل الأشخاص، أي الأفراد. ويمكننا أن نتحدث أيضاً عن الهيبة التي تمارسها الأفكار الكبرى أو الأعمال الأدبية والفنية، إلخ. وهي في الغالب ليست إلا تكراراً متراكماً. إن التاريخ، والتاريخ الأدبي والفني بشكل خاص، هو فقط عبارة عن تكرار لنفس الأحكام التي لا يبحث أي شخص عن مجرد التحقق منها. فكل واحد ينتهي به الأمر إلى تكرار ما سمعه في المدرسة. وتوجد بعض الأسماء وبعض الأشخاص التي لا يجرؤ أحد على المسّ بها أو بهم. اضرب على ذلك مثلاً أعمال هوميروس. فهي مضجرة جداً بالنسبة للقارىء الحديث ولكن من يجرؤ على قول ذلك؟ وقصر البارتينون مثلاً ليس في حالته الراهنة إلا أنقاضاً خالية من أية أهمية، ولكنه يمتلك هيبة عالية إلى درجة أننا لم نعد نراه إلا من خلال موكب الذكريات التاريخية التي ترافقه. والخاصية الأساسية للهيبة هي أننا لا نعود نرى الأشياء كما هي عليه في الواقع، فتنشلّ بذلك قدرتنا على المحاكمة والتقييم. فالجماهير بحاجة دائماً إلى الأفكار الجاهزة، وكذلك الأفراد بحاجة إليها في الغالب. ونجاح هذه الأفكار مستقل عن جزء الحقيقة أو الخطأ الذي تحتوي عليه. إنه يكمن فقط في هيبتها وحظوتها.

والآن، بعد كلٍ ما قلته سابقاً، أصل إلى الهيبة الشخصية. فهي من طبيعة مختلفة جداً عن الهيبة الإصطناعية أو المكتسبة، وتشكل ملكة مستقلة عن كل لقب أو كل سلطة. والعدد القليل من الأشخاص الذين يمتلكونها يمارسون سحراً مغناطيسياً حقيقياً على أولئك الذين يحيطون بهم بمن فيهم أندادهم. فهم يطيعونهم طاعة عمياء كما تطيع الدابة المتوحشة مروِّضها على الرغم من أنها تستطيع أن تفترسه بكل سهولة.

إن قادة البشر الكبار من أمثال بوذا والمسيح ومحمد وجان دارك

ونابليون يمتلكون هذا النوع من الهيبة الشخصية في أعلى درجاتها. وعن طريقها بالذات استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم. فالآلهـة والأبطال والعقائد تفرض نفسها فرضاً ولا تناقش. بـل إنها تتلاشى مبـاشرة ما أن نناقشها.

والأشخـاص الـذين ذكرتهم قبل قليل كانوا يمتلكون قدرتهم الجبـارة على الجـذب قبل أن يصبحوا مشهورين بزمن طويل، وما كان بالإمكان أن يصبحوا مشهورين بـدونها. فمثلاً كان نـابليون في ذروة مجـده يمتلك بواسطة قوته وحـدها هيبة شخصية هائلة. ولكنه كان يمتلك جزئياً هذه الهيبة منذ بداية مهنته. فعندما كان جـنرالاً مهملاً أو متجاهَـلاً وأُرسل، من أجل حمايته لقيادة الجيش، في حملة إيطاليا فإنه سقط في أحضان جنرالات فظّين وأقوياء مستعدين لسحق هـذا الدخيل الشاب الـذي كانت القيادة قد أرسلته إليهـم. ولكن منذ اللحظة الأولى أو منذ اللقاء الأول وبـدون أن ينطق كلمة واحـدة أو يقوم بأي حركة أو تهديد، باختصـار منذ النظرة الأولى لرجل المستقبل العظيم سقطوا تحت سحر هيبته وروَّضهـم. وقد قـدم لنا الفيلسوف «تين» رواية مشوقة عن هذا اللقاء الأول بحـسب شهادات المعاصـرين له. قـال:

«من بين جنرالات الفرقة العسكرية كان يوجـد جنرال اسمه أوغيرو، وهو رجـل مرتزق بشكل بطولي ومبتذل. وكـان فخـوراً بقامته العالية وشجاعته. وقد وصـل الجنرالات إلى المقر العام للقيادة بنفسيـة غير راضية عن هذا الإنتهـازي الصغير الـذي أرسل لهـم من بـاريس (أي نابليون). وبحـسب الوصف الذي كان قد وصلهم عنه فـإن أوغيرو كان شتَّاماً ومحـباً للعصيان بشكل مسبق. كانوا يقولون بـأنه الأثير لـدى باراس، وأنه أحـد الجنرالات الـذين خاضـوا معارك منطقة الدانـوب في غرب فرنسا، وأنه جنرال شوارع، وينظر إليه كالـدب لأنه يفـكر دائماً في وحـدته، وأنه ذو هيـأة صغيرة، وأنه مشهور بعقل رياضي وحالـم في آن. ثـم أدخـلوهم عليه وتركهم نـابليون ينتظرون فترة طويلة قبل أن يستقبلهم. ثم ظهـر أخيراً وهو مزنَّر بسيفه، ثم لبس رداءه، وشرح مواقفه، وأعطاهم الأوامر وصرفهم. وقد دهش أغيرو إلى حـد أنه بقي صامتاً لا ينبس ببنت شفة. ولم يصحُ من صدمته إلا بعد أن خـرج حيث

عاد إلى طبيعته العادية. واتفق مع ماسينا على القول بـأن هذا البونـابرت الصغير قد أخـافه، ولم يفهم سر الرهبة التي سيطرت عليه من أول نظرة».

وبعد أن أصبح نابليون رجـلاً عظيماً فـإن هيبته قد زادت بسبب قـوة مجـده ووصل إلى حـد الألوهة بالنسبة للمتشيِّعين والأنصـار. وكـان الجنرال فانـدام، المرتزق الثوري، أكثـر فظاظة وقـوة من الجنرال أوغيرو. وقد قـال عن نـابليون للجنرال دورنانو في يـوم من أيام (١٨١٥) وكانا يصعـدان سوية درج قصر التويلري:

«يـا عزيزي، إن هـذا الشيطان الصغير يمـارس عليّ سحراً وجـاذبية لا أستطيع أن أفهـم سرهما. فأنا الـذي لا يخشى الإله ولا الشيطان يصـل بي الأمر إلى حـد أني أرتجـف كطفل عندما أقترب منه. ويستطيع أن يسلكني في ثقب الإبرة ويرميني في النـار دون أن أحـرك ساكناً».

وكان نابليون يمارس نفس التأثير والجاذبية على كل من يقتربون منه(٥).

كان دافو يقول متحـدثاً عن إخـلاص ماريه وإخـلاصه هو للامبراطور: «لو أن الإمبراطور قـال لنا كلينا: من المهم لمصلحة سياستي أن أدمر بـاريس بأهلها دون أن يخرج منها أحـد لكنت واثقاً من أن ماريه سيحفظ السر، ولكنه لن يستطيع منع نفسه من إفشائه عن طريق إخـراج عائلته. أما أنا فـإني مستعد لترك زوجتي وأطفالي فيها خوفاً من أن يـذاع السر!».

وهـذه القدرة الجبارة للجاذبية الشخصية تفسر لنا سر تـلك العودة الرائعة لنابليون من جـزيرة إيلب. كما وتفسر لنا سر فتح فرنسا المبـاشر من قبل رجـل معزول يناضل ضـد كـل القوى النظامية والمنظمة لبلد كـبير كناقد اعتقدنا أنه قد مـلّ من طغيـان نابليون. ويـكفي أن ننظر إلى الجنرالات الـذين أرسلوا للقبض عليه. فعندما وصلوا إلى هنـاك تراجعوا وخـضعوا له دون مناقشة.

كـتب الجنرال الإنكليزي ولسلي يقول: لقد نـزل نابليون على شواطىء فرنسا وحيداً تقريباً. وكان قادماً كالهارب من جزيرة إيلب الصغيرة التي كانت تشكل مملكته. ونجـح في بضعة أسابيع في قـلب كـل جهـاز السلطة في فرنسا الواقع تحـت حـكم ملكها الشرعي وذلك دون أن يسفك قطرة دم واحـدة. فهـل يمكن لصعود رجـل في سلم المجـد أن يبدو أكثر إدهاشاً من ذلك؟ ولكن من أول حملته الأخيرة هذه إلى آخـرها فـإنه يمكننا أن نتساءل: كم هو عجيب ورائع ذلك النفوذ الساحر الـذي كان يمارسه أيضاً على الحلفاء مجـبراً إياهم على اتباع مبـادرته وكـيف أنه كاد أن يسحقهـم؟

وقد عاشت هيبته بعده واستمرت في الكبر والازدياد. فهـو الـذي أدى إلى سيامة ابن أخيه المجهـول سابقاً كإمبـراطور لفرنسا. ونحـن إذ نشهد اليوم انبعـاث اسطورته من جـديد فـإننا نلاحـظ مـدى الضخامة التي لا يـزال يتمتع بها ذلك الظل الكـبير. ذلك أنه يمكنك أن تذل النـاس وأن توقع فيهـم المجـازر بالملايين وأن تقود غزواً وراء غـزو، كـل شيء مبـاح لك بشرط أن تملك الهيبة الشخصية والموهبة القادرة على الحفاظ عليها.

لقد تحـدثت عن مثـال للهيبة الشخصية أكثر من استثنائي: نـابليون. ولكن ذلك كان ضرورياً ومفيداً من أجـل أن نفهم منشأ الأديان الكبرى والعقائد الكبرى والإمبراطوريات الكبرى. ولولا قـوة الجاذبية الممارسة على الجماهير من قبل الهيبة الشخصية لما كان هذا المنشأ مفهوماً أو قابلاً للفهم.

ولكـن الهيبة لا ترتكز فقط على النفوذ الشخصي والمجـد العسكري والإرهـاب الديني. فيمكنها أن تعتمد على أصـول، أكثر تواضعاً، وتـكون ضخمة أيضاً. وهـذا القرن الـذي نعيش فيه يـقدم لنا أمثلة عديدة على ذلك. وأحـدها سوف تـذكره البشرية القادمة جيـلاً بعد جـيل، وهو قصة ذلك الرجل الذي تحـدثنا عنه قبل قليل والذي غيَّر وجـه الكرة الأرضية والعلاقات التجارية للشعوب عن طريق الفصل بين قارتين.

(فرديناند دي ليسبس). وقد نجح في مشروعه هذا بواسطة إرادته الضخمة بالتأكيد، ولكن بواسطة شيء آخر أيضاً هو قوة السحر والجاذبية التي يمارسها على كل محيطه وحاشيته. ولكي يتغلب على المعارضة الاجماعية ضده كان يكفيه أن يظهر على الملأ وأن يتحدث للحظة واحدة، وعندئذٍ يصبح المعارضون أصدقاء تحت تأثير سحره وجاذبيته. وكان الإنكليز بشكل خاص يحاربون مشروعه بضراوة. ولكن ذهابه إلى إنكلترا كان كافياً لإقناع الجميع بصحة مشروعه. وعندما مر بعدئذٍ بمدينة ساوثمبتون راحت الأجراس تقرع على طريق مروره ترحيباً به. وبعد أن تغلب على كل شيء، من بشر وأشياء، لم يعد يعتقد بوجود أي عقبة قادرة على إيقافه. فبعد شق قناة السويس راح يفكر بشق قناة باناما بنفس الوسائل. ولكن الإيمان الذي يزحزح الجبال لا يزحزحها إلا بشرط ألا تكون عالية أكثر مما ينبغي. فقد قاومت الجبال، وجاءت الكارثة التي دمرت هالة المجد المحيطة بالبطل. وحياته تقدم لنا مثلا ساطعا على كيفية نمو الهيبة الشخصية وتضخمها ثم انهيارها. فبعد أن ساوى في العظمة أكبر الشخصيات التاريخية فإنه قد خفض من قبل قضاة بلاده إلى مستوى أخس المجرمين. ومر نعشه وحيداً في وسط الجماهير اللامبالية. وحدهم الملوك الأجانب احتفلوا به وحيُّوا ذكراه[٦].

ولكن الأمثلة المختلفة التي ذكرناها آنفاً تمثل أمثلة متطرفة. فلكي ندرس تفصيلاً وبشكل نفساني ظاهرة الهيبة، فإنه ينبغي علينا أن نتفحص سلسلتها الطويلة منذ مؤسسي الأديان والامبراطوريات وانتهاء بظاهرة الفرد العادي الذي يريد أن يبهر جيرانه بلباسه الجديد أو بالأوسمة التي يعلقها على صدره.

وما بين هذين الحدين المتطرفين للسلسلة تتموضع كل أشكال الهيبة المتواجدة ضمن العناصر المختلفة لحضارة ما: نقصد العلوم، والفنون، والأدب، إلخ... وإذا ما درسناها جميعاً وجدنا أن الهيبة تشكل العنصر الأساسي للإقناع. فالشخص أو الفكرة أو الشيء الذي يمتلك الهيبة يقلَّد عن طريق العدوى ويفرض على جيل بأكمله بعض

أشكال الإحساس وترجمة الفكر. والواقع أن التقليد هو في الأغلب الأعم لا واع ، وهذا هو بالضبط الشيء الذي يجعله كاملاً. فالرسامون المحدثون الذين يقلدون الألوان الباهتة لبعض البدائيين ومواقفهم المتصلبة لا يشكّون مطلقاً بمصدر إلهامهم. فهم مؤمنون بأنهم صادقون في تجربتهم. ولولا أن أحد العلماء الكبار لم يكشف عن هذا النوع من الفن لاستمرينا في النظر إليه من خلال جوانبه الساذجة والمتدنية. وأما أولئك الذين يقلدون المشاهير من المجددين ويغرقون لوحاتهم بالظلال البنفسجية فإنهم لا يرون في الطبيعة ألواناً بنفسجية أكثر مما كان موجوداً قبل خمسين سنة، ولكنهم محرَّضون على ذلك من قبل الانطباع الشخصي والخصوصي لفنان عرف كيف يكتسب هيبة وشهرة كبيرة.

وفي كل عنصر من عناصر الحضارة يمكننا أن نجد أمثلة مشابهة لذلك.

نرى فيما سبق أن هناك عوامل عديدة يمكنها أن تلعب دوراً في تشكيل الهيبة الشخصية. والنجاح كان دائماً أحد أهم هذه العوامل. فالإنسان الذي ينجح والفكرة التي تفرض نفسها لا يعود أحد قادراً على معارضتهما بسبب هذا النجاح بالذات.

فالهيبة الشخصية تختفي دائماً مع الفشل. فالبطل الذي صفقت له الجماهير بالأمس قد تحتقره علناً في الغد إذا ما أدار الحظ له ظهره. بل إن رد فعلها ضده يكون عنيفاً بقدر ما كان احترامها له كبيراً. وعندئذٍ تنظر الكثرة للبطل الذي سقط كنظير لها وتنتقم منه لأنها كانت قد انحنت أمامه وأمام تفوقه المزعوم الذي لم تعد تعترف به. فروبسبيير الذي أمر بقطع رؤوس زملائه وعدد كبير من معاصريه كان يمتلك هيبة شخصية ضخمة. وعندما نقصته بعض الأصوات فقط فقد رأسه هو الآخر وتبعته الجماهير إلى المقصلة بنفس اللعنات التي لاحقت بها ضحاياه بالأمس. فالمؤمنون يحطمون دائماً بنوع من الهيجان تماثيل آلهتهم السابقة.

والهيبة الشخصية التي تنتزع بالفشل تفقد بسرعة. ويمكن أن تتلف أيضاً بالمناقشة والمجادلة، ولكن بطريقة أكثر بطئاً. ولكن هذه العملية تولِّد تأثيراً مؤكداً. فالهيبة التي تصبح عرضة للنقاش لا تعود هيبة. فالآلهة والأشخاص الذين عرفوا المحافظة على هيبتهم لم يسمحوا أبداً بالمناقشة. فلكي تعجب بهم الجماهير وتعبدهم ينبغي دائماً إقامة مسافة بينها وبينهم.

الفصل الرابع

محدودية تغيّر كل من عقائد الجماهير وآرائها

١ ـ العقائد الثابتة

هناك تشابه وثيق بين الخصائص التشريحية للكائنات وخصائصها النفسية. وفي الخصائص التشريحية نجد بعض العناصر الثابتة أو القليلة التغير جداً إلى حد أنه تلزمنا مدة العصور الجيولوجية لكي نغيرها. وبالإضافة إلى هذه الخصائص الثابتة التي لا تختزل توجد خصائص أخرى متحركة جداً تعدلها أحياناً البيئة ومهارة مربي الحيوانات أو النباتات إلى درجة انهما تخفيان خصائصها الأساسية حتى بالنسبة لعين المراقب اليقظ.

ونلاحظ نفس الظاهرة بالنسبة للخصائص الأخلاقية. فبالإضافة إلى العناصر النفسية الراسخة لعرق بشري ما توجد عناصر متحركة ومتغيرة. ولهذا السبب فإننا عندما ندرس عقائد شعب ما وآراءه فإننا نلاحظ دائماً وجود أرضية ثابتة جداً. وعليها تنضاف آراء متحركة تحرك الرمل الذي يغطي الصخور.

هكذا نجد أن عقائد الجماهير وآراءها تشكل طبقتين متمايزتين تماماً. فمن جهة نجد العقائد الإيمانية الكبرى والدائمة التي تدوم قروناً عديدة والتي ترتكز عليها حضارة بأكملها. نضرب على ذلك مثلاً في الماضي التصور الخاص بالنظام الإقطاعي، ثم الأفكار المسيحية، ثم أفكار الإصلاح المسيحي (لوثر). وأما في عصرنا الحاضر فنضرب عليها مثلاً مبدأ العقلانية أو العقلانيات، ثم الأفكار

الديمقراطية والاجتماعية. وهناك من جهة أخرى الآراء العابرة والمتغيرة التي تتفرع غالباً عن مفاهيم عامة يشهد ظهورها وموتها كل عصر. نضرب على ذلك مثلاً النظريات التي توجه الفنون والآداب في لحظة معينة كالنظرية المولِّدة للحركة الرومنطيقية أو النزعة الطبيعية، إلخ... فهي بنفس سطحية الموضة العابرة وتتغير كالموجات الصغيرة التي تظهر وتختفي باستمرار على سطح بحيرة ذات مياه عميقة.

أما العقائد الكبرى العامة فذات عدد محصور جداً. وتشكلها وتلاشيها يمثلان بالنسبة لكل عرق تاريخي نقاط الذروة في تاريخه. إنها تشكل الهيكل العظمي للحضارات.

أما الرأي العابر فينفذ بسهولة إلى روح الجماهير، ولكن من الصعب جداً أن نرسخ فيه عقيدة دائمة. كما أنه من الصعب تدمير هذه العقيدة بعد تشكيلها. لا يمكن تغييرها إلا بعد ثورات عنيفة، وفقط بعد أن تكون العقيدة قد فقدت تقريباً كل هيمنتها على النفوس. إن الثورات تساعد عندئذٍ على التدمير الكلي للعقائد التي أصبحت مهجورة ولكنها لا تزال رازحة بسبب نير الأعراف والتقاليد. والثورات التي تبتدىء تعني بالضرورة عقائد إيمانية تحتضر.

وبدءاً من اللحظة التي يأخذ فيها الناس بمناقشة عقيدة كبرى ونقدها فإن زمن احتضارها يكون قد ابتدأ. وبما أن كل عقيدة عامة ليست إلا وهماً فإنها لا تستطيع أن تستمر إلا إذا نجت من التفحص والنقد.

ولكن حتى عندما تتزعزع أسس عقيدة راسخة ما فإن المؤسسات المتفرعة عنها تبقى محافظة على قوتها ولا تتلاشى إلا ببطء. وعندما تفقد أخيراً كل سلطة فإن كل ما كانت تدعمه ينهار. ولم يحصل سابقاً في التاريخ أن غيَّر شعبٌ ما عقائده دون أن يضطر فوراً إلى تغيير عناصر حضارته.

فهو يحوِّل فيها ويغيرها حتى يكون قد اعتمد عقيدة عامة جديدة. وبانتظار تلك اللحظة فإنه يعيش في حالة الفوضى

بالـضرورة. فالعقائد العامة هي الدعامات الضرورية للحـضارات. وهـي التي توجـه الأفكار وتطبعها بطابعهـا، وهي وحـدها التي تلهـم الإيمان وتخـلق الحس بالواجـب.

لقد أحست الشعوب دائماً بفائـدة تشكيل العقائد الإيمانية العامة وفهـمت عن طريق الغريزة أن تلاشيهـا يعني بـداية انحـطاطها. والعبادة المتعصبة لروما كانت هي العقيدة الإيمانية التي جعلـت من الرومان أسياداً للعالم. ولكن ما إن ماتت هذه العقيدة حـتى انهـارت روما. ولم يستطع البرابرة الـذين دمروا الحضارة الرومانية أن يتوصـلوا إلى بعض التماسك والخـروج من حـالة الفوضى إلا بعد أن اكتسبوا بعض العقائد المشتركة.

وإذن فـليس عبثاً أن الشعوب كـانت قد دافعت دائماً عن عقائدها الإيمانية بنوع من التعصب. وهـذا التعصب منتقد بشدة من وجهـة النظر الفلسفية، ولكـنه يمثل فضيلة في حيـاة الأمم. والعصور الوسطى لم تنصب المحـارق إلا من أجـل تأسيس العقائد الإيمانية العامة أو المحـافظة عليها والإيمان بهـا. وعشرات المخترعين والمجـددين الـذين نجـوا من الحـرق والتعذيب ماتوا في ظـل اليأس المطبق. ومن أجـل الدفاع عن هـذه العقائد العامة والمشتركة انقـلب العالم أكثر من مـرة وسقط ملايين البشر في ساح الوغى، وسوف يسقطون أيضـاً.

ولكـن هناك صعوبـات كـبيرة تقف في وجه تشكل عقيدة إيمانية عامة كما قلنا سابقاً. وإذا ما تشكلت ورسخت نهائياً فإنـه يصبح من المستحيل الإطاحة بها لمدة طويلة. وأياً يـكن بطلانها الفلسفي فـإنها تفرض نفسها على أكبر الشخصيات وأذكاها. ألم تعتبر الشعوب الأوروبية منـذ خـمسة عشر قرناً أن أساطير مولوك الدينية هي حقـائق لا تنـاقش؟ ولكننا نعرف عندما نتفحصها عن كـثب إنها بربرية وهمجية[1]. فالعبثية المرعبة لأسطورة الإله الـذي ينتقم من ابنه بواسطة التعذيب المرعب لأنـه عصاه لم تلحـظ من قِبَلِ أحـد طيلة قـرون عديدة. وأكبر الشخصيات العبقرية من أمثال غاليليو، نيوتن، لايبنتز لم يخطر على بـالهم لحظة

واحـدة أن حقيقة مثل هذه الأساطير يمكن أن توضع على محـك الشك. وهـذا أكبر دليل على التنويم المغناطيسي الـذي تمارسه العقائـد العامة المشتركة. ولكن لا شيء يبرهـن بشكل أفضل على المحدودية المذلّة لروحـنا.

وما إن تنزرع عقيدة جـديدة في روح الجماهير حـتى تصبح ملهمة لمؤسساته وفنونـه وسلوكه. وتـكون هيمنتها على النفوس مطلقة عندئذٍ. ويحـلم رجـال الممارسة والإنخـراط بإنجـازها على أرض الواقع، ويحـلم المشرِّعـون بتطبيقها. ويهـتم الفلاسفة والفنانون والأدباء بترجـمتها بأشكال شتى.

ويمكـن أن تنبثق أفكـار مؤقـتة ثانوية عن العقيدة الأساسية ولكنها تحـمل دائماً طابع الإيمان المنبثقة عنه. نضـرب على ذلك مثلاً الحضارة المصرية وحضـارة القرون الوسطى والحضارة الإسلامية للعرب، فهـي جميعها متفرعة عن عـدد صغير من العقائد الدينية التي طبعت بطابعها كـل عناصر هذه الحضارات والتي تتيح التعرف عليها فـوراً.

وبفضل العقائد الإيمانية العامة فـإن رجـال كل عصر محـاطون بشبكة من التقاليد والآراء والأعراف التي يرزحـون تحت نيرها ولا يستطيعـون الإفلات منها. وهـي التي تجعلهم متشابهين أكثر فأكثر كـل يوم. وأكثر النـاس ذكاء واستقلالية لا يستطيعون التملُّص منها. وليس هنـاك من طغيان حـقيقي أكبر من ذلك الـذي يمارس نفسه على النفوس بشكل لاواع لأنه الوحيد الـذي لا يمكننا أن نحـاربه. فتيبير[٢] وجنكيزخـان ونابليون كانوا طغاة رهيبين بـدون شك، ولكن مـوسى وبـوذا ويسوع ومحـمد ولوثر مارسوا على النفوس من أعماق قـبورهم هيمنة استبدادية أكثر عمقاً بـكثير. فقد تطيح مؤامرة بالطاغية، ولكـن ماذا تستطيع أن تفعل ضد عقيـدة راسخة؟ فثورتنا الكبرى هـزمت أمام الكاثوليكية في صراعها العنيف ضـدها على الرغم من التواطؤ الظاهـري للجماهير معها وعلى الرغم من استخـدامها لأساليب في التدمير لا ترحـم ولا تقـل هولاً عن أساليب محـاكم التفتيش. فالكاثوليكية بقيت على قيـد

الحياة بعد كل ما حصل. إن الطغاة الحقيقيين للبشرية كانوا دائماً أشباح الموتى أو الأوهام التي خلقتها بنفسها.

إن العبثية الفلسفية لبعض العقائد الكبرى العامة لم تحل أبداً ـ ولأكرر ذلك مرة أخرى ـ دون انتصارها. بل إن انتصارها هذا ما كان ممكناً لولا احتوائها على بعض العبثية. فالضعف الواضح لبعض العقائد الإشتراكية الحالية لن يمنعها من التأصل والرسوخ في روح الجماهير. فدونية هذه العقائد المؤكدة بالقياس إلى كل العقائد الدينية عائد فقط إلى نقطة مستقبلية: فبما أن مثال السعادة الذي تعد به الجماهير لا يمكن أن يتحقق إلا في الحياة المقبلة أو الآخرة، فإن أحداً لا يستطيع معارضة هذا التحقيق أو ذاك الهدف. ولكن بما أن مثال السعادة الإشتراكية ينبغي أن يتحقق يوماً ما على الأرض، فإن عبثية الوعود تظهر منذ أول محاولة للإنجاز، وتفقد العقيدة الجديدة فوراً كل هيبة أو حظوة. وبالتالي فإن قوتها لا تكبر إلا في الفترة الواقعة قبل اليوم الموعود للإنجاز والتحقيق. ولهذا السبب فإنه إذا كان الدين الجديد يمارس أولاً ككل الأديان التي سبقته عملاً تدميرياً فإنه لا يستطيع أن يمارس فيما بعد عملاً خلاقاً.

٢ ـ الآراء المتحركة للجماهير

وفوق العقائد الثابتة والراسخة التي كنَّا قد بيَّنا مدى جبروتها تتموضع طبقة سطحية من الآراء والأفكار والخواطر التي تولد وتموت باستمرار. ومدة دوام بعضها مؤقتة جداً، وأكثرها أهمية لا تتجاوز مدتها حياة جيل واحد. كنَّا قد قلنا سابقاً بأن المتغيرات التي تصيب هذه الآراء هي أحياناً سطحية أكثر مما هي حقيقية وتحمل دائماً طابع العرق وخصائصه. فعندما درسنا مثلاً المؤسسات السياسية لبلدنا لاحظنا أن الأحزاب السياسية الأكثر اختلافاً من حيث الظاهر (كالملكيين، والراديكاليين، والامبراطوريين، والإشتراكيين، إلخ...) لهم نفس المثال الأعلى. وهذا المثال الأعلى يعود إلى البنية الذهنية لعرقنا (العرق الفرنسي اللاتيني). والدليل على ذلك إننا نجد مثالاً أعلى

مضاداً لدى الأمم الأخرى التي تمتلك نفس الأحزاب بنفس الأسماء. فالاسم الذي يخلع على الآراء والأحزاب والتعديلات الظاهرية الخادعة لا تغير شيئاً في حقيقة الأمور. إن بورجوازيي الثورة المتأثرين إلى حد كبير بالأدبيات اللاتينية والذين يقلدون الجمهورية الرومانية راحوا يعتمدون قوانينها وشعاراتها وثيابها ولكنهم لم يصبحوا رومانيين لأنهم بقوا تحت هيمنة تحريض تاريخي ضخم.

إن دور الفيلسوف يكمن في البحث عما بقي من عقائد قديمة تحت سطح المتغيرات الظاهرية، وفي التمييز داخل سيل الآراء المتحركة بين الحركات المفروضة من قبل العقائد العامة وبين روح العرق.

وبدون هذا المعيار كنا سنعتقد أن الجماهير تغير عقائدها السياسية والدينية بشكل مستمر وعلى هواها. والتاريخ كله سياسياً كان أم دينياً أم فنياً أم أدبياً يبدو وكأنه يبرهن على ذلك.

لنضرب على ذلك مثلاً فترة قصيرة فقط (أي بين ١٧٩٠ - ١٨٢٠)، أي فترة ثلاثين سنة، عمر جيل واحد. فقد كانت الجماهير الفرنسية في بداية الفترة ملكية ثم أصبحت ثورية ثم أصبحت إمبراطورية ثم أصبحت ملكية مرة أخرى. وفيما يخص الدين تطورت في نفس الفترة فانتقلت من الكاثوليكية إلى الإلحاد ثم إلى التأليهية (أي المذهب الذي يقر بوجود الله وينكر الوحي والآخرة). ثم عادت إلى الأشكال الأكثر تطرفاً من الكاثوليكية. وليست الجماهير هي فقط التي تتغير وإنما أيضاً قادتها. فقد رأينا مثلاً أعضاء الجمعية التأسيسية الفرنسية بعد الثورة يبدون أعداء ألداء للملوك ولا يريدون لا آلهة ولا أسياداً، ثم أصبحوا فيما بعد خدماً أذلاء لدى نابليون. ثم أصبحوا يحملون الشموع في المواكب الدينية في ظل الملك لويس الثامن عشر!...

وخلال السبعين سنة التي تلت، كم حصلت من متغيرات في آراء الجماهير؟ «فإنكلترا الخؤونة» في مطلع هذا القرن أصبحت حليفة فرنسا في ظل وريث نابليون. وروسيا التي خاضت حربين ضدنا

وشمتت كـثيراً بهزائمنا الأخـيرة أصبحـت فجـأة كصديقة لنا.

وفي مجـال الأدب والفن والفلسفة نلاحـظ أن تتابع الآراء والأفكـار أو تغيرها يتجلَّى بوضوح أكثر. فمن الرومنطيقية إلى المذهب الطبيعي إلى الصوفية، إلخ... نلاحـظ ولادة ومـوت كـل مذهب بـدوره. فالفنان أو الكاتب الـذي صفقوا له بالأمس سرعـان ما يحتقر غـدا.

ولكـن إذا ما حـلَّلنا هذه المتغيـرات التي تبـدو ظاهرياً جـد عميقة فماذا نـرى؟ نـرى أن كـل المتغيـرات المضادة للعقائد العامة ولعـواطف العرق لا تعيش طويلاً، في حـين أن التيـار العام يستعيد مجـراه من جـديد. فالآراء التي لا ترتبط بـأي عقيدة عامة ولا بـأي عاطفة عـرق وبالتـالي فلا تتمتع بالاستقـرارية تبقى تحـت رحـمة الصدفة، أو تحـت رحـمة أقـل متغير يصيب البيئة إذا شئنا. فبما أنها تتشكل بـواسطة التحـريض والعدوى فـإنها تظل دائماً مؤقتة فتولد وتموت أحياناً بنفس سرعة تشكل كثبـان الرمال وتلاشيهـا على شاطىء البحر.

وفي أيامنا هذه نلاحـظ أن مجـمل الآراء المتحركة للجماهير أكبر منه في أي وقـت مضى. وذلك لأسباب ثلاثة مختلفة.

السبب الأول هو أن العقائد القديمة تفقد بالتدريج هيمنتها على النفوس وبالتـالي فلا تعود تؤثـر على الآراء المؤقتـة لكي توجههـا في اتجـاه معين كما في السابق. إن تلاشي العقائد العامة يتـرك المكان حـراً لمجموعة من الأفكار الخصوصية المحرومة من كـل ماضٍ أو مستقبل.

وأما السبب الثـالث فيعـود إلى ظهـور الصحافة مؤخـراً ونشرها لأكـثر الآراء اختلافاً وتناقضاً. فالإيحـاءات التي يولدهـا كـل رأي تُدمَّـر فوراً من قبل إيحـاءات الرأي المضـاد. وبالتـالي فلا يستطيع أي رأي أن يعم وينتشر، وكلهـا مـدانة بالوجود المؤقـت والعابـر. فهـي تموت قـبل أن تنتشر بما فيه الكفاية لكي تصبح عامة.

وينتج عن هذه الأسباب المختلفة ظاهـرة جـديدة جـداً في تـاريخ

العالم، وهي تميز عصرنا الحالي: أقصد بذلك عجز الحكومات عن قيادة الرأي العام.

ففي الماضي غير البعيد كان عمل الحكومة وتأثير بعض الكتَّاب بالإضافة إلى عدد صغير من الصحف كل ذلك يشكل الموجِّهات الحقيقية للرأي العام. وأما اليوم فإننا نلاحظ أن الكتَّاب قد فقدوا كل تأثير ولم تعد الصحف تفعل شيئاً إلا أن تعكس وجهات نظر الرأي العام. وأما فيما يخص رجال السياسة فإنهم بدلاً من أن يقودوه لم يعودوا يفعلون إلا اتِّباعه. وخوفهم من الرأي العام يصل أحياناً إلى حد الرعب وأصبح ينزع عن ممارساتهم كل تماسك أو ثبات.

إن رأي الجماهير يميل إذن إلى أن يصبح أكثر فأكثر الموجِّه الأعلى للسياسة. فقد وصل به الأمر اليوم إلى حد فرض التحالفات كما رأينا ذلك بالنسبة للتحالف الروسي ـ الفرنسي الذي خرج كله تقريباً من رحم الحركة الشعبية.

ومن علائم عصرنا المدهشة أن نرى البابوات والملوك والأباطرة يخضعون لآليات المقابلة الصحفية وأساليبها من أجل عرض فكرهم حول موضوع معين. وهم يخضعون بذلك لرأي الجماهير. قالوا في الماض بأن السياسة لا علاقة لها بالعاطفة ومشاكلها. فهل يمكن لها أن تصبح عاطفية اليوم حيث نراها تتخذ كقائد لها دوافع الجماهير المتغيرة التي تجهل العقل وتقاد فقط عن طريق العاطفة؟

وأما فيما يخص الصحافة التي كانت توجه الرأي العام سابقاً فإنها قد اضطرت كالحكومات إلى الإمحاء أمام سلطة الجماهير. صحيح أن قوتها ضخمة ولكن فقط لأنها تمثل كلياً انعكاس الآراء الشعبية وتنويعاتها المستمرة. ولما أصبحت الصحافة عبارة عن وكالة للمعلومات فإنها لم تعد تفرض أي فكرة، ولا أي عقيدة. وأصبحت تتبع كل متغيرات الفكر العام، ونلاحظ أن ضرورات المنافسة تجبرها على ذلك وإلا فقدت قراءها. وأما الصحف القديمة والمهيبة ذات التأثير والتي كان الجيل السابق يصغي إلى كلامها كالوحي فقد اختفت أو أنها أصبحت أوراقاً

للمعلومات مؤطرة بوقائع مسلية وبنمائم المجتمع والإعلانات المالية. وأما اليوم فأين هي الصحيفة الغنية بما فيه الكفاية والتي تسمح لمحرريها بأن يعبروا عن آراء شخصية؟ وما هي المصداقية التي تتمتع بها هذه الآراء لدى القراء الذين يبحثون فقط عن الإستعلام أو التسلية، والذين يرون خلف كل توصية وجه المضاربين التجاريين؟ وحتى النقد الأدبي لم يعد قادراً على الدعاية لكتاب ما أو لقطعة مسرحية. ذلك أن باستطاعته الإساءة وليس الخدمة. فالصحف من شدة وعيها لعدم جدوى أي رأي شخصي راحت تحذف صفحات النقد الأدبي. وأصبحت تكتفي بتسجيل اسم الكتاب مرفقاً بسطر أو سطرين من الإعلان. وربما حصل نفس الشيء للنقد المسرحي خلال العشرين سنة القادمة.

لقد أصبحت مراقبة الرأي العام اليوم هي الشغل الشاغل للصحافة والحكومات. أصبحت مشغولة بمعرفة الأثر الذي يحدثه حدث ما أو برنامج تشريعي ما أو خطاب ما على الرأي العام. وهذا ليس بالأمر السهل، ذلك أنه ليس هناك من شيء أسرع تحركاً وتغيراً من فكر الجماهير. فنحن نراها تستقبل باللعنات ما كانت قد صفقت له بالأمس.

وهذا الغياب الكامل لتوجيه الرأي العام ثم انحلال العقائد العامة في نفس الوقت أديا في نهاية المطاف إلى التفتيت الكامل لكل القناعات واليقينيات ثم إلى شيوع اللامبالاة المتزايدة لدى الجماهير والأفراد في آن معاً، وذلك في كل ما يخص مصالحها المباشرة. إن مسائل العقائد. كمسألة الاشتراكية مثلاً، لم تعد تجد مدافعين مقتنعين فعلاً إلا في الطبقات الأمية من الشعب. نضرب على ذلك مثلاً عمال مناجم الفحم. وأما البورجوازي الصغير والعامل المتأثر قليلاً بالثقافة والتعليم فقد أصبحا متشككين جدا.

وهذا التطور الذي حصل خلال ثلاثين عاماً فقط مدهش إلى أبعد حد. ففي الفترة السابقة والقريبة العهد كانت الآراء (آراء الناس) لا تزال تحظى بتوجيه عام. فقد كانت مشتقة عن تبني بعض العقائد الإيمانية الأساسية. فبمجرد أن كان الإنسان ملكياً كان يحصره على

مستوى التـاريخ والعلوم ببعض الأفكار المسبقة، وإذا كان جمهورياً فـإن ذلك يعني تقيده بأفكار مضادة تماماً. فالملكي كان يؤمن بكل يقين أن الإنسان ليس سليل القرد، وأما الجمهوري فـكان يؤمن بالعكس. والملكي كان يتحـدث عن الثورة بنوع من التقزز والرعب، وأما الجمهوري فكان يتحـدث عنها بنوع من التقديس والعبادة. فبعض الأسماء كإسم روبسبيير ومارا ينبغي أن تلفظ بكل خشوع، وأخـرى كإسم القيصر وأوغيست ونابليون لا يمكن أن تلفظ إلا وهي مرفقة بالشتائم واللعنات. وقد شاعت هذه الطريقة الساذجة في قراءة التـاريخ حتى في السوربون.

وأما اليوم فـإن كـل رأي من هذه الآراء العامة أخـذ يفقد هيبته أمام المناقشة والتحليل. فجوانبه تبلى بسرعة. والأفكار التي تلهب حماستنا نـادرة. فالإنسان الحـديث مصاب باللامبـالاة أكثر فـأكثر.

ولكـن ينبغي ألا نـأسف كـثيراً بسبب هذا التفتت العام للآراء. فـأن يكون ذلك علامة على الإنحـطاط في حياة شعب ما، فهـذا ما لا ينفيه أحـد. فالعرافون والرسل والقادة المحركـون وبكلمة أخـرى كـل المؤمنين المقتنعين يمتلكون قوة أخـرى غير قوة النفي والسلب والنقد واللامبـالاة. ولكن ينبغي ألا ننسى أنه مع القوة الهائلة للجماهير الآن فـإنه إذا ما استطاع رأيٍ واحـد أن يمتلك الهيبة الكافية لكي يفرض نفسه فـإنه سوف يحظى فوراً بقوة طغيانية هائلة إلى درجة أن كل شيء سوف يستسلم أمامها. وعندئذٍ سوف ينغلق عصر المناقشة الحرة لفترة طويلة. إن الجماهير تمثل أحياناً أسياداً مسالمين كـما كان عليه في عصرهما كـل من هيليوغابـال وتيبير. ولكن للجماهير نزواتها العتيقة أيضاً. فالحضارة الجاهزة للسقوط في أيديها تظل تحـت رحمة صـدف عديدة جـداً إلى حـد أنه يشك بـديمومة هذه الحضارة لفترة طويلة. وإذا كان هناك شيء ما يمكنه أن يؤخـر من ساعة الإنهـيار فـإن ذلك سيكون بالضبط الحركية الهائلة للآراء واللامبـالاة المتزايـدة للجماهير تجـاه كـل العقائد العامة.

الكتابُ الثالث

تصنيف الفئات المختلفة من الجماهير ودراستها

الفصل الأول

تصنيف الجماهير

كنا قد بيَّنا في هذا الكتاب الخصائص العامة المشتركة للجماهير. وقد بقي علينا أن نـدرس الخصائص الخصوصية المتراكبة على هذه الخصائص العامة، وذلك تبعاً للفئـات المختلفة للجماعات البشرية.

لنقـدم أولاً تصنيفاً مختصراً لأنـواع الجماهير.

وسوف تـكون نقطة انطلاقنا الأولى هـي مجرد الكثرة والعـدد. وصيغتها الأدنى تتجـلى عندما تـكون مؤلفة من أعـراق أو أجـناس مختلفة. ونقطتها المشتركة عندئذٍ تـكون إرادة الزعيم المحترمة قـليلاً أو كـثيراً. فحولهـا تتجمع وتتحـلق. ويمكننا أن نقـدم أمثلة على أنماط هذه الكثرة البرابرة المتوحشين من أنواع شتى، هـؤلاء البرابرة الـذين غزوا الامبراطورية الرومانية طيلة قـرون عديدة.

وفـوق أنواع هذه الكثرة غير المتجانسة تظهر كثرة أخـرى انصهرت في بعضها البعض تحت تأثير عوامل مختلفة واكتسبت صفات مشتركة وانتهى بها الأمر إلى تشكيل عرق واحد. وتتجلى فيها، عندما تحـين المناسبة، الخصائص الخاصة بالجماهير، ولكنها دائماً مستوعبة من قبل خصائص العرق.

ويمكن تقسيم فـئات الجماهير المختلفة التي نستطيع العثـور عليها لـدى كل شعب على الطريقة التـالية:

أ ـ جماهير غير متجانسة

١ ـ جماهير مُغْفَلة (كجماهير الشارع مثلاً).
٢ ـ جماهير غير مغفلة (كهيئات المحلفين، والمجالس البرلمانية، إلخ...).

ب ـ جماهير متجانسة

١ ـ الطوائف (الطوائف السياسية، الطوائف الدينية، إلخ...).
٢ ـ الزمر (زمرة عسكرية، زمرة كهنوتية، زمرة عمالية، إلخ...).
٣ ـ الطبقات (الطبقة البورجوازية، الطبقة الفلاحية، إلخ...).

لنشرح في كلمات قليلة الخصائص التمييزية لفئات الجماهير المختلفة[١].

١ ـ الجماهير غير المتجانسة

إن هذه التجمعات هي تلك التي درسنا خصائصها سابقاً. وهي مؤلفة من أفراد لا على التعيين، بغض النظر عن مهنتهم أو ذكائهم.

وكنا قد برهنا في هذا الكتاب على أن نفسية الناس المنخرطين في الجمهور تختلف أساساً عن نفسيتهم الفردية، وإن الذكاء الفردي لا يلعب أي دور في هذا المجال. فدوره يتعطل عندما يصبح الإنسان منخرطاً في الجماعة. وحدها العواطف اللاواعية تلعب دوراً آنذاك.

وهناك عامل أساسي هو العرق، وهو يتيح لنا تقسيم مختلف أنواع الجماهير غير المتجانسة والتمييز بينها.

كنا قد تحدثنا أكثر من مرة عن دوره وبيَّنا أنه أكبر عامل قادر على تحديد أعمال البشر وحسمها. وتأثيره يتجلى أيضاً في خصائص الجماهير. فالكثرة المؤلفة من أفراد لا على التعيين ولكن ينتسبون إلى عرق واحد كالإنكليز أو الصينيين تختلف جداً عن الكثرة المؤلفة أيضاً من أفراد لا على التعيين ولكن من أعراق مختلفة: كالروس والفرنسيين والاسبان، إلخ...

إن الإختلافات العميقة الناتجة عن التركيبة الذهنية الموروثة للبشر فيما يخص طريقة الإحساس والتفكير تتجلى واضحة للعيان ما إن تتوافر بعض الظروف النادرة جداً. أقصد الظروف التي تجمع في نفس الجمهور وبنسب متساوية تقريباً أفراداً ينتمون إلى جنسيات مختلفة أياً تكن تماثلية المصالح التي تجمعهم ظاهريا. والمحاولات التي قام بها الإشتراكيون لكي يصهروا ممثلي الحركات العمالية في كل بلد في مؤتمر كبير واحد باءت دائماً بالفشل وانتهت بظهور التناقضات والاختلافات. فالجمهور اللاتيني أياً تكن درجة ثوريته أو محافظته سوف يلجأ إلى تدخل الدولة من أجل تحقيق مطالبه. فهو دائماً من مؤيدي الوحدة المركزية. كما أنه من مؤيدي الاستبدادية القيصرية بدرجة تقل أو تكثر. وأما الجمهور الإنكليزي أو الأمريكي، فعلى العكس، لا يعترف بالدولة وإنما فقط بالمبادرة الخاصة. والجمهورالفرنسي متعلق بفكرة المساواة بشكل خاص وقبل كل شيء، وأما الجمهور الإنكليزي فيتعلق بالحرية. وهذه الإختلافات العرقية تولد عدداً من الجماهير مساوياً لعدد الأمم تقريباً.

نستنتج من ذلك أن روح العرق تهيمن كلياً على روح الجمهور. إنها الجوهر القوي الذي يحد من التذبذب والتغير. **وتكون خصائص الجماهير أقل حدة وبروزاً كلما كانت روح العرق أكثر قوة.** وهذا قانون أساسي. إن حالة الجمهور وهيمنة الجماهير تشكلان نوعاً من الهمجية أو عودة الهمجية. إن العرق يتخلص أكثر فأكثر من القوة المجنونة للجماهير ويخرج من حالة الهمجية عن طريق اكتساب روح مكونة بشكل راسخ.

وفيما عدا عامل العرق فإن التصنيف الوحيد المهم بالنسبة للجماهير غير المنسجمة هو الفصل بين الجماهير المغفلة كجماهير الشارع، والجماهير غير المغفلة كالمجالس البرلمانية وهيئات المحلفين مثلاً. إن الشعور بالمسؤولية معدوم لدى الجماهير الأولى ومتطور لدى الثانية، وهو يفرض على أعمالهم توجهات مختلفة غالباً.

٢ ـ الجماهير المتجانسة

إن الجماهير المتجانسة تشمل: ١ ـ الطوائف؛ ٢ ـ الزمر؛ ٣ ـ الطبقات.

فالطائفة تشكل المرحلة الأولى من مراحل تشكل الجماهير المتجانسة. فهي تحتوي على أفراد من ثقافات ومهن وأوساط مختلفة جداً أحياناً، وليس بينها من رابطة وحيدة إلا العقيدة والإيمان. نضرب على ذلك مثلاً الطوائف الدينية والسياسية.

وأما **الزمرة** فتمثل أعلى درجات التنظيم التي يقدر عليها الجمهور. ففي حين أن الطائفة مشكلة من أفراد ذوي مهن وثقافات وأوساط متنافرة جداً في الغالب ولا يترابطون فيما بينهم إلا بواسطة اشتراكهم في العقائد، فإن الزمرة لا تشمل إلا أفراداً من نفس المهنة وبالتالي ذوي تربية وأوساط متماثلة تقريباً. نضرب على ذلك مثلاً الزمرة العسكرية والكهنوتية.

وأما **الطبقة** فتتشكل من أفراد ذوي أصول مختلفة وموحدين ليس عن طريق اشتراكهم في العقائد كأعضاء الطائفة، وليس عن طريق اشتراكهم في الإهتمامات المهنية كأعضاء الزمرة، وإنما عن طريق بعض المصالح وبعض عادات الحياة والتربية المتشابهة. نضرب على ذلك مثلاً الطبقة البورجوازية، والطبقة الزراعية، إلخ...

ولما كنت لم أدرس في هذا الكتاب إلا الجماهير المتجانسة فإني سوف أهتم فقط ببعض فئات تشكيلة الجماهير المختارة كأنماط محددة.

الفصل الثاني

الجماهير المدعوّة بالمجرمة

ما إن تسقط الجماهير بعد فترة الهيجان والحماسة في حالة الناس الآليين غير الواعين والمقودين من قبل التحريضات والمحرضات، حتى يصبح صعباً علينا وصفها بالمجرمة في أي حالة من الأحوال. ولكن مع ذلك فقد احتفظت بهذا الوصف الخاطىء لأنه كان قد ترسخ من قبل البحوث النفسية. لا ريب في أن بعض أعمال الجماهير هي مجرمة إذا ما أخذناها بذاتها ولذاتها. ولكنها عندئذٍ ستكون مجرمة مثلما أن التهام النمر لهندي ما يعتبر عملاً إجرامياً بعد أن كان قد ترك صغاره يمزقونه للتسلي به.

إن جرائم الجماهير ناتجة عموماً عن تحريض ضخم، والأفراد الذين ساهموا فيها يقتنعون فيما بعد بأنهم قد أطاعوا واجبهم. وهذه ليست أبداً حالة المجرم العادي فتاريخ الجرائم التي ارتكبتها الجماهير توضح لنا ما سبق.

ويمكننا أن نستشهد على ذلك بمثال نموذجي هو قتل مدير سجن الباستيل السيد دولوني. فبعد أن تم الإستيلاء على هذا السجن راح المدير يتلقى الضربات واللبطات من كل الجهات من قبل الجماهير. وراح البعض يقترحون شنقه والآخرون يقولون بقطع رأسه أو بربطه بذنب حصان وسحله في الشارع. ولما راح يتخبط بين أيديهم لبط برجله أحد الحضور عن غير قصد. وعندئذٍ اقترح أحدهم أن يقوم هذا الرجل الذي أصابته اللبطة بقطع رأس المدير بيده.

يقول أحـد الشهود راوياً القصة:

«وكان هذا الرجل طباخاً متجـولاً ونصف متسكع. وقد ذهـب إلى الباستيل لكـي يـرى ماذا يحـصل هناك، ولما رأى أن الجـميع متفقون على قيامه بهذه المهمة وأنه يـؤدي عملاً وطنياً إذ ينجـزها فـإنه وافق على الفور. بـل واعتقد بـأنه يستحـق ميدالية تـكريم عن طريق قتله لهذا الوحش. وقد أعـاروه سيفاً فضرب عنقه. ولكن السيف لم يكن مشحوذاً جـيداً فلم يفلح في ضربته. وعندئذٍ أخـرج من جـيبه سكيناً صغيرة بمقبض أسود كان يستخدمها في قطع اللحم كطباخ وأكمل قطع رأسه بنجـاح لحسن الحظ».

ونـرى هنا مثالاً تطبيقياً حياً على الآلية التي شرحناها سابقاً فيما يخـص طريقة عمل الجماهير وردود فعلها. فالقاتل يخـضع بكل طاعة للتحـريض لأنه صادر عن قوة جماعية وجماهيرية، وهو يشعر بـأنه قد قـام بعمل مجيـد وطبق قناعة طبيعية لأنـه حـظي بالإستحسان الاجماعي من قبل مواطنيه. وعمل مشابه لهذا يمكن أن يوصف بالإجـرامي من الناحية القانونية ولكن ليس من الناحية النفسية.

إن الخصائص العامة للجماهير المدعوة بالمجرمة هي بالضبط نفس الخصائص التي لاحظناها لـدى جـميع أنواع الجماهير. هذه الخصائص هي: قابلية التحريض، السذاجة أو سرعة التصديق، الحركية والخفة، المبالغة في العواطف سواء أكانت طيبة أم سيئة، تبدّي بعض أشكال الأخلاقية، إلخ...

ونحـن نعثر على كـل هذه الخصائص لـدى نوع من أنواع الجماهير التي تركت أبشع الذكريات وأكثرها إجراماً في تـاريخنا: أقصد جماعة سبتمبر (أو الأيلوليين الـذين شاركوا في مذابح أيـلول في فرنسا عام ١٧٩٢). وهـذا الجمهور يتشابه في نقاط كـثيرة مع الجمهور الـذي قـام بمذابح سانت برتيليمي. وأنا أستعير تفاصيل هذه الوقائع من الفيلسوف «تين» الـذي استمدها من ذكريات ذلك الزمن.

لا نعرف من هو الـذي أعطى الأوامر بالضبط أو من هو الـذي اقترح

تفريغ السجـون عن طريق قتل المساجين. وسواء أكان هو دانتون كما يبدو محتملاً أم أنه شخص آخـر فـإن ذلك لا يهـم كثيراً. فالشيء الوحـيد المهم بالنسبة لنا هو ذلك الاقتراح التحريضي الجبار الذي تلقاه الجمهور المكلف بعملية المجـزرة والقتل.

كان جـيش القتلة الـذي قام بالمجـزرة يـضم حوالى الثلاثمائة شخص ويمثل النمط النموذجي عـلى الجمهور غير المتجـانس. وما عـدا عـدد صغير من الأوغاد المحترفين فـإن الجمهور كان مكوناً بشكل خـاص من أصحـاب الدكاكين والحرفيين المختلفين من الاسكافيين والحـدادين والحـلاقين والبنائين والموظفين والوسطاء التجـاريين، إلخ... فهـم تحـت تأثير الاقتـراح التحريضي يندفعون كالطباخ المذكور آنفاً، وهم مقتنعون بـأنهم ينجـزون واجباً وطنياً. إنهم يقومون بوظيفة مزدوجة: فهـم في آن معاً القضاة والجـلادون ولا يعتبـرون أنفسهم إطلاقاً كمجرمـين.

فبعد أن يمتلئوا حمـاسة وقناعة بـدورهم نجـدهم يبتدئون بتشكيل نـوع من المحكمة. وفـوراً تظهـر الروح التسبيطية للجماهير وعدالتها التي لا تقل تبسيطية. ونظـراً لضخامة عـدد المتهمين فـإنهم يقـررون بـأن النبلاء والكهنة والضباط وخـدم الملك أي كـل الأفـراد الـذين تشكل مهنتهم نفسها بحـد ذاتها جريمة في نظـر الوطني الحقيقي، سوف يقتلون ككتلة واحـدة دون الحاجة لقـرار خـاص. وما إن يتم إرضاء الوعي البـدائي للجماهير بهذه الطريقة فـإنها تستطيع بعدئذٍ أن تقوم بالمجـزرة بـكل طيبة خـاطر وتدشن غرائزها الضارية دون أي وازع أو رادع. وكـنت قد بينت في مكان آخـر منشأ هذه الغرائز التي تستطيع الكثرة المتجمعة أن تنميها وتزيدها إلى أبعد حـد. وهـذا لا يعني أنها تمنع الظهـور الملازم لعواطف أخـرى مضادة كما هي عليه القاعدة بالنسبة للجماهير كالحساسية المتطرفة جـداً من نـوع الضراوة.

يقـول تين: «إن عاطفة الجماهير توسعية وحساسيتها متوثبة كحساسية العامل البـاريسي. ففي الدير عندما عـرف أحـد الفيدراليين أنهم قـد تركوا المعتقلين بـدون ماء لمـدة ست وعشرين ساعة أراد أن

يستأصل الحارس المسؤول الذي أهمل عمله. وكان يمكن أن يفعل ذلك لولا تضرع المعتقلين أنفسهم وتوسلهم له لكيلا يفعل ذلك. وعندما يتم الإفراج عن أحد السجناء بواسطة محكمة ارتجالية فإن الحرس والقتلة وكل العالم يقبِّلونه بفورة فرح ويصفقون له بنوع من الجنون والهذيان». ثم يعودون لقتل الآخرين. وأثناء القيام بالمجزرة يخيم على الجميع نوع من الفرح اللطيف والجميل. فهم يرقصون ويغنون حول الجثث ثم يصفُّون المقاعد «للسيدات» السعيدات برؤية مقتل الأرستقراطيين. ثم يستمرون في إظهار نوع من العدالة الغريبة جداً. فقد اشتكى أحد القتلة في الدير من أن السيدات الجالسات بعيداً نسبياً لا يرين المشهد بشكل جيد وأن بعض الحاضرين فقط يستمتعون بضرب الأرستقراطيين، وجدناهم يصغون لشكواه ويقررون تمرير الضحايا بشكل بطيء بين صفين من الذباحين الذين لا يستطيعون الضرب إلا بظهر السيف من أجل إطالة مدة التعذيب. ثم عروا جميع الضحايا بالقوة ومزقوهم طيلة نصف ساعة، ثم بعد أن يكون الجميع قد رأوا المشهد فإنهم يجهزون عليهم عن طريق شق بطونهم.

والواقع أن الجزارين كانوا دقيقين وصارمين جداً، كما ويجسدون تلك الأخلاقية الأمينة التي أشرنا إلى وجودها في أوساط الجماهير. فكانوا مثلاً ينقلون إلى طاولة اللجان كل المال والجواهر التي وجدوها في جيوب الضحايا.

وفي كل أعمال الجماهير نجد دائماً هذه الأشكال البدائية والخشنة من المحاكمة العقلية. فهي التي تميز روح الجماهير. فمثلاً بعد أن ذبحوا الإثني عشر الفاً أو الخمسة عشر ألفاً من أعداء الأمة لفت أحدهم الإنتباه إلى أن السجون الأخرى تحتوي على شحَّاذين معمرين ومتسكعين وسجناء شباب، أي على أفواه جائعة وغير مفيدة، وبالتالي فمن الأفضل التخلص منهم أيضاً. وقد قبل اقتراحه فوراً. ثم أضاف قائلاً بأن يوجد بينهم أعداء للشعب من أمثال السيدة دولارو، أرملة السمَّام. «ومن المتوقع أن تكون غاضبة بسبب سجنها. ولو

استطاعت لأحرقت باريس ومن فيها. ومن المؤكد أنها قالت ذلك. وبالتالي فينبغي توجيه ضربة أخرى لها». وقد بدت محاجته عين العقلِ والصواب، فقتلوا الجميع عن بكرة أبيهم بمن فيهم خمسين طفلاً تتراوح أعمارهم بين اثني عشر عاماً وسبعة عشر عاماً. وقال بما أنهم هم أيضاً كانوا سيصبحون أعداء للأمة لو عاشوا وكبروا فإنه ينبغي قتلهم.

وبعد أسبوع كامل من العمل انتهت كل هذه العمليات وذهب الجزارون للاستراحة. ولما كانوا مقتنعينٍ بأنهم قد استحقوا منَّة الوطن، فإنهم توجهوا إلى السلطات طلباً للمكافأة، بل وإن أكثرهم حماسة راحوا يطالبون بميدالية.

وإذا ما قرأنا تاريخ كومونة باريس لعام (١٨٧١) وجدنا فيه وقائع عديدة مشابهة. فالتأثير المتزايد للجماهير والإستسلام المتكرر للسلطات أمامها يقدمان لنا بالتأكيد أمثلة أخرى عديدة.

الفصل الثالث

محلّفو محكمة الجنايات

لما كنا غير قادرين هنا على دراسة كل فئات المحلَّفين، فإننا سنكتفي فقط بدراسة الفئة الأكثر أهمية أقصد فئة محكمة الجنايات. فهي تشكل مثالاً ممتازاً على الجمهور غير المتجانس وغير المُغْفَل. وفيه نعثر على الخصائص الأساسية: كالقابلية للتحريض، وهيمنة العواطف اللاواعية، وضعف القدرة على المحاكمة العقلية، وتأثير القادة والمحركين، إلخ... ونحن إذ ندرس هذه الفئة من الجماهير سوف نجد المناسبة اللائقة لملاحظة عينات مهمة من الأخطاء التي قد يرتكبها الأشخاص غير المتدربين على علم نفس التجمعات والجماعات.

إن المحلفين يبرهنون على ضعف أهميتهم فيما يخص المستوى العقلي لمختلف العناصر التي تشكل جمهوراً ما، وذلك من وجهة نظر القرارات المتخذة. كنا قد رأينا فيما يخص المجالس البرلمانية والإستشارية المدعوة لإعطاء رأيها بصدد مسألة ليس لها طابع تقني بحت فقط، أن الذكاء لا يلعب أي دور. ورأينا أيضاً أن مجمع العلماء أو الفنانين لا يصدر حول المواضيع العامة أحكاماً مختلفة جداً عن الأحكام التي تصدرها جمعيات البنّائين أو الأميين. ففي فترات مختلفة تختار الإدارة بكل دقة الأشخاص المدعوين لتأليف الهيئة المحلفة وتجندهم من بين صفوف الطبقات المستنيرة كالأساتذة والموظفين والأدباء، إلخ... واليوم نجد أن الهيئة المحلفة مؤلفة بشكل خاص من التجار الصغار وأرباب العمل الصغار والموظفين. ولشد ما كانت دهشة

الكتـاب المتخـصصين كـبيرة عندما اكتشفوا أن الإحصائيات تبين أن القـرارات المتخـذة متماثلة أياً تـكن تركيبة الهيئة المحلفة ومهـما اختلفت وتنوعت. وقد اضطر القضاة أنفسهم على الرغم من عدائهم الشديد لتشكيل الهيئة المحلفة إلى الاعتـراف بصحة هذا الكلام. وإليـكم الآن ما قاله بهـذا الصدد في مـذكراته رئيس سابق لمحكـمة الجنايات هو السيد بيرار دي غلاجـو:

«في الواقع أن اختيـار الهيئة المحلفة اليوم هو في أيدي أعضاء مجـلس البلدية. وهم ينتقون الشخص أو يحـذفونه بحسب هواهم وطبقاً للمصالح السياسية والانتخـابية الخاصة بوضعهـم... وأغلبية المنتخبين مؤلفة من تجـار أقل أهمية من أولئك الـذين كانوا يخـتارون في الماضي، ومن موظفي بعض الإدارات... وكـل الآراء تمتزج بـكل المهن في الـدور الـذي يقوم به القاضي، فالكـثيرون يتمتعون بالحماسة التي يتمتع بها المعتنق الجـديد للدين. والرجال ذوو النية الطيبة يتلاقون في الحـالات الأكثر تواضعاً، ولكن روح لجنة التحـكيم لم تتغير: **فأحكامها الصادرة بقيت هي هي**».

لنحـتفظ من هذا المقطع بالخلاصات التي انتهى إليها والتي تبدو لنا صحيحة جـداً. ولنطـرح جانباً التحـليلات والشروحـات فهي ضعيفة جـداً. وينبغي ألا نـدهش لمثل هذا الضعف، وذلك لأنه يبـدو أن علم نفس الجماهير، وبالتـالي نفسية المحلَّفين، كان غالباً مجـهولاً من قبل المحـامين كما من قبل القضاة. وقد وجـدت البرهـان على ذلك في هذه الواقعة التي نقلها نفس المؤلف. تقول القصة بـأن أحـد المحامين المشهورين في محكمة الجنايات السيد لاشو كان يستخـدم كـثيراً حـق الطعن تجـاه كـل الأشخاص الأذكياء الـذين يمارسون دورهم كأعضاء في اللجنة. ولكن التجربة، والتجربة وحـدها، قد توصلت إلى إفهـام الجميع بعـدم جـدوى الطعن على الإطـلاق. وقد تراجعت وزارة الشؤون العامة والمحـامون، على الأقل في بـاريس، عن مثـل هذه العملية كلياً اليوم. وكما لاحـظ السيد دي غلاجو فـإن الأحـكام الصادرة لم تتغير. «فهي ليست أفضل ولا أسوأ من ذي قبل».

وككلٍ أنـواع الجماهير فـإن المحـلفين يتأثرون جـداً بالعواطف وقـليلاً جـداً بالمحـاكمات العقلية. كـتب أحـد المحـامين يقول: «إنهم لا يستطيعون مقاومة منظر امرأة وهي ترضع ابنها. كما أنهم لا يستطيعون مقاومة منظر موكب اليتامى يمر أمامهم». ويقول السيد دي غلاجو: «يكفي أن تكون امرأة ما لطيفة وأنيقة لكي تكسب تعاطف هيئـة المحلفين».

إن المحلفين لا يبـدون أي شفقة أو رحـمة تجـاه الجرائم التي تنـال منهم والتي هي أخطر شيء بالنسبة للمجـتمع. ولكنهم يبـدون متسامحين تجـاه الجرائم المدعوة بالغرامية أو العاطفية. فهم نـادراً ما يكونون متشددين تجاه الأمهات اللواتي يقتلن أطفالهن بمجـرد ولادتهم، وكـذلك بالنسبة للبنت المهجـورة التي تشوه وجـه الرجـل الذي يريد الإعتـداء عليها. فهم أكثر تسامحاً معها. فهم يشعـرون بواسطة الغريزة أن هذه الجرائم ليست خـطرة جـداً بالنسبة للمجـتمع. وفي المجـتمع الذي لا يحـمي البنات المهجـورات نجـد أن انتقـام إحـداهن مفيد أكثر مما هو ضار لأنـه يـردع المعتدين الآخـرين بشكل مسبق[1].

وهيئات المحلفين مسحورة، ككـل الجماهير، بمظاهر الهيبة والحظوة الشخصية. ولهـذا السبب يـلاحظ الرئيس دي غلاجو بكل حـق بـأن هذه الهيئات الديمقراطية في تشكيلتها تبـدو أرستقراطية في عاطفتها وميولها. يقـول: «إن اسم المحـامي واسم عائلته يشكـلان دعماً كـبيراً للـدفاع عن قضية المتهـم. وكـذلك الأمر فيما يخـص ولادته وثـروته وصيته وشهرته، فكـلها عوامل مساعدة لنجـاح الدفاع».

وأهم شيء بالنسبة للمحـامي الناجح هو أن يعرف كيـف يؤثـر على عواطف المحـلفين. فهـم ككـل أنواع الجماهير لا يحـاكمون الأمور عقلانياً إلا قـليلاً جـداً، أو قـل إنهم لا يستخـدمون إلا الأشكال البدائيـة من التعقل والمحـاكمة العقلية. وقد حـلل محـامي إنكليزي مشهور بمرافعاته الناجحـة في محكمة الجنايات هـذه المنهجية بشكل جـيد. قـال:

«كان يـراقب بدقـة هيئة المحلفين وهو يـقوم بمرافعته. وكانت هي

اللحظـة المؤاتيـة. فعن طريق الفطنـة والتجربة كـان المحـامي يقـرأ على وجوههم تأثير كـل عبارة يقولها وكـل كلمة، ويستخـلص من ذلك النتائج. وكـان يـريد قبل كـل شيء أن يميـز الأعضاء المؤيدين لقضيته عن غيرهم مسبقاً. وبتأشيرة من يـده يتوصل إلى طمأنتهم، ثم يتوجـه بعدئذٍ إلى أعضـاء الهيئة الـذين يبـدون أقـل استعـداداً لسماع وجهـة نـظره. ثم يحـاول أن يفهـم لماذا هـم معادون للمتهـم الـذي يدافع عنه. وهذه هي المرحلة الأشد صعوبة من مهمته لأنه يمكن أن توجد لا نهاية من الأسباب التي تدفعهـم لإدانة المتهـم ما عـدا أسباب العدالة».

إن هذه السطور القليلة تلخـص بـكل دقة هـدف فن الخـطابة الذي يتمتع به المحـامون عادة، كما وتبين لنا عـدم جـدوى الخطابات الجاهـزة المحـضرة سلفاً لأنـه ينبغي تعديل الكلمات المستخـدمة في كـل لحظة وبحسب ردود فعل السامعين.

والخـطيب ليس بحاجة لإقنـاع كـل أعضاء الهيئة المحلفة وإنما فقط القادة المحـركين الـذين يتحكمون بالرأي العام. وكما في كـل أنواع الجماهير فـإن عـدداً صغيراً من الأفـراد هـم الـذين يقودون الآخـرين. يقول المحـامي الـذي استشهدت به قبل قـليل: «لقد عرفت من خـلال التجربة أنه يـكفي في لحـظة إطلاق الحـكم أن يوجـد رجـل واحـد أو رجـلان نشيطان لكي يقنعـا كـل أعضاء اللجـنة ويجـرَّاهم إلى تبني رأيهما». وبالتـالي فـإن المهمة تـكمن في إقنـاع هـذين الرجـلين أو الثلاثة بواسطة اقتراحـات ذكية. فينبغي أولاً وقبل كـل شيء نيـل إعجـابهم. فعندما نحظى بإعجـاب الرجـل المنخـرط في الجمهور فـإننا نـكون قد ضمنا إقناعه ويصبح مستعـدا لقبول الحجج التي نقدمها له ويعتبرها ممتازة. وقد وجـدت في كتاب ممتاز عن السيد لاشو الحـكاية التالية:

«نـحن نعلم أنه طيلة فتـرة كـل المرافعات التي ألقاها في محـكمة الجنايات فـإن لاشو لـم يكن يحـوِّل بصره عن اثنين أو ثلاثة محـلفين كان يعرف أو يشعر بـأنهم نافذون ولكن شرسون. وبشكل عام كان ينجح في إقنـاع هـؤلاء المعانـدين. ولكـنه على الرغم من ذلك وجـد أحـدهم في

الأقـاليم وقد راح يمطره بمحاجاته الأكثر عناداً طيلة ثلاثة أرباع الساعة ولكـن دون جـدوى. وكـان الجـالس الأول في الصف الثـاني وسابع المحـلفين. وقد وصـل به الأمر إلى حـد اليـأس! وفي أثنـاء مرافعة حماسية ملتهبة توقف لاشـو فجـأة وتوجـه بكلامه إلى رئيس محـكمة الجنايات وقـال: السيد الرئيس، ألا تستطيع أن تستدل الستارة المواجهـة لنا. فالسيد المحـلف السابع قد أعمته الشمس. وعندئذٍ احمـر وجه هـذا المحـلف وابتسم وأصبح في صـف محـامي الدفاع»!...

لـقد حـارب كتَّـاب كـبار في الفترة الأخـيرة وبشدة وجـود هيئة المحلفين، هـذا على الرغم من أنها تمثل الحماية الوحيـدة ضد الأخطاء التي كـثيراً ما ترتكبها زمـرة لا رقابة عليها[٢]. فبعض هـؤلاء الكتّـاب يريدون هيئة محـلفين مؤلفة فقط من أعـضاء ينتمون إلى الطبقـات المستنيرة. ولكننا كنا قـد برهنا سابقاً على أنه حـتى في هذه الحالة فـإن الأحـكام الصادرة ستكون مماثلة للأحـكام الصادرة حـالياً. وهناك كتّـاب آخـرون يحتجـون بالأخـطاء التي ترتكبها هيئات المحلفيـن ويخـلصون إلى القول بـضرورة إلغائها وإحـلال القضاة محـلها. ولكـن كـيف يمكنهم نسيان أن الأخـطاء التي يتهمـون المحـلفين بها مرتكبة أولاً وبشكل دائم من قبل القضاة أنفسهم؟ وذلك لأن المتهم المحوَّل للعدالة (عدالة المحلفين) كان قد اعتبر مذنباً من قبل العديد من القضاة، كقـاضي التحـقيق، ونـائب الجمهورية، ومجـلس الاتهـام. ثم ألا يـرون أنه إذا ما حـوكم نهائياً من قبل القضاة بـدلاً من المحـلفين فـإن المتهـم يفقد حظه الوحيـد في الاعتـراف به كـبريء؟ إن اخـطاء المحـلفين كانت دائماً أخـطاء القضاة أولاً. وبالتـالي فينبغي لوم هـؤلاء الأخيرين عندما نـلاحظ وجـود أخـطاء قضائية فـاحشة فعلاً كتـلك الإدانة التي حـصلت للدكتور (س)... فقد لاحقه قاضي التحقيـق بطريقة عنيدة وغبية فقط لأن فتاة نصف مجنونة اتهـمت الدكتور بـأنه قد أجهضها مقابل ثلاثين فرنكاً. وكان سيرسل إلى السجن لولا انفجـار الغضب العام الـذي ساهم في إصـدار العفو عنه مباشرة من قبل رئيس الدولة. إن شرف المتهـم وبـراءته قد أجـمع عليهما كـل مواطنيه وأثبتا بالتـالي فـداحة الخـطأ

المرتكب بحقه. وقد اعترف بذلك القضاة أنفسهم. ولكن على الرغم من ذلك فإن عصبية الزمرة التي تجمعهم دفعتهم إلى محاولة منع التوقيع على قرار العفو. وفي كل القضايا المشابهة المحاطة بتفاصيل تقنية لا نفهم عنها شيئاً نجد أن هيئة المحلفين تستمع بالطبع لوزارة العموم وتقول بينها وبين نفسها أن القضية لا يمكن أن تكون إلا صحيحة لأنها قد درست من قبل القضاة الخبيرين والعارفين. فأين هم إذن المسؤولون الحقيقيون عن الخطأ؟ هل هم هيئات المحلفين أم القضاة؟ لنحتفظ إذن بهذا الكنز الذي نملكه: هيئة المحلفين. فربما كانت تشكل الفئة الوحيدة من الجماهير التي لا يمكن لأي شخصية فردية أن تحل محلها. فهيئة المحلفين هي وحدها القادرة على التخفيف من قساوة القانون الذي بما أنه ينطبق بالتساوي على الجميع، فإنه لا يعترف بالحالة الخاصة أو الاستثنائية. فالقاضي غير حساس للشفقة ولا يعترف إلا بالنصوص، وهو بقساوته المهنية يطبق نفس العقوبة على السارق القاتل وعلى البنت الفقيرة التي تضطر إلى قتل طفلها بسبب هجران صاحبها لها وبسبب البؤس والفاقة. هذا في حين أن هيئة المحلفين تشعر بالغريزة أن البنت المغرَّر بها أقل ذنباً بكثير من صاحبها الذي خدعها. هذا في حين أنه هو الذي ينجو من حكم القانون! وبالتالي فنحن نعتقد أنها تستحق التسامح والتساهل من قبل القانون.

وبما أني أعرف نفسية الزمر ونفسية الفئات الأخرى من الجماهير فإني لا أعرف أي حالة أكون فيها شخصياً متهماً عن خطأ بارتكاب جريمة ما إلا وأفضل أن أحاكم من قبل المحلفين لا من قبل القضاة. فمع الأولين سيكون حظي أكبر من الاعتراف ببراءتي، وسيكون حظي أقل بكثير مع الأخيرين. لنخشى إذن جبروت الجماهير، ولكن لنخشى أكثر جبروت بعض الزمر وتحكمها فينا. فالبعض قد يمكن إقناعهم وأما الآخرون فلا يحيدون عن موقفهم أبداً.

الفصل الرابع

الجماهير الانتخابية

إن الجماهير الانتخابية، أي الجماعات المدعوة لانتخاب المسؤولين عن بعض المراكز والمناصب، تشكل جماهير غير متجانسة. وبما أنها لا تؤثر إلا على نقطة واحدة محددة، أي اختيار شخص من بين مرشحين عديدين، فإننا لا نستطيع أن نجد لديها إلا بعض خصائص الجماهير التي عددناها آنفاً. والصفات الأساسية التي تتجلى لديها هي بشكل خاص: ضعف القابلية للتفكير العقلاني، انعدام الروح النقدية، النزق وسرعة الغضب، السذاجة وسرعة التصديق، التبسيطية. ونعثر أيضاً في قراراتهم على تأثير القادة المحركين وعلى دور العوامل التي عددناها سابقاً: كالتوكيد، والتكرار، والهيبة الشخصية، والعدوى.

لنبحث أولاً عن كيفية إغراء هذه الجماهير. فمن دراسة هذه المجريات والأساليب التي تنجح في إغرائها أكثر يمكننا أن نستخلص نفسيتها بشكل أفضل.

فأول صفة ينبغي أن يمتلكها المرشح للإنتخابات هي الهيبة الشخصية. فالهيبة الشخصية لا يمكن أن تعوَّض بأي شيء آخر إلا بواسطة الثروة والغنى. ذلك أنه حتى الموهبة والعبقرية لا يمكنهما أن تكونا عنصر نجاح.

إن حاجة المرشح الماسة لأن يكون متجلبباً برداء الهيبة الشخصية وبالتالي في فرض نفسه على الآخرين دون مناقشة هي شيء أساسي

وحـاسم. وإذا كـان الناخـبون المشكلون أساساً من العمال والفلاحـين نادراً ما يختـارون شخصاً من بينهـم لتمثيلهم في مجـلس النواب، فـذلك لأن الشخصيات الخـارجة من أوساطهـم ليس لها أي هيبة شخصية. فهـم لا ينتخـبون رجـلاً مساوياً لهـم إلا لأسباب ثانوية، كأن يـريدوا مثلاً الوقوف في وجـه شخصية شهيرة أو رب عمل قـوي جـداً يقع الناخـب تحت سلطته يومياً والـذي يتوهم بالتـالي أنـه سيده.

ولكـن امتـلاك صفة الهيبة الشخصية لا يـكفي لضمـان نجـاح المرشح. فالنـاخب يرغب في أن يتمـلق المرشح رغباته وأطماعه وعجـبه وغـروره. وينبغي على المرشح أن يغمره بالتزلف والتملـق كما وينبغي عليه ألا يتـردد في تـوزيع أكبر الوعود عليه. فأمام جمهور من العمال مثلاً ينبغي عليه شتم أربـاب العمل وفضحهـم بقدر الإمكان. وأما فيما يخـص المرشح المضاد أو المنافس فـإنه يحـاول سحـقه عن طريق تـكريس الإتهـامات بـواسطة التأكيد والتكـرار والعدوى، والقول بـأنه أحـط الأوغاد وأن الجـميع يعرفون أنه قـد ارتكب جـرائم عـديدة. وبالطبع فـلا داعي للبحـث عن أي برهـان على هذه الاتهـامات. فـإذا كان الخـصم لا يعرف جـيداً نفسية الجماهير فـإنه سيحـاول تبرير نفسه بواسطة محاجـات عقلانية بدلاً من أن يـرد بـكل بساطة بتأكيدات مضادة ونمائم مضادة أيضاً. وإذا لم يفعل ذلك فـلن يكون له آنـذاك أي حـظ في الانتصـار.

والبرنـامج المكتوب للمرشح لا ينبغي أن يـكون دقيقاً جـداً أو قطعياً جـداً لأن خـصومه يمكنهم أن يواجهـوه به فيما بعد. وكـذلك برنـامجه الشفهي لا ينبغي أن يـكون متطرفاً أو مبالغاً فيه أكثر مما يجـب. بـالطبع يمكنه أن يعد نـاخبيه بالإصلاحـات الضخمة، دون أي خـوف من ذلك. فهـذه الوعود المبـالغ فيهـا تولد آثاراً ضخـمة على النـاخبين في لحـظتها، وهو ليس مضطراً للالتـزام بها بعد نجـاحه. فالناخـب لا يهتم لاحقاً أبـداً بمسألة التحـقق فيما إذا كـان المرشح قد التـزم بتطبيق وعـوده أم لا، بـل إنه ينسى ذلك تماماً على الرغم من أن الإنتخـابات تكون قد حسمت على أساس هذه البرامج والوعـود.

وهكذا نعثر هنا على كل عوامل الإقناع التي درسناها سابقاً. وسوف نلتقي بها أيضاً عندما ندرس تأثير **الكلمات** و **الشعارات** التي يستخدمها المرشحون. وكنا قد أشرنا أيضاً إلى مدى هيمنتها على نفوس الجماهير. فالخطيب الذي يعرف كيفية استخدامها والتلاعب بها يقود الجماهير كما يشاء ويشتهي. فشعارات من نوع: الرأسمال الكريه، المستغلون الحقيرون، العامل الرائع، التوزيع الاشتراكي للثروات، إلخ... تولد دائماً نفس الآثار الإيجابية على الرغم من أنها قد استهلكت من كثرة الاستخدام. ولكن المرشح الذي يستطيع أن يكتشف شعارات جديدة خالية من أي معنى دقيق أو محدد وبالتالي فقابلة للإنطباق على الحالات الأكثر اختلافاً وتلبية مختلف الآمال، فإنه يحقق نجاحاً مؤكداً. فالثورة الدموية الإسبانية لعام (١٨٧٣) اندلعت بواسطة إحدى هذه الكلمات السحرية بالمعنى المعقد للكلمة، والتي يمكن لكل شخص أن يفسرها بحسب هواه وآماله. وقد تحدث أحد الكتاب المعاصرين عن منشأ هذه الثورة بكلمات تستحق أن تنقل كما هي:

«كان الراديكاليون قد اكتشفوا أن الجمهورية الوحدوية ليست إلا عبارة عن نظام ملكي مقنَّع. ولكي يؤكدوا لهم ذلك كان الكورتيون قد أعلنوا الجمهورية الفيدرالية بصوت واحد دون أن يستطيع أي واحد من الذين صوتوا أن يقول ماذا فعل بالضبط. ولكن هذه الصيغة قد أعجبت كل العالم، وكان الجو مليئاً بالهذيان والحماسة والاندفاع. فقد دشنوا على سطح الأرض عهد الفضيلة والسعادة. فالجمهوري الذي كان عدوه يرفض أن يصفه بالفيدرالي كان يعتبر ذلك بمثابة إهانة وشتيمة لا تغتفر. وكانوا يحيُّون بعضهم البعض في الشوارع قائلين: **مرحباً أيها الجمهوري الفيدرالي!** وبعدئذٍ كانوا يرتلون الأناشيد الداعية للعصيان المقدس ولاستقلالية الجندي. ولكن ماذا كانت تلك «الجمهورية الاتحادية»؟ في الواقع أن البعض كان يقصد بها تحرير المحافظات والأقاليم وإقامة مؤسسات مشابهة لتلك الموجودة في الولايات المتحدة حيث توجد اللامركزية الإدارية. وأما البعض الآخر فكانوا يفهمونها على أساس أنها تعني إلغاء لكل سلطة وتدشيناً وشيكاً للثورة

الاجتماعية الكبرى. وأما الإشتراكيون في برشلونة والأندلس فكانوا يدعون إلى السيادة المطلقة لكل البلديات. وكانوا يريدون أن يقدموا لاسبانيا عشرة آلاف بلدية مستقلة لا تتلقى القوانين إلا من ذاتها وتلغي دفعة واحدة كلاً من الجيش والدرك. ثم شهدنا بعدئذٍ بقليل انتشار التمرد والعصيان في أقاليم الجنوب من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية. وما إن تكون بلدية ما قد قامت بعصيانها حتى تلجأ أولاً وقبل كل شيء إلى قطع وسائل الإتصال بكل جاراتها وبالعاصمة مدريد (قطع التلفون وسكك الحديد). ولم تكن توجد أي بلدة صغيرة إلا وتريد تحقيق استقلاليتها الذاتية. وهكذا أدت النزعة الفيدرالية إلى نوع من الأقليمية الضيقة والفجة، الحارقة والمدمرة. وفي كل مكان راحوا يحتفلون بأعياد الخلاعة».

وأما فيما يخص التأثير الذي قد تحدثه المحاجات العقلانية على نفسية الناخبين فإنه ينبغي على المرء ألا يكون قد قرأ أي محضر جلسة عن الاجتماعات الإنتخابية لكي لا يفهم شيئاً عن الموضوع. ففيها يتبادلون الآراء القاطعة والتأكيدات الجازمة والشتائم وأحياناً اللطمات العنيفة، ولا يتبادلون أبداً المحاجات العقلانية. وإذا ما حصل أن ران الصمت لحظة واحدة فذلك لأن أحد المشاركين قد طرح سؤالاً محرجاً على المرشح، وهذا ما يمتع الحضور دائماً. ولكن سرور المعارضين لا يدوم طويلاً لأن صوت المرشح سرعان ما تغطيه صيحات الخصوم. ويمكننا أن نعتبر كمثال نموذجي على الاجتماعات الإنتخابية العامة محاضر الجلسات التالية التي أخذناها من بين مئات المحاضر الأخرى. وقد اقتطفتها من الصحافة اليومية. تقول هذه المحاضر:

«وعندما طلب أحد المنظمين من الحضور أن يعينوا رئيساً للاجتماع فإن العاصفة اندلعت. وكان الفوضويون يقفزون على المسرح من أجل انتزاع المكتب بالقوة. وراح الاشتراكيون يدافعون عنه بقوة، وحصل التناطح واللطم، وراحوا ينعتون بعضهم البعض

بالجـواسيس والعملاء، إلخ . . . وانسحـب أحـد المواطنين وعينه متورمـة .

وأخـيراً أعـادوا مكتب التصويت إلى مكانـه وسط الجلبة والضوضاء، وبقيت المنصة للسيد (س) . . .

وراح الخطيب يصب جـام غضبه وحقده على الاشتراكيين الـذين قاطعوه قائلين : «أيها القميء! أيها اللص! أيها الوغد!»، إلخ . . . ورد الخطيب (س) على هذه النعوت باستعـراض طويل لنظرية تقول بـأن الإشتراكيين هم عبـارة عن «حمقى» أو «مهرجـين» .

. . . وأما الحـزب الأليماني فقد نظم مساء أمس في قاعة التجـارة بشارع فوبورغ دو تامبل اجتماعاً كـبيراً وتحـضيرياً لعيد العمال الواقع في الأول من مايو/أيـار . وكان شعاره «الهـدوء والطمأنينة» .

وقد نعـت الرفيق (ج . . .) الاشتراكيين بـأنهم «قميئـون» و «هزليون» وبسبب هذه الشتائم المتبادلة بين الخطباء والحـضور حصلت اشتباكات بالأيدي بينهم، واستخـدمت فيها الكراسي والمقاعد والطاولات، إلخ . . . » .

ينبغي ألا نتوهم أن مثل هذا النوع من المنـاقشات هو حـكر على طبقة معينة من النـاخبين دون غيرهم، أو أنها ناتجة عن حـالتهم الاجتماعية المتدنية . فالواقع أنه في كـل التجـمعات المغفلة نـلاحظ أن المناقشات تتخـذ نفس الطابع ونفس الأسلوب وتستخـدم نفس العبارات والكلمات حـتى ولو كان التجـمع مؤلفاً من المثقفين والمتأدبين . كـنت قد برهـنت على أن البشر المنخـرطين في الجمهور يميلون نحـو التساوي من الناحية العقلية والذهنية . وفي كل لحـظة نجـد البرهان على ذلك . إليكم الآن محضراً عن اجتماع مؤلف من الطلاب فقط :

«راح الصخـب يزداد كلما تقدمت السهرة . ولا أعتقـد أن أي خطيب استطاع أن يقول جملتين متتاليتين دون أن يقاطعه أحـد . وفي كل لحـظة كانت الصيحات تنطلق من هذه النقطة أو تلك، أو من كـل

الجهات في آن معاً. وكانوا يصفقون ويصفرون. وراحت المناقشات العنيفة تندلع بين مختلف السامعين، وارتفعت العصيّ في الجو مهددة بالضرب، وراحوا يضربون أرضية القاعة بشكل إيقاعي. وراح المشاغبون يلاحقون المقاطعين صارخين: «أخرجوا!» «اصعدوا على المنصة!».

وراح (م. س) يقذف الرابطة بكل أنواع النعوت السلبية: كالغبية والجبانة والمتوحشة والحقيرة والعميلة والحقودة. ثم صرح بأنه سيدمرها، إلخ...

ونحن نتساءل: كيف يمكن ضمن هذه الشروط أن يتشكل رأي الناخب؟ ولكن طرح مثل هذا السؤال يعني أننا نتوهم كثيراً حول درجة الحرية التي تتمتع بها جماعة ما أو جمهور ما. فالواقع أن للجماهير آراء مفروضة عليها، وليست ناتجة أبداً عن جهد ذهني أو محاكمة عقلية. وهذه الآراء بالإضافة إلى أصوات الناخبين تظل بين يدي اللجان الإنتخابية التي يقودها المحركون الذين هم في الغالب فئة من تجار الخمور. ولهم تأثير كبير على العمال لأنهم يقرضونهم بعض المال. كتب السيد شيرير أحد كبار المدافعين عن الديمقراطية يقول:

«هل تعرفون ما معنى لجنة انتخابية؟ إنها بكل بساطة مفتاح مؤسساتنا والركن الأساسي في آلتنا السياسية. أن فرنسا اليوم محكومة من قبل اللجان الإنتخابية»[1].

وبالتالي فليس من الصعب جداً التأثير عليها بشرط أن يكون المرشح مقبولاً ويمتلك موارد مادية كافية. وبحسب اعترافات الواهبين فإنه قد لزم لإنجاح الجنرال بولانجيه في الإنتخابات ثلاثة ملايين فرنك.

هذه هي نفسية الجماهير الإنتخابية. إنها مماثلة لنفسية الجماهير الأخرى، لا أحسن ولا أسوأ.

وإذن فإني لا أستخلص مما سبق أي خلاصة ضد حق التصويت

العام. وإذا كـان تقرير مصيره بيـدي فـإني سأحـافظ عليه كما هو لغايات عملية ناتجـة بالضبط عن دراستنا لنفسية الجماهير. وسوف أستعرض هذه الغايات بعد أن أكـون قد نبهـت إلى مساوىء التصويت العام.

بالطبع فـإن مساوىء التصويت العام هـي واضحة جـداً إلى درجة أنه لا يـمكن لأحـد أن يجهلها. فلا أحـد يستطيع أن يجحـد أن الحضارات هي من صنع أقليـة صغيرة متفوقة تشكل قمـة الهرم الإجتماعي. وتتسع طبقات هذه الهرم كلما نزلنا نحـو القاعدة ويتوافق ذلك مع تناقص القيمة العقلية لكل طبقة سفلى بالقيـاس إلى الطبقة العليا حـتى نصل إلى القاع. وهذه كلها تشكل الطبقات العميقة لكل أمة. وعظمة حضارة ما لا يـمكن أن تعتمد على تصويت العناصر الدنيـا من الأمة، فهـذه لا تمثـل إلا الكثـرة العددية. لا ريب في أن تصويت الجماهير لا يـزال خطر حـتى الآن. فهـو الـذي جـلب علينا غـزوات عديدة. وإذا ما انتصرت الإشتراكية فـإن نـزوات السيادة الشعبية سوف تكلفنا ثمناً غالياً أيضاً، بـل وأغلى من السابق.

ولكـن هذه الاعتراضات التي لا غبـار عليها من الناحيـة النظرية تفقد عملياً كـل قوتها إذا ما تذكرنا القوة الجبـارة التي لا تقهـر للأفكـار عندما تتحـول إلى عقـائد إيمانية. إن عقيدة السيادة الجماهيرية لا يـمكن الدفاع عنها من الناحية الفلسفية مثلها في ذلك مثل العقائد الدينية في الـقرون الوسطى، ولكنها تسيطر اليوم كلياً. وبالتـالي فمن المستحيل مهاجمتها اليوم كما كـان مستحيلاً مهاجمة الأفكـار الدينية في الماضي البعيد. لنفترض أن مفكراً حـراً حـديثاً قد انتقل للعيش في الـقرون الوسطى بواسطة قـوة سحرية. فهل تعتقدون أنه كان سيجـرؤ على محـاربة هذه الأفكار الدينية المسيطرة بـكل جبروتها على النفوس؟ وإذا ما سقط في يـدي قـاضٍ ما أراد حرقه بتهمة أنه عقـد حلفاً مع الشيطان أو أنـه تـردد على محفله في منتصف الليل، فهـل كان سيجـرؤ على نفي وجـود الشيطان أو محفله؟ ولا يمكننا منـاقشة عقائد الجماهير كما لا يمكننا مناقشة الإعصـار. إن عقيدة حـق التصويت العام تمتلك اليوم نفس القوة الجبروتية التي كانت تمتلكها العقائد المسيحية سابقاً.

فالخطباء والكتَّاب يتحدثون عنها بكل احترام وخشوع لم يكن يحظى به الملك لويس الرابع عشر. وبالتالي فينبغي أن نتعامل معها كما كانوا يتعاملون مع كل العقائد الدينية. فالزمن وحده قادر على التأثير عليها.

إن محاولة زعزعة هذه العقيدة سوف يكون عديم الجدوى وخصوصاً أن الأسباب الواضحة والجلية تعمل لصالحها. يقول توكفيل بحق:

«في زمن المساواة لا يعود البشر يثقون ببعضهم البعض بسبب تشابههم، ولكن هذا التشابه يعطيهم ثقة لا حدود لها تقريباً في حكم الجمهور العام ورأيه، وذلك لأنهم يجدون من غير الممكن ألا تكون الحقيقة في جهة العدد الأكبر بما أن الجميع يمتلكون نفس العقل».

والآن هل يمكننا أن نفترض أن التصويت ينبغي أن يحصر بعدد محدود من الناس، أي بالنخبة، وبالتالى فيحسن ذلك صوت الجماهير؟ لا أستطيع قبول هذه الاحتمالية لحظة واحدة وذلك للأسباب المشار إليها آنفاً وخصوصاً للسبب التالي: هو الدونية العقلية لكل التجمعات والجماهير بالقياس إلى الفرد الواحد، أياً تكن نوعية هذه الجماهير وتركيبتها. ففي الجمهور، ولأكرر ذلك مرة أخرى، يتساوى البشر كلهم دائماً. ورأي أربعين عالم من الأكاديمية الفرنسية بخصوص القضايا العامة لا يختلف اطلاقاً عن رأي أربعين سقاءً (أو ناقل مياه). ولا أعتقد أن الانتخابات التي طالما عابوها على التصويت العام واعتبروها سلبية في نتائجها (كإعادة النظام الإمبراطوري إلى فرنسا مثلا) كانت ستختلف لو أن التصويت انحصر فقط بالعلماء والأدباء. فأن يكون المرء عارفاً باللغة اليونانية أو بالرياضيات، أو أن يكون مهندساً معمارياً أو طبيباً بيطرياً أو طبيباً عاماً أو محامياً لا يعني أنه مزود فيما يخص مسائل العاطفة باستنارة خاصة تميزه عن الإنسان الأمي أو العادي. وكل خبرائنا في الإقتصاد هم أناس مثقفون، كلهم أساتذة وأكاديميون في معظمهم. فهل استطاعوا أن يُجمِعوا على مسألة عامة واحدة كمسألة الحماية الإقتصادية مثلاً؟ فأمام المشاكل الإجتماعية

المليئة بالمجاهيل العديدة والمُسَيطَر عليها من قبل المنطق الصوفي أو المنطق العاطفي كـل الجهلة يتساوون.

وبالتـالي فـإذا كـان الناخـبون كلهـم أناساً مـليئين بالعلم فـإن نتـائج التصويت لن تـكون أفضـل مما هي عليه الآن. فستقودهم حتماً عواطفهم وروح الحـزب الـذي ينتمون إليه. ولن تنقص مشاكلنا عندئذٍ أبـداً، بـل على العكس ستزداد عن طريق الطغيان الثقيل للزمر ومصالحهـا.

وسواء أكـان التصويت العام محـصوراً بفئـة ضيقة أم عاماً يشمل الجميع، وسواء أطبق في بلد ملكي أم في فرنسا أم في بلجيكا أم في اليونان أم في البرتغال أم في إسبانيا فـإن تصويت الجماهير سوف يظل هو هو ويعبر غالباً عن آمـال العرق وحاجياته اللاواعية. ومتوسط المنتخـبين بالاقتـراع العام يمثل بالنسبة لكل أمة الروح المتوسطة لعرقها. فهـذا المتوسط نجـده تقريباً هو ذاته من جـيل إلى جـيل.

وهـكذا نجـد أنفسنا وقد وقعنـا مـرة أخـرى على مفهـوم العرق الحـاسم هـذا. وكنـا قد التقينا به في الماضي غالباً. كما ونجـد أنفسنا محـكومين بحقيقة أخـرى مشتقة منه وهي أن المؤسسات والحـكومات تلعب دوراً ضعيفاً جـداً في حيـاة الشعوب. فهذه الشعوب مقودة بشكل خـاص من قبل روح عرقها، أي من قبل بقايا الأسلاف العتيقة التي تشكل هذه الروح خلاصتها. إن العرق ودوامة الحاجيـات اليومية هما السيدان السريـان اللـذان يتحكمان بمصائرنا.

الفصل الخامس

المجالس النيابية

إن المجالس النيابية تشكل جماهير غير متجانسة وغير مغفلة (أي معروفة أسماء أعضائها، فهم نواب). وعلى الرغم من اختلاف طرائق انتخابها طبقاً للعصور والشعوب فإنها تتشابه كثيراً بصفاتها وخصائصها. إن تأثير العرق يفعل فيها لكي يخفِّف من هذه الصفات أو يضخمها ولكن ليس من أجلٍ منع ظهور هذه الخصائص. والمجالس النيابية للأقطار الأكثر اختلافا كاليونان وإيطاليا والبرتغال واسبانيا وفرنسا وأمريكا تبدي من خلال مناقشاتها وأصواتها تشابهاً كبيراً وتطرح على حكومات هذه البلدان نفس الصعوبات والمشاكل.

إن النظام البرلماني يلخص في الواقع المثال الأعلى لكل الشعوب المتحضرة الحديثة، إنه يجسد تلك الفكرة الخاطئة من الناحية النفسية ولكن المقبولة بشكل عام وشامل. تقول هذه الفكرة بأن تجمع العدد الكبير من الناس يكون أكثر قدرة من العدد الصغير على اتخاذ قرار حكيم ومستقل بخصوص موضوع محدد.

إننا نعثر في المجالس النيابية على الخصائص العامة للجماهير: كالتبسيطية في الأفكار، والنزق وسرعة الغضب، والقابلية للتحريض، والمبالغة في العواطف، والتأثير الكاسح للمحركين والقادة. ولكن بسبب من تركيبتها الخاصة فإن الجماهير البرلمانية تبدي بعض الخصائص المختلفة عن بقية الجماهير. وسوف نتحدث عنها بعد قليل.

إن التبسيطية في الآراء هي إحدى خصائصها الأكثر وضوحاً

وجلاء. فنحن نجد لدى كل الأحزاب، ولدى كل الشعوب اللاتينية أساساً، ميلاً دائماً لحل المشاكل الاجتماعية الأكثر تعقيداً بواسطة المبادىء التجريدية الأكثر بساطة وبواسطة القوانين العامة المطبقة على كل الأوضاع والحالات. بالطبع فإن المبادىء تختلف من حزب إلى آخرٍ، ولكن بمجرد أن ينخرط الأفراد في جمهور ما فإنهم يميلون دائما إلى تضخيم قيمة هذه المبادىء وإلى الدفع بها حتى نهاياتها. وهكذا يمكن القول بأن المجالس النيابية تمثل آراءً متطرفة.

والنموذج الأكثر جلاء على تبسيطية المجالس النيابية تحقق على يد اليعاقبة أثناء ثورتنا الكبرى. فقد كانوا كلهم دوغمائيين ومنطقيين، وكان دماغهم مليئاً بالعموميات الغامضة. وكانوا حريصين على المبادىء الثابتة دون أي اهتمام بالأحداث والوقائع الحية. ويمكننا أن نقول بهذا الصدد أنهم قد اجتازوا الثورة دون أن يروها.

فبواسطة بعض العقائد الدوغمائية القليلة كانوا يتوهمون بأنهم يعيدون صنع المجتمع من جديد، وإنهم يعيدون الحضارة المهذبة والرقيقة إلى مرحلة سابقة جداً من التطور الاجتماعي. والوسائل التي استخدموها لتحقيق هذا الحلم كانت أيضاً مطبوعة تبسيطية مطلقة. فلم يتورعوا في الواقع عن تدمير كل العقبات التي تعترض طريقهم بعنف. وكانوا جميعاً من جيروندیين وجبليين وتيرميدوريين، إلخ... مشبعين بنفس الروح.

إن الجماهير البرلمانية شديدة القابلية للتحريض والعدوى. وكما هي العادة دائماً فإن التحريض يصدر عن محرِّكين أو قادة محاطين بهالة الهيبة الشخصية. ولكن قابلية التحريض والعدوى تظل محدودة في المجالس النيابية، وذلك للأسباب التالية.

فيما يخص كل المسائل ذات الأهمية المحلية نجد أن كل نائب يمتلك آراء ثابتة وراسخة لا يمكن لأي مناقشة عقلانية أن تزعزعها. فكل موهبة ديموستين لا يمكن أن تتوصل إلى تغيير صوت نائب ما بخصوص مسائل من نوع الحماية الاقتصادية أو امتيازات صانعي

المشروبات الكحولية الذين يمثلون مطالب الناخبين النافذين. والاقتراح التحريضي السابق لهؤلاء الناخبين غالب ومهيمن إلى الحد الذي يلغي فيه كل الاقتراحات الأخرى ويحافظ على ثبوتية مطلقة للآراء[1].

وفيما يخص المسائل العامة كقلب وزارة أو فرض ضريبة ما، إلخ... نجد أن ثبوتية الرأي تختفي، ويمكن عندئذٍ للاقتراحات التحريضية للمحركين والقادة أن تفعل فعلها، ولكن ليس تماماً كما يحصل في جمهور عادي. ولكل حزب محركوه وقادته الذين يمارسون أحياناً نفوذاً متساوياً. وبالتالي فإن النائب يجد نفسه مُتَنَازعاً بين عدة اقتراحات تحريضية متناقضة ويصبح بالضرورة شديد التردد. هكذا نجده غالباً يغير رأيه في التصويت قبل ربع ساعة فقط، ويصوت بطريقة مغايرة لما كان قد أعلنه سابقاً، أو يضيف إلى قانون ما مادة تلغيه: كأن يحرم الصناعيين مثلاً من حق اختيار عمالهم أو طردهم ثم يقدم بعدئذٍ تعديلاً على القانون يؤدي إلى إلغاء مفعوله تقريباً.

ولهذا السبب نجد في كل دورة نيابية أن البرلمان يبدي آراء ثبوتية جداً وأخرى ملتبسة جداً. وفي نهاية المطاف لما كانت المسائل العامة هي الأكثر عدداً فإن الالتباس هو الذي يتغلَّب. وهذا الالتباس يغذيه الخوف المستمر من الناخب، والاقتراح التحريضي المضمر لهذا الخوف يتوصل دائماً إلى موازنة تأثير القادة المحركين.

وهؤلاء الأخيرون هم في نهاية المطاف الأسياد الحقيقيون للمناقشات التي لا يكون للنواب آراء مسبقة أو ثابتة تجاهها.

إن الحاجة للقادة المحركين شيء لا جدال فيه لأننا نجدهم في كل البلدان تحت اسم رؤساء المجموعات النيابية. إنهم الملوك الحقيقيون للمجالس النيابية. والناس المنخرطون في الجمهور لا يمكنهم الاستغناء عن زعيم أو سيد، ولهذا السبب فإن التصويت الجاري في مجلس نيابي ما لا يعبر عموماً إلا عن رأي أقلية صغيرة.

إن القادة المحركين، ولنكرر ذلك مرة أخرى، يتحركون قليلاً جداً بواسطة العقل والمحاكمة العقلية، وكثيراً جداً بواسطة هيبتهم

الشخصية. وإذا ما عرَّتهم منها حالة ظرفية ما فإنهم يفقدون كل تأثير ونفوذ.

وهذه الهيبة التي يتمتع بها القادة المحركون فردية ولا علاقة لها لا بالإسم ولا بالشهرة. كان السيد جول سيمون قد عرف البرلمان كنائب وتحدث عن رجاله العظام عام (١٨٤٨)، وقدم لنا أمثلة مدهشة وغريبة فعلاً. يقول:

«لم يكن لويس نابليون شيئاً يذكر قبل شهرين فقط من تحوله إلى شخص جبار».

ثم صعد فيكتور هيغو إلى المنصة، ولم ينجح في مهمته. وقد استمعوا إليه كما يستمعون لفيلكس بيات، ولكنهم لم يصفقوا له بنفس القدر. قال لي فولابيل وهو يتحدث عن فيلكس بيات: «لا أحب أفكاره، ولكنه أحد كبار كتّاب فرنسا وخطبائها». أما إدغار كينيه، ذلك الرجل النادر والعظيم فلم يكن له أي شأن. فقد عرف شعبية كبيرة للحظة ما قبل افتتاح المجلس النيابي، ولكنه لم يكن يحظى داخل المجلس بأي شعبية.

إن المجالس النيابية السياسية هي آخر محل في الأرض يمكن للعبقرية أن تشع فيه. فلا أهمية فيه إلا للفصاحة الخطابية المتناسبة مع الزمان والمكان، وللخدمات المقدمة للأحزاب السياسية لا للوطن. أما الجمهور العادي فيتلقى هيبة القائد المحرك ولا يدخل في سلوكه أي مصلحة شخصية ولا ينتظر جزاء ولا شكوراً.

إن محرك الجماهير المزود بهيبة كافية يمتلك سلطة مطلقة تقريباً. ونحن نعرف حجم النفوذ الهائل الذي يتمتع به نائب مشهور طيلة سنوات عديدة بفضل هيبته الشخصية التي تضيع فيما بعد مؤقتاً بسبب بعض الأحداث والمشاكل المالية. فقد كان قادراً بمجرد إشارة من قِبَله أن يقلب وزراء عديدين. وقد سجل أحد الكتّاب في السطور التالية بشكل واضح أهمية عمله:

«نحن مدينون للسيد (م. س)... بأننا اشترينا جزيرة التونكان بسعر أغلى بثلاث مـرات مما كان ينبغي أن يكلفنا، وبـأننا لم نرسِّخ أقدامنا في مدغشقر، وبـأننا حرمنا أنفسنا من إمبراطورية كاملة على حوض النيجـر، وبـأننا خسرنا وضعنا المهيمن الـذي كنا نحتله في مصر. هـكذا نجـد أن نظريات (م. س)... قد كلفتنا من خسارة الأراضي أكثر مما كلفتنا مغامـرات نابليون الأول وكوارثه».

ولا ينبغي أن نـلوم كثيراً هـذا المحرك القائد المعنيّ بالكلام السابق. بالطبع فقد كلفنا غالياً جـداً، ولكن قسماً كـبيراً من تـأثيره عائد إلى أنه كان يتبع رغبات الرأي العام الـذي كانت آراؤه بخـصوص المسائل الاستعمارية مختلفة عما أصبحت عليه اليوم. إن المحـرك نادراً ما يسبق الرأي العام، بـل هو يجهـد في الغالب الأعم في تبني أخطائه.

والوسائل الإقناعية التي يستخـدمها المحركون بعد الهيبة الشخصية هي العوامل التي كنا قد عددناها مـرات عديدة. ولكي يتصرف بها بـذكاء ينبغي على المحرك أن يفهم أعماق نفسية الجماهير على الأقل بطريقة لا واعية. وينبغي أن يعرف كـيف يتحـدث إليها، وكـيف يعرف بشكل خـاص أن يستخـدم التأثير السحري للكلمات والشعارات والصور الإيحائية. وينبغي عليه أن يمتلك فصاحة خاصة تستخـدم طريقة التأكيـدات القاطعة والواثقة من نفسها، كما وتستخـدم الصور الإنطباعية المؤثرة والمحاطة بمحاكمات عقلية مبتسرة ومخـتزلة. ويمكننا أن نجـد هـذا النوع من الفصاحة البلاغية في كـل المجـالس النيابية بما فيها البرلمان الإنكليزي على الرغم من أنه أكثرها اتزاناً ورزانة. يقول الفيلسوف الإنكليزي «مين»:

«يمكننا أن نقـرأ دائماً منـاقشات مجـلس العموم حـيث نجـدها تقتصر على تبـادل العموميات الضعيفة التي تقوم بها شخصيات عنيفة بما فيه الكفاية. وهـذا النوع من العبـارات العمومية يمارس تأثيراً هـائلاً على مخيلة الناس في الديمقراطيات الحقيقية. فمن السهل دائماً أن نجعل جمهوراً ما يقبل المزاعم الأكثـر عمومية والمعروضة بـلغة مؤثـرة، هـذا

على الرغم من أنها غير محقَّقة وربما كان من المستحيل التحقُّق من صحتها».

إن أهمية «اللغة المؤثرة» المذكورة في هـذا المقطع ليست بحاجة إلى برهـان، ومهـما ألححنا عليها فلن نبالغ في ذلك. كنا قد ألححنا أكثر من مـرة على مـدى القوة والتأثير الخاص للكلمات والشعارات أو العبارات المختارة بطريقة تثير صوراً إيحائية وحية جـداً. إن العبـارة التالية التي استعرناها من خـطاب أحـد المحركين في المجـالس النيابية تقدم لنا عيِّنة ممتازة على ما نقول:

«في اليوم الذي تحـمل فيه نفس السفينة نحـو الأرض المضطربة للنفي والتغريب ذلك السياسي الفاسد والفوضوي القاتل في آن معاً، أقول في ذلك اليوم يمكنهما أن يتناقشا مع بعضهما البعض ويبـدوان لبعضهـما البعض كوجهـين متكاملين لنفس النظام الاجتماعي».

فالصورة المثـارة هنا واضحة، جـلية، مؤثرة. وكل خـصوم هذا النائب الخـطيب يشعرون بـأنهم مهـددون من قبلها. فهـم يـرون دفعة واحـدة البلدان المضطربة الهائجة، والسفينة التي قد تحملهم. أفلا يمكن القول إذن بـأنهم يشكلون جـزءاً من تـلك الفئة المحـدودة جـداً من السياسيين المهدَّدين؟ ويشعرون عندئذٍ بـذلك الخوف الصامت الـذي أحـس به أتبـاع الجمعية الوطنية المهـددين بشفرة المقصلة من قبل الخطابات الغامضة لروبسبيير. وكـان هذا الخـوف يجـرهم دائماً إلى الخـضوع.

ومن مصلحة المحركين أن يبـالغوا في الأمور ويضخموها إلى أبعـد حـد. فالخطيب الذي استشهدت بعبارة له قبل قليل استطاع أن يـؤكد بـدون أن يثير كـبير احتجاج بـأن أصحـاب المصارف والكهنة يستأجـرون قاذفي القنابل للعمل لصالحهـم!، وبـأن مديري الشركات المالية الكبرى يستحـقون نفس العقوبات كما الفوضويين. إن مثـل هذه الأساليب تؤثر دائماً على الجماهير. فمهما يـكن التأكيد مبالغاً فيه لا يـكون غاضباً بما فيه الكفاية، ولا الخطابة مهدِّدة بما فيه الكفاية. ينبغي دائماً تقديم المزيد

منهما. ولم يعد هناك أي شيء يخيف السامعين. فهم إذا ما احتجوا خافوا من اتهامهم بالخيانة أو التواطؤ.

وهذه الفصاحة الخطابية الخاصة هيمنت كما قلت قبل قليل على كل المجالس النيابية. وفي الفترات الحرجة تزداد حدتها. إن قراءة الخطب التي ألقاها الخطباء الكبار للثورة الفرنسية ممتعة جداً وعظيمة الدلالة من وجهة النظر هذه. فقد كانوا يعتقدون أنهم مضطرون لقطع خطابهم في كل لحظة من أجل فضح الجريمة وتمجيد الفضيلة، ثم ينفجرون باللعنات ضد الطغاة، ويقسمون بأنهم سيعيشون أحراراً أو يموتون. وكان الحضور ينهضون ويصفقون لهم بكل هيجان ثم يعودون للجلوس بعد أن يهدأوا.

ويمكن للقائد المحرك أن يكون أحياناً ذكياً ومثقفاً. ولكن ذلك يضره عموماً أكثر مما ينفعه. إن الذكاء إذ يبين تعقد الأشياء ويتيح تفسيرها وشرحها يجعل المرء أكثر تسامحاً ويُضعِف بالتالي إلى حد بعيد من حدة القناعات وعنفها. وهذه القناعات ضرورية للرسل والمبشرين كما هو معروف. إن القادة المحركين في كل العصور، وخصوصاً أولئك الذين برزوا أثناء الثورة الفرنسية، كانوا محدودي العقل جداً، ومع ذلك فقد مارسوا تأثيراً كبيراً.

إن خطابات أشهر واحد فيهم، أي روبسبيير، مذهلة في الغالب من حيث تناقضاتها وعدم تماسكها. وعندما نقرؤها لا نجد فيها أي تفسير معقول للدور الضخم الذي لعبه الديكتاتور الكبير. قيل عنها:

«إنها أشياء مبتذلة ومليئة بالتكرار الخاص بالفصاحة التربوية والثقافة اللاتينية الموضوعة في خدمة روح تبدو صبيانية أكثر مما هي مسطَّحة. وهي تحصر نفسها في الهجوم كما في الدفاع بتلك العبارة الخاصة بتلاميذ المدرسة: «هلموا إذن!». ليس فيها أي فكرة جديدة ولا لفتة ولا ميزة خصوصية. إنها تمثل الضجر في الإعصار. وعندما نخرج من هذه القراءة الكئيبة نشعر بالحاجة لأن نصرخ: أوف! كما كان يفعل الرجل اللطيف كامي ديمولان».

إنه لمن المرعب أن نفكر ولو للحظة واحدة بتلك السلطة التي يخلعها الاقتناع القوي على رجل محاط بهالة الهيبة الشخصية إذا ما اقترن هذا الإقتناع بضيق العقل والنظر. إنها لسلطة هائلة. ولكن هذين الشرطين (أي الإقتناع القوي وضيق النظر أو عدم التفكير بالعواقب) ضروريان لمن يريد أن يقتحم ويجهل العقبات. والجماهير تعرف هؤلاء القادة بالغريزة وترى فيهم السيد المطاع والرجل ذا التصميم العنيد الذي يلزمها.

ونلاحظ فيما يخص المجالس النيابية ان نجاح خطاب ما يعتمد تقريباً بشكل كلي على الهيبة الشخصية للخطيب، وليس أبداً على الحجج أو المقترحات التي يحتويها.

فالخطيب المجهول يصل إلى البرلمان بخطاب مليء بالحجج العقلانية والمقترحات الجيدة ولكن ليس له أي حظ في أن يُستَمع إليه إذا ما اكتفى بذلك.

وقد كتب نائب سابق هو السيد ديكوب السطور التالية وقدم لنا صورة عن الخطيب الذي لا يتمتع بهيبة شخصية. قال:

«عندما جلس على المنصة أخرج من حقيبته إضبارة ونشرها بتؤدة أمامه وابتدأ الكلام بكل ثقة.

وشعر بالزهو لأنه نقل إلى نفوس السامعين تلك القناعة التي تعمر صدره. ثم درس حججه وأعاد دراسته مراراً وتكراراً، وكانت مليئة بالأرقام الدقيقة والبراهين. وكان واثقاً من أنه على حق. وكل اعتراض على البراهين التي يقدمها راح يبدو عبثياً لا معنى له. وابتدأ كلامه وكله ثقة بأحقية موقفه وبمقاصد زملائه أيضاً، هؤلاء الزملاء الذين ينتظرون شيئاً واحداً هو: الانحناء أمام الحقيقة.

وراح يتكلم ويتكلم، ولكنه دهش فجأة لصدور حركة عن القاعة وشعر بالإنزعاج لهذه الضوضاء الصادرة.

راح يتساءل: لماذا لا يستتب الصمت؟ لم هذه اللامبالاة

العامة تجاه خطابي؟ بم يفكّر إذن أولئك النواب الذين يتحدثون فيما بينهم؟ ما الباعث الملح إلى مثل هذا الحد والذي يجعل النائب الفلاني يترك مكانه؟

وهكذا خيم القلق على جبينه، وقطّب حاجبيه وسكت. ثم شجعه الرئيس فانطلق من جديد ورفع صوته. ولكن إصغاءهم له انخفض أكثر. فشدَّد لهجته وراح يهيج ويثور، ولم ينفع ذلك في شيء فقد ازدادت الضجة حوله. ولم يعد يسمع حتى نفسه فتوقف من جديد. ولكنه خشي من أن يؤدي صمته إلى إثارة الصرخة المشهورة: **أُقفلت الجلسة!** فانطلق بقوة من جديد، ولكن الضوضاء أصبحت لا تحتمل».

إن المجالس النيابية إذا ما وصلت إلى درجة معينة من الهيجان تصبح مشابهة للجماهير العادية غير المتجانسة، وبالتالي فإن عواطفها تتميز دائماً بالتطرف. فنحن نجدها أحياناً تنجز أفعالاً بطولية، وأحياناً أخرى ترتكب أبشع الأعمال. فالفرد يبطل عندئذٍ أن يكون ذاته ويصوت على القرارات الأكثر تعارضاً مع مصالحه الشخصية.

إن تاريخ الثورة الفرنسية يبين لنا إلى أي مدى يمكن للمجالس النيابية أن تفقد وعيها وتتبنى المقترحات المعارضة لمصالحها. فتخلّي طبقة النبلاء الفرنسيين عن امتيازاتها كان يشكل تضحية هائلة، وعلى الرغم من ذلك فقد قامت بهذه الخطوة دون أي تردد في تلك الليلة الشهيرة للجمعية التأسيسية الفرنسية. وكان تراجع أعضاء الجمعية التأسيسية عن حصانتهم البرلمانية يشكل خطراً دائماً بالموت بالنسبة لهم، ومع ذلك فقد قاموا بذلك ولم يتورعوا عن تصفية بعضهم البعض وهم يعرفون جيداً أن منصة الإعدام التي يرسلون زملاءهم إليها اليوم سوف تكون من حظهم غداً. ولكن بعد أن وصلوا إلى تلك المرحلة من فقدان الإرادة الكاملة التي وصفتها، فإنهم لم يعودوا يستطيعون منع أنفسهم من الإنصياع للمقترحات التي تنوِّمهم مغناطيسياً. إن المقطع التالي من مذكرات أحدهم «بيلو فارين» يشكل نموذجاً صارخاً فيما يخص هذه النقطة. يقول: «إن القرارات التي طالما لامونا عليها لم

نـكن نريدها غالباً قبل يومين أو حـتى يوم واحـد من التصويت. فقد كانت الأزمة وحـدها هي التي تثيرها». وليس هناك أكثر صحـة من هذا الكلام.

ونفس ظواهر فقدان الوعي تجـلت طيلة كـل الجلسات العاصفة للجمعية التأسيسية. يقول «تين» بهـذا الصدد ما يـلي:

«كانوا يوافقون على الـقرارات ويصدرون القرارات الخـاصة بكـل ما يزعجهـم ويخيفهم. لم يكونوا يوافقون فقط على الحماقات والجـنون وأنما على الجرائم أيـضاً وعلى قتل البريئين وقتـل أصدقائهم. فقد تحـالف اليسار مع اليمين وأرسل بالإجـماع وتحـت التصفيق دانتون إلى خشبة المقصلة، هـذا على الرغم من أنه الزعيم الطبيعي للثورة وقائدهـا الكبير. وبـإجماع اليمين واليسار وتحـت التصفيق راحـوا يصوتون على أسوأ قـرارات الحكومة الثورية. وبالإجـماع وبصرخـات الإعجاب والحماسة المرفقة بشهادات التعاطف القوي تجـاه «كولو ديربوا» وتجـاه «كوتون» و «روبسبيير» راحـت الجمعية التأسيسية تحـافظ على حـكومة القتل والإجـرام عن طريق إعادة الإنتخـاب العفوي والمتكـرر لها. هـذا على الرغم من احتقـار لابلين لها لأنهـا قاتلة ومجـرمة، وعلى الرغم من احتقـار جماعة لامونتانييه لها لأنهـا تريد استئصالهم. وقد اتفق لابلين ومونتانييه، أي الأكثرية والأقلية، في نهاية المطاف على مساعـدة هذه الحكومة على انتحـارهم الجماعي. وبتاريخ (٢٢) أيَّار وافقت الجمعية التأسيسية كلهـا على مدّ عنقها للمقصلة. ثم في (٨) تمـوز وأثنـاء ربع الساعة الـذي تلا خـطاب روبسبيير مـدت عنقها مـرة أخـرى».

قد تبدو هذه اللوحة التي يقدمها تين سوداء. ولكنها صحيحة على الرغم من ذلك. فالمجـالس النيابية المستثارة بما فيه الكفاية والمنوَّمة مغناطيسياً تبـرز نفس الخصائص كبقية الجماهير. فهـي تصبح عبـارة عن قطيع غنم متحـرك يخـضع لكل الدوافع الغرائزية. والوصف التـالي للمجـلس النيابي السائد عام (١٨٤٨) يقدم مثالاً نمطياً ونموذجياً على ذلك. وقد قـدمه لنا نائب لا يشك بإيمانه بالديمقراطية هو السيد سبوليز، وسوف أثبته هنا نقلاً عن **المجـلة الأدبية**. ففيه نجـد كـل العواطف

المتضخمة والمبالغ فيها والتي استخلصتها سابقاً من دراسة الجماهير. وهذه الحركية الزائدة تتيح لنا المرور من لحظة إلى أخرى بكل سلم العواطف الأكثر تناقضاً. يقول النائب المذكور:

«إن انقسامات الحزب الجمهوري وشيوع الغيرة والارتياب في صفوفه بالإضافة إلى تناوب الثقة العمياء والآمال اللامحدودة على صفوفه قد أودت به في نهاية المطاف. ولم يكن يساوي سذاجته وبراءته إلا عدم ثقته العامة والكونية. لم يكن لديه أي حس بالشرعية القانونية، ولا أي فهم للنظام الداخلي. فاخترقته أنواع الإرهاب والأوهام التي لا حد لها. وكان الفلاح والطفل يلتقيان في هذه النقطة. وكان هدوؤهم يعادل نفاد صبرهم. وكانت وحشيتهم معادلة لوداعتهم. وهذه صفات الطبع غير الناضج والتربية المعدومة. فلا شيء يدهشهم، وكل شيء يزعجهم. فقد كانوا خائفين، مرتجفين، وكانوا شجعاناً، وأبطالاً في ذات الوقت. كانوا مستعدين لإلقاء أنفسهم في لهب النيران، وللتراجع خوفاً أمام شبح ما.

ولم يكونوا يعرفون الآثار الناتجة عن فعل ما أو العلاقات الكائنة بين الأشياء. وكانوا مستعدين بنفس الدرجة للإحباط كاستعدادهم للحماسة والإستثارة. وكانوا عرضة لكل أنواع الذعر، ودائماً أما في الأعلى جداً، وأما في الأسفل جداً. ولم يكونوا أبداً متوازنين أو حيث ينبغي أن يكونوا. كانوا أكثر سيلاناً من الماء، ويعكسون كل الألوان ويتخذون كل الأشكال. فأي قاعدة حكومة يمكن أن ترتكز عليهم؟».

لحسن الحظ فإن كل الخصائص التي انتهينا من ذكرها فيما يخص المجالس البرلمانية لم تكن تظهر باستمرار فيها. فالواقع يفرض علينا القول بأن المجالس النيابية ليست جماهيراً بالمعنى الإصطلاحي للكلمة إلا في بعض الأوقات. والأفراد الذين يشكلونها يتوصلون إلى المحافظة على فردانيتهم في حالات عديدة جداً، ولهذا السبب يمكن للمجالس النيابية أن تصوغ قوانين تقنية ممتازة. صحيح أن هذه القوانين يتم تحضيرها مسبقاً من قبل الاختصاصي في [illegible]

للمكاتب الوزارية أو البرلمانية. والواقع أن القانون المصوَّت عليه هو من صنع فرد واحد، لا مجلس نيابي بأكمله. وهذه القوانين هي الأفضل بالطبع. ولا تصبح مدمِّرة أو سيئة إلا إذا لحقتها سلسلة من التعديلات التعيسة التي تجعلها جماعية. فعمل الجمهور أقل مستوى من عمل الفرد الواحد في كل مكان ودائماً. ووحدهم كبار الاختصاصيين في القانون هم الذين ينقذون المجالس النيابية من اتخاذ التدابير المضطربة والإرتجالية، وهم عندئذٍ يصبحون قادة ومحركين مؤقتين. فالمجلس النيابي لا يؤثر عليهم وإنما هم الذين يؤثرون عليه.

وعلى الرغم من كل صعوبات تسييرها، فإن المجالس النيابية تمثل أفضل طريقة وجدتها الشعوب حتى الآن من أجل حكم ذاتها، ثم بشكل أخص من أجل التخلص إلى أبعد حد ممكن من نير الإستبداد والطغيان الشخصي. ولا ريب في أنها تشكل المثال الأعلى للحكومة والحكم على الأقل بالنسبة للفلاسفة والمفكرين والكتاب والفنانين والعلماء، أي باختصار بالنسبة لكل أولئك الذين يشكلون ذروة حضارة ما.

ولا يهددها إلا خطران جديان هما: التبذير الاجباري للميزانية، والتقييد التدريجي على الحريات الفردية.

وأول هذين الخطرين هو نتيجة إجبارية لمطالب الجماهير الإنتخابية وعمى بصيرتها. فعندما يقترح نائب ما مشروع قرار يرضي المشاعر والأفكار الديمقراطية كأن يقترح مثلاً تقديم التقاعد لكل العمال، أو زيادة رواتب عمال الطرقات أو المعلمين، إلخ... فإن النواب الآخرين لا يستطيعون إلا الموافقة على الاقتراح خوفاً من أن يُتَّهموا بعدم المبالاة بمصالح ناخبيهم. ولكنهم يعلمون أن اعتماد القرار سوف يسيء كثيراً إلى ميزانية الدولة ويتطلب فرض ضرائب جديدة. ومع ذلك فمن المستحيل عليهم أن يترددوا في التصويت عليه. وذلك لأن النتائج المترتبة على زيادة المصروفات، بعيدة بالنسبة لهم ولا تسيء لمصالحهم الشخصية، هذا في حين أن عدم تصويتهم على القرار المذكور يجعلهم يدفعون الثمن باهظاً في أقرب انتخابات مقبلة.

وبالإضافة إلى هـذا السبب الأول الخـاص بزيادة المصاريف هناك سبب آخـر لا يقل إكراهاً وإلزاماً: هـو الموافقة على كـل المصاريف ذات المصلحة المحلية الصرفة. فـلا يمكن لأي نـائب أن يعترض عليها. وذلك لأنها تمثل مطـالب الناخبين أيضاً، ولا يمكن لأي نـائب أن يحـصل على ما يحـتاجه بالنسبة لدائرته الإنتخـابية إلا إذا وافق على المطالب المشابهة لزملائه النواب الآخـرين بالنسبة لدوائرهم(٢).

أما الخـطر الثاني المذكور آنفاً والمتعلق بتقييد الحريات الفردية فهـو غير ظاهـر للعيان كالسابق ولكنه موجود بالفعل. فهـو ناتج عن القوانين العديدة جـداً والتي هـي دائماً حصرية تقيد الحرية. والمجـالس النيابية لا تـرى انعكاساتها ونتائجهـا بسبب روحهـا التبسيطية، وبالتـالي فهي تعتقد أن من واجبهـا التصويت عليها.

وهـذا الخطر محـتوم ولا مفر منه لأن انكلترا نفسها حـيث يوجـد أفضل نموذج للنظام البرلماني وحـيث أن النـائب هـو الأكثر استقلالية بالقيـاس إلى نـاخبه، أقـول إن إنكلتـرا نفسها لم تستطع أن تتخـلص منه. كـان هيربـرت سبنسر قد بيَّن في كتـاب قـديم أن زيـادة الحرية الظاهرية يعني التنقيص من الحرية الحقيقية. ثم استعـاد نفس الأطروحة في كتـابه «الفرد ضد الدولة»، وعبر عن رأيه تجـاه البرلمان الإنكليزي على النحـو التـالي:

«راح التشريع منذ ذلك الوقت يتبع المسار الـذي أشرت إليه. وراحـت القرارات الديكتاتورية تتزايـد بسرعة وقد مالت إلى التضييق على الحريات الفردية بـاستمرار، وذلك بطريقتين: أولاً طريقة التنظيم واتخـاذ القرارات. ففي كـل سنة كانت تتخـذ القرارات بعـدد أكبر وتفرض إكراهات قسرية على المواطن حـيث كانت أعماله حـرة تماماً سابقاً. ثم تجـبره على إنجـاز أعمال كـان يمكنه سابقاً أن ينجزها أو لا ينجزها بمحـض إرادته. وفي نفس الوقت راحـت المسؤوليات العامة الثقيلة أكثر فـأكثر، وبخـاصة المحلية، تقلِّص من حريتـه أكثر عن طريق التقليل من حصـة الفائدة التي يمكنه أن يصرفها كما يشاء ويشتهي، وعن طريق

زيـادة الحصة التي سلبت منه لـكي تصرف طبقاً لأهواء موظفي الدولة».

وهـذا التقليص المتدرج للحريـات يتجـلّى بالنسبـة لكل البلدان على هيئة خـاصة لم يشر إليها هيربرت سبنسر: نقصد سنّ عـدد هائل من القوانين التشريعية، وكلها تنحـو باتجـاه التقليص والتقييد عموماً، وهـذا ما يـؤدي بالضرورة إلى زيـادة عـدد الموظفين المكلفيـن بتطبيقها وزيـادة سلطتهم ونفوذهم. وهـم يميلون بـذلك إلى أن يصبحـوا السادة الحقيقيين للبلدان المتحضـرة. فسلطتهم قوية باستمرار لأن الحـكومات تتغير وهـم لا يتغيرون. ويحـظون باللامسؤولية والغُفْلية والديمومة. ونحـن نعلم أنه من بين كـل أنواع الاستبـداد فـليس أكثر طغياناً من تـلك التي تتحـلى بهذه الصفات الثلاث.

إن سن القوانين باستمرار ودون توقف، وكـذلك سن التشريعات المقيِّدة التي تغلِّف أصغر عمل من أعمال الحياة بعبارات بيزنطية معقدة، يـؤدي في نهاية المطاف إلى التقليص التدريجي للدائرة التي يمكن للمواطنين أن يتحـركوا داخلها بحرية. فالشعوب تقع ضحية ذلك الوهم القائل بـأنه كلما زدنا من عـدد القوانين فـإن المساواة والحرية تصبحـان مضمونتين بشكل أفضـل. وهـكذا تقبل في كل يـوم بفرض إكراهات قسرية جـديدة.

وقبولهم لها لا يمر بـدون عقاب. فبما أنهم اعتـادوا على احتمـال كـل العبوديات، فـإن الأمر ينتهي بهـم أخيراً إلى البحث عنها وفقـدان كـل عفوية وكـل طاقة. ولا يعودون عندئذٍ إلا عبارة عن أشبـاح لا جـدوى منها، وعن آلات ميكانيكية سلبية، بـدون إرادة وبـدون مقاومة وبـدون قـوة.

ولكن الطاقات والحوافز التي لم يعد الإنسان يجـدها في نفسه تجـبره على أن يبحـث عنها في مكان آخـر. وبسبب لا مبـالاة المواطنين وعجـزهم المتزايد فـإن دور الحكومات سوف يكبر بالضرورة. وينبغي على هذه الأخيرة أن تمتلك روح المبـادرة والقيام بالمشاريع وقيـادة الأعمال والشؤون بعد أن فُقِدَ كـل ذلك لـدى الأفـراد المستقلين. فالدولة

أصبحـت مسؤولة عن كـل شيء وحماية كـل شيء. وتصبح الدولة عندئذٍ إلٰهاً جباراً. ولكن التجربة تعلمنا أن سلطة آلهة كهـذه لم تـكن أبداً دائمة ولا قوية جـداً.

إن التقليص التدريجي لكل الحريات لـدى بعض الشعوب يبـدو أنه ناتج عن شيخوختها بقدر ما هو ناتج عن النظام السياسي. نقول ذلك على الرغم من مظاهر التحـلل والإباحية التي قد توهم هذه الشعوب بامتـلاك الحرية. وهـذا التقليص يشكل أحـد الأعـراض المنذرة بمجـيء مرحلة الإنحـطاط التي لم تستطع أي حضـارة في العالم أن تنجـو منها حـتى الآن.

وإذا ما تأملنا بـدروس الماضي وعـبره، ونظرنا إلى الأعـراض البادية حولنا من كل الجهـات فـإننا نـرى أن الكـثير من حضاراتنا الحـديثة قـد وصلت إلى مرحلة الشيخوخة القصوى التي تسبق مبـاشرة الإنحـطاط. وبعض التحـولات تبدو قاتلة بالنسبة لكـل الشعوب لأننا نـراها تتكرر غالبا جـدا في التـاريخ.

ومن السهل أن ندرس باختصار مراحل هذه التحولات والمجريات التاريخية. وسوف نختم كتابنا بتقديم لمحة موجزة عنها.

إذا ما درسنا منشأ عظمة وانحـطاط الحضارات التي سبقت حضارتنا بخطوطها العريضة فـماذا نرى؟

نـرى في بـداية هذه الحضارات قـلة من الرجـال المنتمين إلى أصـول متنوعة وقـد اجتمعوا بحـسب هوى الهجرات والغزوات والفتوحـات. فهـم من دماء مختلفة ولغات وعقائد مختلفة، وليس بينهم أي رابط مشترك إلا قـانون الزعيم المعترف به نصفياً فقط. وفي هـذا الخليط المتجـمع نجـد الصفات النفسية للجماهير في أعلى درجاتها. فهذه الجماهير تمتلك التمـاسك المؤقت والبطولات وأنواع الضعف والنواقص والغرائز الإندفاعية والعنف. فلا شيء ثابت فيها، إنهـم بـرابرة.

ثم يـمر الزمن ويكمل عمله. فتماثلية البيئة وتـكرر التصالب

والتقاطع بين الجماعات وحاجيات الحياة المشتركة، كل ذلك يتضافر لكي يفعل فعله ببطء. وعندئذٍ تبتدىء هذه الوحدات غير المتجانسة في الإنصهار ببعضها البعض لكي تشكل عرقاً واحداً، أي ركاماً يمتلك خصائص وعواطف مشتركة تحددها عوامل الوراثة بالتدريج. هكذا يصبح الجمهور شعباً، وهذا الشعب سوف يستطيع الخروج من حالة البربرية.

ولكنه لن يخرج منها كلياً إلا بعد بذل جهود طويلة وصراعات عديدة ومحاولات لا تعد ولا تحصى تؤدي به في نهاية المطاف إلى اكتساب مَثَل أعلى يهتدي به. وليس مهماً طبيعة هذا المثل الأعلى. فسواء أكان عبادة روما أو قوة أثينا أو انتصار الله (أي الإسلام) فإنه يكفي لصهر كل الأفراد في العرق الذي هو في طور التشكل وجمعهم في وحدة العاطفة والفكر.

وعندئذٍ يمكن أن تولد حضارة جديدة بكل مؤسساتها وعقائدها وفنونها. وفي زخم الحلم يستطيع العرق المعني أن يكتسب على التوالي كل ما يعطي الشهرة والقوة والعظمة. وسوف يظل جمهوراً في بعض النواحي والأوقات بدون شك، ولكن وراء الخصائص المتحركة والمتغيرة للجماهير يوجد ذلك الجوهر الصلب والدائم، أقصد روح العرق الذي يحد بقوة من تذبذب شعب ما ويتحكم بعامل الصدفة والمفاجأة.

ولكن بعد أن يكون قد مارس عمله الخلاق فإن الزمن يبتدىء بعمله الآخر: أي التدمير. هذا التدمير الذي لا تنجو منه لا الآلهة ولا البشر. فبعد أن تصل الحضارة إلى مستوى معين من القوة والتعقيد، فإنها تتوقف عن النمو والكبر. وما إن تتوقف عن الكبر حتى تصبح مدانة بالانحطاط السريع. وعندئذٍ تدق ساعة الشيخوخة دون إبطاء.

ومن صفات هذه الساعة المحتومة وهنٌ يصيب المثال الأعلى الذي كان يدعم روح العرق البشري الصانع لهذه الحضارة. فكلما راح

هذا المثال يشحـب ويضعف، فـإن كـل المؤسسات الدينية والسياسية والاجتماعية التي كان يلهمها تبتدىء بالتزعزع.

ومع الاضمحـلال التدريجي لمثاله الأعلى، فـإن العرق يفقد أكثر فأكثر كـل ما كان يصنع تماسكه ووحـدته وقوته. ويمكن للفرد عندئذٍ أن ينمو في شخصيته وذكائه، ولكنٍ يحـل في ذات الوقت محـل الأنانية الجماعية للعرق نمو زائـد جـداً للأنانية الفردية مصحوبة بوهـن الطبع والشخصية وبضعف في القابلية على الممارسة والإنخـراط. وما كان يشكل شعباً ووحـدة وكتـلة متراصة يصبح في نهاية المطاف عبـارة عن ركـام من الأفـراد الـذين لا رابط بينهم، ولكن يتم الحفاظ على وحـدتهم الشكلية بطريقة اصطناعية لفترة أخـرى من الزمن عن طريق التقاليد والمؤسسات. ثم يصبح النـاس منقسمين من حـيث المصالح والمطامح ولا يعودون يعرفون كـيف يحـكمون أنفسهم. وعندئذٍ يطلبون بـأن يقادوا ويحـكموا في كـل شاردة وواردة من أعمالهم، ويطلبـون من الدولة أن تمارس عليهم تأثيرها المهيمن.

ومع الفقدان النهائي للمثال الأعلى القديم، فـإن الأمر ينتهي بالعرق في نهاية المطاف إلى فقـدان روحه. إنه لا يعود إلا ذرات متناثرة من الأفـراد المعزولين، أي يعود إلى ما كان عليه في البداية: أي جمهوراً. إنه يمثل عندئذٍ كـل خصائص الجمهور العابرة واللامتماسكة التي سرعان ما تتلاشى. ولا يعود للحضـارة عندئذٍ أي ثبـات فتسقط تحـت رحمة كـل الصدف والحـوادث الطارئة. فالعامة أو الدهماء لا تمثـل شيئاً، والبرابـرة يتقدمون. ويمكن أن تبـدو الحضارة لامعة لفتـرة أخـرى أيضاً لأنها تحـافظ على الواجهـة الخارجية المصنوعة من قبل ماضٍ طويل، ولكنها في الواقع لم تعد إلا صرحاً منخوراً لم يعد أي شيء يـدعمه، وبالتـالي فهو قابل للسقوط بمجـرد هبـوب أول عاصفة.

وهـذه هي دورة الحياة الخاصة بشعب ما: أي الإنتقـال من حـالة البربرية إلى حالة الحضارة عن طريق ملاحقة حلم ما، ثم الدخـول في مرحلة الإنحـطاط والموت ما إن يفقد هذا الحلم قوته.

الحواشي

مراجع المقدمة

ينبغي أن أشير منذ البداية إلى مدى استفادتي من كتاب سيرج موسكوفتشي عن «عصر الجماهير» حيث يكرس عدة فصول لغوستاف لوبون وكتابه «نفسية الجماهير».

— **Serge Moscovici: L'Age des foules, Fayard Paris 1981.**

وموسكوفتشي هو مدير دراسات في مدرسة الدراسات العليا في ساحة العلوم الاجتماعية، وأحد أهم الإختصاصيين في مجال علم النفس الاجتماعي في فرنسا.

كما واستفدت من آخر أطروحة جامعية مكرسة للوبون، وقد نشرت مؤخراً من قبل المطبوعات الجامعية الفرنسية. وهي للسيدة كاترين روفييه، أستاذة العلوم الاجتماعية في كلية الحقوق والاقتصاد والعلوم الاجتماعية بباريس.

— **Catherine Rouvier: Les idées politiques de Gustave Le Bon,** P.U.F, 1986.

هذا بالإضافة إلى كتاب «علم النفس الجماعي» الصادر عن المطبوعات الجامعية الفرنسية.

— **Pierre Mannoni: La Psychologie Collective,** P.U.F, 1985.

هوامش المقدمة

(١) انظر روبير ماندرو، الانسيلكوبيديا الكونية الفرنسية، مادة «تاريخ العقليات»، استشهاد منقول من فرويد.
Robert Mandrou, L'Encyclopédie Universalis, Article: histoire des mentalités.

(٢) انظر ب. أديلمان، إنسان الجماهير، باريس، ١٩٨١، ص ٧.
B. E delman, L'homme des foules.

(٣) سيغموند فرويد، مقالات في التحليل النفسي، منشورات بايو، ١٩٧٢، باريس ص ٨٩.
S. Freud: Essais de Psychanalyse, Payot, Paris, 1972.

(٤) انظر فرانسوا فوريه، التفكير بالثورة الفرنسية، غاليمار، ١٩٧٨، ص ١٦.
François Furet: Penser la Révolution française, Gallimard, Paris, 1978, p. 16.

(٥) انظر سيرج موسكوفتشي، **عصر الجماهير**، مصدر مذكور سابقاً، الصفحة ٧٩ والصفحة ٨١.

(٦) انظر هوركهايمر وأدورنو، **جوانب من علم الاجتماعي**، منشورات هاينمان، لندن، ١٩٧٣، ص ٧٥.
M. Horkheimer et T. Adorno, **Aspects of Sociology,** Heinemann, London.

(٧) انظر ز. ستيرنهيل، **موريس باريس والقومية الفرنسية**، منشورات أرمان كولان، بـاريس، ١٩٧٢.
Z. Sternhell, Maurice Barrés et le nationalisme français.

(٨) انظر غوستاف لوبون، علم النفس السياسي، بـاريس، ١٩١٠، ص ٥.
G. Lebon: La Psychologie Politique, Paris, 1910, p. 5.

(٩) مقطع استشهد به سيرج موسكوفتشي في كتابه المذكور آنفاً، ص ٨٨.

(١٠) انظر جوزيف شومبيتر، **الرأسمالية، الاشتراكية، الديمقراطية**، بايو، بـاريس، ١٩٦١، ص ٣٨٦.
J. Schumpeter: Capitalisme, Socialisme et démocratie, Paris, Payot, 1961, p. 386.

(١١) انظر كتاب سيرج موسكوفتشي المذكور سابقاً، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

(١٢) مقطع استشهدت به كاترين روفييه في كتابها الأفكار السياسية لغوستاف لوبون، ص ٧٦ (مصدر مذكور سابقا).
Catherine Rouvier: Les idées politiques de Gustave le Bon, P.U.F, 1986.

(١٣) انظر غوستاف لوبون، **الآراء والعقائد**، ص ١٦٩.
G. Le Bon: Les opinions et les croyances, p. 169.

(١٤) انظر غوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ص ١٤.
G. Le Bon: La civilisation des Arabes, p. 14 .

(١٥) انظر سيرج موسكوفتشي، مصدر مذكور سابقاً، ص ١١٦ ـ ١١٧.

هوامش المقدمة
عصر الجماهير

(١) في الواقع أن مستشاريه الفطنين لم يكونوا يفهمونها أكثر منه. فقد كتب له تاليران مرة يقول: «بأن اسبانيا سوف تستقبل جنوده كمحررين ومخلصين لها». ونحن نعلم أنها استقبلتهم كالحيوانات المتوحشة. ولو كان هناك عالم نفس خبير بالغرائز الوراثية للعرق الاسباني لتنبأ بما سيحصل لجنود نابليون هناك بسهولة.

(٢) إن المؤلفين النادرين الذين اهتموا بالدراسة النفسية للجماهير قد درسوها كما قلت آنفاً فقط من وجهة نظر الجرائم التي قد ترتكبها. ولما كنت لم أخصص لهذا الموضوع الأخير إلا فصلاً قصيراً، فإني أحيل القارىء إلى دراسات السيد تارد وإلى كتيِّب السيد سيغيل: «الجماهير المجرمة». ولكن هذا البحث الأخير لا يحتوي على أي فكرة شخصية، وإنما هو تجميع للوقائع والأخبار الثمينة والمفيدة بالنسبة للعلماء النفسانيين الذين يمكنهم أن يستخدموها في التحليل. وعلى أي حال فإن النتائج التي توصلت إليها بخصوص جرائم الجماهير وأخلاقيتها معاكسة تماماً لآراء هذين الكاتبين المذكورين.

ويمكن للقارىء أن يجد في كتبي الأخرى وخصوصاً في كتاب «سيكولوجيا الإشتراكية» بعض النتائج المستخلصة من القوانين التي تتحكم بنفسية الجماهير. ويمكن استخدامها بخصوص الموضوعات الأكثر تنوعاً. وقد وجد السيد م. أ. جيفاريه مدير المعهد الملكي في بروكسيل تطبيقاً عملياً رائعاً للقوانين التي استخلصناها وذلك من خلال دراسة له عن الموسيقى التي يصفها بحق بأنها «فن الجماهير». وكتب لي هذا الأستاذ الكبير يقول: «إن كتابيك الإثنين هما اللذان قدما لي حل مشكلة كنت أعتقدها مستعصية على الحل ألا وهي: القابلية المدهشة التي يتمتع بها كل جمهور على تذوق أي عمل موسيقي حديثاً كان أم قديماً، محلياً أم أجنبياً، بسيطاً أم معقداً بشرط أن ينفَّذ بدقة ومن قبل عازف متحمس». ويبين لنا السيد جيفاريه بكل روعة كيف «أن العمل الموسيقي الذي يستعصي على فهم كبار الاختصاصيين الذين يقرأون التوليفات في عزلة مكاتبهم قد يفهم فوراً من قبل الجمهور الغريب على كل ثقافة موسيقية». وهو يفسر لنا أيضاً لماذا أن هذه الإنطباعات الجمالية لا تترك أي أثر.

هوامش الكتاب الأول

الفصل الثاني

(١) إن الأشخاص الذين شهدوا حصار باريس رأوا بأم أعينهم أمثلة عديدة على سذاجة الجماهير وسرعة تصديقها لأي شيء، بل وحتى للأشياء الأكثر غرابة. فمجرد إشعال شمعة في الطابق العلوي لأحد البيوت كان يعتبر مباشرة بمثابة علامة موجهة للجيوش المحاصِرة. ولو أنهم فكروا لحظتين فقط لعرفوا أنه يستحيل عليهم أن يشاهدوا ضوء هذه الشمعة عن مسافة أبعد نسبياً. فكيف يمكن إذن للجيوش المحاصِرة البعيدة جداً أن تراها؟

(٢) عن جريدة (إيكلير) بتاريخ ٢١ نيسان ١٨٩٥.

(٣) هل نعلم كيف جرت معركة حربية ما بشكل دقيق؟ إني أشك في ذلك. نحن نعلم من هم الغالبون والمغلوبون ولكن ربما لا نعرف شيئاً أكثر من ذلك. وما ينقله السيد داركور عن معركة سولفرينو كشاهد وكمشارك فيها يمكنه أن ينطبق على كل المعارك. يقول: «إن الجنرالات الذين تلقوا المعلومات بالطبع من قبل مئات الشهود ينقلون تقاريرهم الرسمية، والضباط المكلفون بنقل الأوامر يعدلون من هذه الوثائق ويكتبون المشروع النهائي. ثم ينقضه رئيس الأركان ويعيد كتابته من جديد. ثم ينقلونه إلى المارِشال فيصرخ قائلاً: «أنتم مخطئون بشكل كامل!» . ثم يطلب كتابة المشروع مرة أخرى. وهكذا لا يبقى تقريباً أي شيء من التقرير الأولي». والسيد داركور ينقل هذه الواقعة لكي يبرهن على استحالة معرفة الحقيقة عن حدث يحصل أمام أعيننا.

(٤) وهذا ما يتيح لنا أن نفهم لماذا تحظى بعض المسرحيات بنجاح هائل بعد أن كانت قد رفضت من قبل كل مديري المسارح، وذلك عندما يتاح لها أن تمثل عن طريق الصدفة. ونحن نعلم بهذا الصدد مدى نجاح مسرحية السيد كوبي «من أجل التاج»، وكانت قد رفضت طيلة عشر سنوات من قبل المسارح الأولى على الرغم من شهرة اسم مؤلفها. وأما مسرحية «إشبينة شارلي» التي مثلت على نفقة سمسار الأوراق المالية فقد مثلت مائتي مرة في فرنسا وأكثر من ألف مرة في إنكلترا بعد أن كانت قد قوبلت بالرفض مرات عديدة من قبل المسارح ومديريها. ولا يمكن تفسير ذلك إلا باستحالة حلول مديري المسارح محل الجماهير من حيث العقلية والنفسية. ولا يمكن فهم ارتكاب مثل هذه الأخطاء في الحكم من قبل شخصيات ذات كفاءات عالية كمديري المسارح إلا بهذا الشكل.

الفصل الثالث

(١) منطقة الڤاندي (La vendée) هي منطقة ريفية كاثوليكية جداً تقع جنوب غرب فرنسا وكانت معادية للثورة الفرنسية، ولذلك وقعت فيها مجازر مرعبة بعد الثورة (المترجم).

الفصل الرابع

(١) نسبة إلى الجنرال بولانجيه، وهو جنرال ورجل دولة فرنسي (١٨٣٧ ـ ١٨٩١). كان صديقاً لغامبيتا وكليمنصو. استطاع تجميع الجماهير الشعبية حوله من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. وقد شكل تياراً شعبياً في فرنسا أواخر القرن التاسع عشر (المترجم).

(٢) هذه هي أشهر مجزرة جرت للبروتستانت في فرنسا أثناء حروب الأديان الشهيرة. وقد جرت عام (١٥٧٢) في ظل الملك شارل التاسع وبلغت الذروة في فظاعتها ورعبها. فلم يتورع الكاثوليك عن استخدام كل الوسائل لتصفية البروتستانت الذين يمثلون «الهرطقة» داخل المسيحية في رأيهم. وقد عانت أوروبا كثيراً من حروب الأديان، ولم تنج منها إلا بعد انتصار الوعي العلمي التاريخي وحلول العاطفة الدينية الحديثة والمتسامحة محل العاطفة الدينية القروسطية (المترجم).

هوامش الكتاب الثاني

الفصل الأول

(١) بما أن هذه الفكرة لا تـزال جديدة جـداً حـتى الآن، وبما أن التاريخ يظل غير مفهوم بدونها، فـإني كرست فصولاً عديدة من كتابي «القوانين النفسية لتطور الشعوب» للبرهنة عليها. وسيرى القارىء فيه أنه على الرغم من المظاهر الخادعة فـإنه لا اللغة، ولا الدين، ولا الفنون، ولا أي عنصر من عناصر الحضارة بقادر على البقاء كما هو إذا ما انتقل من شعب إلى آخـر.

(٢) إن التقرير الذي قدمه عضو الجمعية التأسيسية بعد الثورة الفرنسية السيد فوكروا والـذي استشهد به «تين» بـليغ جـداً بخـصوص وجهـة النظر هذه. يقول: «إن ما نـراه في كل مكان من الاحتفـال بيـوم الأحـد والتردد على الكنائس يعني أن غالبية الفرنسيين تـريد العودة إلى العادات القديمة ولم يعـد الوقت مناسباً لمقاومة مثل هذا الميل القومي...» ثم يـردف قـائلاً: «إن الأغلبية الكبرى من البشر بحاجـة إلى الدين والشعائر والكهنة. وقد جُرَّ بعض الفلاسفة المحـدثين وجـررت أنا شخصياً إلى نفس الخـطأ عندما اعتقدنا بـأن نشر التعليم في أوساط جماهير الشعب سوف يؤدي إلى تـدمير الأحكام المسبقة الدينية. فالواقع أن هذه الأحـكام المسبقة والعقائد تشكل بالنسبة للعدد الكبير من البؤساء مصـدراً للعزاء...

وبالتالي فينبغي أن نترك لجماهير الشعب كهنتها وهياكلها وطقوسها».

(٣) هو جبل في فرنسا (المترجم).

(٤) هذا ما يعترف به في الولايات المتحـدة حـتى الجمهوريون الأكثر تقدماً. وقد عـبرت الصحيفة الأمريكية (فوروم) عن هذا الرأي القاطع بالكلمات التي سأستشهد بها هنا اعتماداً على «مجـلة المجـلات» لشهـر ديسمبر من عام (١٨٩٤): «ينبغي ألا ننسى أبـداً حـتى لـدى ألد أعـداء الأرستقراطية أن إنكلتـرا هي اليوم أكثر بـلدان العالم ديمقراطية. فهـي البلد الذي تحـظى فيه حـقوق الفرد بأكبر قـدر من الاحترام، وهي البلد الذي يمتلك فيه الأفـراد أكبر قـدر من الحرية».

(٥) إذا مـا قـارنا بين الإنشقاقات الدينية والسياسية العميقة التي تفصل بين مختلف أجـزاء فرنسا والتي تعود بشكل خـاص إلى اختـلاف العرق، بالاتجـاهات الإنفصالية التي ظهـرت أثناء فتـرة الثورة وعادت للظهـور من جـديد في نهاية الحـرب الفرنسية ـ الألمانية، فـإننا نلحـظ جـيداً أن الأعـراق المختلفة المتبقية على أرضنا لا تـزال بعيدة عن الانصهـار ببعضها البعض حـتى الآن. لا ريب في أن السياسة المركزية النشيطة التي اتبعتها الثورة وخـلق محافظـات اصطناعية من أجـل خـلط الأقاليم القديمة ببعضها البعض قد فعلا فعلهما النافع جـداً. وإذا ما نجحـت سياسة اللامركزية التي يـدعو إليها بعض قصيري النظر اليوم فـإنها ستؤدي حـتماً إلى اندلاع الاضطرابات الدموية. والجهـل بهذه الحقيقة يعني الجهل المطبق بكل تاريخنا.

(٦) انظر: التحليل النفسي للاشتراكية (أو نفسية الاشتراكية). الطبعة السابعة. ثم التحليل النفسي للتربية والتعليم، الطبعة الرابعة عشرة.

(٧) ولكن هذه ليست ظاهرة خاصة بالشعوب اللاتينية، فنحن نجدها أيضاً في الصين، البلد المحكوم من قبل مراتبية هرمية قومية من الموظفين، وحيث نجد أن الحصول على الوظائف الكبيرة يتم أيضاً عن طريق المسابقات. والامتحان الوحيد لهذه المسابقات يتركز على حفظ الكتب المدرسية السميكة عن ظهر قلب. فجيش المتعلمين بدون وظيفة يعتبر اليوم في الصين بمثابة الكارثة القومية. وكذلك الأمر فيما يخص الهند. فمند أن كان الإنكليز قد فتحوا فيها المدارس ليس من أجل التثقيف كما هو عليه الحال في إنكلترا، وإنما فقط من أجل تعليم السكان المحليين، فإنه قد تشكلت طبقة اجتماعية من المتعلمين المدعوين (بالبابو). وهؤلاء عندما لا يستطيعون الحصول على وظيفة فإنهم يصبحون أعداء ألداء للإنكليز. ونلاحظ لدى البابو الموظفين وغير الموظفين أن أول أثر من آثار التعليم عليهم هو انخفاض مستوى أخلاقيتهم. وكنت قد ألححت طويلاً على هذه النقطة في كتابي «حضارات الهند». وكل المفكرين الذين زاروا الهند لاحظوا نفس الظاهرة.

(٨) انظر: تين. «النظام الحديث»، الجزء الثاني، طبعة (١٨٩٤). هذه الصفحات هي تقريباً آخر ما كتبه تين. وهي تلخص بشكل رائع نتائج تجربته الطويلة. فالتربية والتعليم هما وسيلتانا الوحيدتان للتأثير قليلاً على روح الشعب. وإنه لمن المحزن بعمق ألا يوجد في فرنسا أي شخص تقريباً قادر على فهم حجم الإنحطاط الناتج عن تعليمنا الحالي. فبدلاً من أن يرتفع بالشبيبة إلى مستوى أعلى إذا به ينخفض بها ويفسدها.

الفصل الثاني

(١) في كتابي «القوانين النفسية لتطور الشعوب» ألححت مطولاً على الإختلاف الذي يفرق بين المثال الديمقراطي اللاتيني، والمثال الديمقراطي الأنغلوساكسوني.

(٢) كان الرأي العام الفرنسي واقعاً آنذاك تحت تأثير الروابط البشعة بين أشياء متنافرة. وقد درست آنفاً آليّة هذه الروابط. فحرسنا الوطني آنذاك كان مشكّلاً من أصحاب الدكاكين المسالمين الذين لا يعرفون أي شيء في النظام العسكري، ولا أحد يحملهم على محمل الجد. وكل جيش يحمل نفس الإسم كان يثير نفس الصور وبالتالي فقد كان يعتبر مسالماً وغير هجومي. وكان خطأ الجماهير مشتركاً آنذاك كما يحصل غالباً للرأي العام في كل البلدان، أقصد كان قادتها ومحركوها يشاطرونها نفس الرأي. ففي الخطاب الذي ألقاه السيد تيير في مجلس النواب بتاريخ (٣١) ديسمبر عام (١٨٦٧) راح يكرر القول بأن بروسيا لا تملك ما عدا جيشها النظام المعادل لجيشنا إلا حرساً وطنياً يشبه حرسنا، وبالتالي فلا أهمية له. ومن المعروف أن السيد تيير هو رجل دولة طالما اتبع رأي الجماهير. وهذا الرأي لا نصيب له من الصحة، مثله في ذلك مثل رأيه الآخر حول سكك الحديد وأن لا مستقبل لها...

(٣) إن ملاحظاتي العملية الأولى عن فن التأثير على الجماهير وعجز قواعد المنطق عن فعل ذلك أو تفسيره تعود إلى فترة حصار باريس. إنها تعود إلى ذلك اليوم الذي شاهدتهم فيه يقودون الماريشال (ڤ) إلى مقر الحكومة الذي كان في اللوفر آنذاك... وشاهدت جمهوراً غاضباً يزعم أنه قد باغت الماريشال وهو ينزع مخطط التحصين لكي يبيعه إلى البروسيين (أي الألمان). وشاهدت أحد أعضاء الحكومة (ج. ب) وقد خرج لكي يخطب في الجماهير التي تطالب بإعدام السجين مباشرة. وكنت أتوقع أن يبرهن الوزير على حماقة هذه التهمة بالقول إن المارِشال المتهم كان هو بالضبط أحد بناة هذه التحصينات التي تباع مخططاتها في الواقع في كل المكتبات. وكنت شاباً صغيراً آنذاك، وقد دهشت أيما دهشة لأن خطاب الوزير كان شيئاً آخر مختلفاً تماماً. فقد رأيته يتقدم نحو السجين وهو يقول: سوف نطبق حكم العدالة، وستكون لا رحمة فيها ولا شفقة. اتركوا حكومة الدفاع الوطني تنهي تحقيقها. وبانتظار ذلك سوف نسجن المتهم». وقد هدأ الجمهور بعد هذا الكلام وتفرق خلال ربع ساعة بعد أن أرضاه كلام الوزير. ثم عاد الماريشال إلى بيته. وكان سيقطع إرباً إرباً لو أن محاميه (أي الوزير) قد استخدم المحاجات المنطقية والعقلانية عندما خطب في الجمهور الغاضب، هذا على الرغم من أن هذه المحاجات كان ستقنعني، أنا الصغير السن جداً...

الفصل الثالث

(١) **Murat - Ney**: **مورا**: هو جواشيم مورا ماريشال فرنسا وملك نابلي (١٧٦٧ ـ ١٨١٥).
ني: هو ماريشال فرنسا أيضاً (١٧٦٩ ـ ١٨١٥) (المترجم).

(٢) انظر بهذا الصدد كتبي الأخيرة: **علم النفس السياسي**، و**الآراء والعقائد**، و **الثورة الفرنسية**.

(٣) انظر: غوستاف لوبون، **الإنسان والمجتمعات**، الجزء الثاني، ص ١١٦، طبعة ١٨٨١.

(٤) نلاحظ تأثير الألقاب والنياشين والألبسة العسكرية في كل البلدان على الجماهير حتى لو كان حس الإستقلالية الشخصية متطوراً جداً فيها. سوف أستشهد هنا بمقطع غريب من كتاب لأحد الرحالة حول هيبة بعض الشخصيات في إنكلترا.

«لاحظت في مناسبات عديدة مدى تأثر الإنكليز الأكثر عقلانية لرؤية أحد اللوردات. وإذا كانت شخصيته في مستوى مرتبته فإنهم يحبونه مسبقاً ويقبلون كل ما يصدر عنه بكل افتتان وإعجاب. وهم يسكرون فرحاً لمجرد الإقتراب منه، وإذا ما تحدث إليهم فإن الفرح الذي يشعرون به يزيد من هذا السكر ويجعل عيونهم تبرق بلمعان غريب. إن حبهم لأعضاء مجلس اللوردات يغلي في دمهم إذا جاز التعبير، كما أن الرقص موجود في دم الاسباني، وكما أن الموسيقى موجودة في دم الألماني والثورة في دم الفرنسي. وأما حماستهم لخيول شكسبير فأقل عنفاً، وفرحهم برؤيتها أو افتخارهم بها أقل أهمية. وأما كتاب النبالة فله أهمية كبرى، وحيثما ذهبنا وجدناه كالكتاب المقدس في كل الأيدي».

(٥) لما كان الإمبراطور واعياً بحجم هيبته فإنه كان يزيد منها عن طريق معاملة الشخصيات الكبرى المحيطة به بشكل أقل مما يعامل السائس. وكان من بينهم بعض أهم شخصيات الثورة الفرنسية المرهوبين في كل أوروبا. وحكايات ذلك الزمن مليئة بالوقائع الدالة فيما يخص هذه النقطة. فيحكى أن نابليون قد وبخ في أحد الأيام وفي عز مجلس الدولة الوزير بيغنو وعامله كخادم غبي. وبعد أن أخذ التوبيخ مفعوله اقترب نابليون منه وقال له: «والآن، أيها الأبله الكبير! هل عاد إليك رشدك؟». وكان بيغنو طويلاً جداً وكبير الحجم فانحنى أمام الإمبراطور الصغير الذي أمسكه من أذنه وعاقبه. وقد اعتبر بيغنو ذلك علامة على المحبة الهائلة والحظوة لدى السيد الذي اقترب من انسانيته». إن أمثلة كهذه تبين لنا حجم البلادة والسطحية التي قد تثيرها الهيبة والعظمة. وهي تفهمنا مدى الاحتقار الهائل الذي يعامل به المستبد الكبير رجال حاشيته.

(٦) كانت جريدة أجنبية من فيينا هي «نيو فري بريس» قد قدمت التأملات النفسية التالية بخصوص فردينان دي ليسپس، وهي على قدر كبير من الدقة والذكاء، ولهذا السبب فسوف أوردها هنا:

«بعد إدانة فردينان دي ليسيس لم يعد من حقنا أن ندهش للنهاية الحزينة التي لقيها كريستوف كولومبس. فإذا كان فردينان دي ليسپس عبارة عن نصّاب، فإن كل وهم نبيل هو عبارة عن جريمة. ولو أنه عاش في العصور القديمة اليونانية أو الرومانية لكُلِّلت ذكراه بأكاليل المجد، ولشربت كأس الرحيق على شرفه وسط الأولمبيا. ذلك أنّه غيَّر وجه الأرض وأنجز أعمالاً تكمل بدعة الخلق. إن رئيس محكمة الاستئناف إذ أدان فردينان دي ليسپس قد خلَّد نفسه، وذلك لأن الشعوب تطلب دائماً اسم الرجل الذي لا يتورع عن الحط من قدر قرنه وعصره عندما يحكم بالأحكام الشاقة على رجل عجوز كانت حياته تمثل مجداً لمعاصريه. وإذن فنرجو أن يكفوا الحديث عن العدالة الصارمة عندما لا يكون هناك إلا الحقد البيروقراطي ضد المنجزات الكبرى الجريئة. فالأمم بحاجة إلى هؤلاء الرجال المقدامين المؤمنين بأنفسهم والذين يجتازون كل العقبات دون المبالاة بمصالحهم الشخصية. فالعبقرية لا يمكنها أن تكون حذرة، والحذر لا يمكنه أبداً أن يوسع من دائرة الفعالية البشرية. (. . .) لقد عرف فردينان دي ليسپس نشوة الإنتصار ومرارة الخيبات في السويس وباناما على التوالي. وهنا نجد القلب يثور ضد أخلاقية النجاح. فعندما نجح دي ليسپس في الوصل بين بحرين فإن الملوك والأمم حيّوا مجده وشرفه. وأما اليوم فقد فشل أمام صخور كورديير، فلم يعد إلا نصّاباً حقيراً. . . أننا نجد هنا حرباً طبقية للمجتمع، ونقمة البيروقراطيين والموظفين الذين ينتقمون بواسطة القانون المجرم ضد أولئك الذين ينبغي أن يرتفعوا فوق مستوى الآخرين. . . فالمشرّعون المحدثون يجدون أنفسهم محرجين أمام هذه الأفكار الكبرى للعبقرية البشرية. والجمهور أكثر غباء من القضاة. وبالتالي فمن السهل على المحامي العام أن يبرهن على أن ستانلي هو قاتل، وأن دي ليسپس ليس إلا نصاباً وغشاشاً».

الفصل الرابع

(١) أقصد برابرة بالمعنى الفلسفي للكلمة. ولكنها خلقت من الناحية العملية حضارة جديدة كلياً وجعلت الإنسان يحلم لقرون طويلة بتلك الجنات البهيجة المشكلة من الحلم والأمل والتي لن يعرفها بعد اليوم.

ـ المقصود بأساطير مولوك: (Moloch): تدعى في اللغة العبرية ميليك. يعتقد بأنها آلهة كنعانية قديمة مذكورة في التوراة على أساس أنها ذات علاقة مع التضحية بالأطفال. ويعتقد الآن بأن الأمر يتعلق بضحية بشرية يتم تقديمها كقربان للآلهة بواسطة النار (المترجم).

(٢) Tibère: هو يوليوس قيصر تيبيريوس الإمبراطور الروماني الذي حكم في الفترة الممتدة بين (١٤ ـ ٣٧) بعد الميلاد (المترجم).

هوامش الكتـاب الثالث

الفصل الأول

(١) يمكن للقارىء أن يجـد التفاصيل حـول مختلف فئات الجماهير في كتبي الأخيرة: (**علم النفس السياسي، الآراء والعقائد، علم نفس الثورة**).

الفصل الثالث

(١) لنلاحظ هنا مـروراً أن هذا التقسيم أو التمييز الـذي يقوم به المحلفون غرائزياً بين الجرائم الخـطرة اجتماعياً والجرائـم الأخـرى ليس عارياً عن الصحة. فهـدف القوانين المجرمة ينبغي أن يـكون حماية المجـتمع ضـد المجرمين وليس الإنتقـام له. ولكننا نلاحـظ أن قوانيننا ثم بشكل أخـص الروح التي تسيِّر قضاتنا لا تزال متأثـرة بـروح الانتقـام الخاصة بالقانون البـدائي العتيق. فلا يـزال مصطلح الانتقـام مستخـدماً يومياً حـتى الآن. ولدينا البرهـان على وجـود هذا الاتجـاه لـدى القضاة في رفض الكثيرين منهـم تطبيق قانون بيرانجـيه الممتاز الـذي يسمح للمدان بتجـنب المعاقبة إلا إذا كـرر الجـرم. هـذا مع العلم أنه لا يمكن لأي قاضٍ أن يجهـل أن تطبيق العقوبة الأولى يؤدي بشكل شبه محـتوم إلى تـكرار الجرم. والإحصاءات تثبت ذلك. فالقضاة الـذين يطلقون سـراح مذنب ما يتوهمون أنهم لم ينتقموا للمجـتمع ولم يقتصوا لعدالته. فبدلاً من الانتقـام له يفضلون أن ينتجـوا مذنباً خطيراً.

(٢) إن مـؤسسة القضاء تمثل في الواقع الإدارة الوحيـدة التي لا تتعرض أعمالها لأي مراقبة أو ضبط. وكـل ثورات فرنسا الديمقراطية لم تستطع أن تفرض عليها قـانون الأمر بالمثول الـذي تفتخر به إنكلتـرا كثيراً. (المقصود أمر قضائي بالتحـقيق في قانونية سجـن شخص معتقل). لقد أسقطنا الطغاة، ولكننا نجـد في كـل مدينة قاضياً يتحـكم على هـواه بشرف المواطنين وحريتهم. فأصغر قاضي تحـقيق خـارج لتوه من مـدرسة الحـقوق يمتلك السلطة المجحـفة في إرسال أكبر المواطنين إلى السجـن بناء على مجـرد الإفتـراض بالذنب، دون أن يحـتاج إلى استشارة أحـد أو يقدم أي تبرير لأحـد. ويمكنه أن يبقيهم ستة أشهـر في السجـن أو حـتى سنة كاملة بحجـة التحـقيق، ثم يخـرجهم بعد ذلك دون أن يقـدم لهم أي تعويض أو اعتـذار بعد التأكد من بـراءتهم. إن أمر الإحـضار يساوي الأمر التعسفي بالنفي أو بالسجـن مع فارق واحـد هو أن هـذا الأخـير الـذي ظَالما عابـوه على النظام الملكي لم يكنْ يستخدم إلا من قبل كبار الشخصيات، هذا في حين أنه قد أصبح اليوم في متنـاول أيدي طبقة كاملة من المواطنين. ولا يمكن اعتبارها إطلاقاً الطبقة الأكثر استنارة واستقلالية.

الفصل الرابـع

(١) إن اللجـان المذكورة أياً يـكن اسمها: نـوادي، نقابات، إلخ... تشكل أحد أكبر الأخطار الناتجة عن قـوة الجماهير وجبروتها. فهي تمثل، في الواقع، الصيغة الأكثر غُفْلاً وإبهـاماً (أي لا شخصيةً) وبالتـالي الأكثـر قمعاً وطغياناً. وبما أنه يفترض في القادة المحركين للجـان أنهم يتحـدثون ويفعلون بـاسم الجماعة فـإنهم يتملصون من كـل مسؤوليـة شخصية ويستطيعـون أن يفعلوا أي شيء. والطاغية الأكثر عنفاً لم يجـرؤ أبـداً على أن يحـلم بتطبيق أوامر الحظـر والمنع التي تمارسها اللجـان الثورية. فـكما قـال بـاراس لقد ألغوا الجمعية التـأسيسية وفرضوا عليها الخوّة. وكـان روبسبيير حاكماً مطلق الصلاحية ما دام يتحـدث باسم هذه اللجـان. وفي الـيوم الـذي انفصل فيه الديكتـاتور المرعـب عنها لأسباب تتعلق بالكرامـة الشخصية فـإنه قد وقّع وثيقة موتـه. إن حـكم الجماهير هـو حـكم اللجـان وبالتالي حـكم القادة المحركين. ولا يمكننا أن نتخيـل استبداداً أرهـب من ذلك.

الفصـل الخامس

(١) لا ريب في أن العبـارة التـالية لأحـد البرلمانيين الإنكـليز تنطبق على هذه الآراء المثبتـة سابقاً والتي أصبحـت غير قابلة للمنـاقشة بسبب ضـرورات المرحـلة الإنتخابية: «منذ خـمسين سنة وأنا نائب في البرلمان (وستمنستر) وقـد سمعت آلاف الخطابات، والقليل منها أدى إلى تغيـير رأيي، ولكن أياً منها لم يـؤد إلى تغيير صوتي».

(٢) كشفت جـريدة الإيكونوميست في عـددها الصادر بتـاريخ (٦) نيسان (١٨٩٥) عما يـمكن أن تـكلفه هذه المصاريف ذات المصلحة الإنتخـابية خـلال سنة واحـدة، وخـصوصاً المصاريف المتعلقة بسكك الحـديد. فـلكي يربطوا بين «لانغيـز» (مدينة تعد ثلاثة آلاف شخـص فقط) ومعلقـة على سفح جـبل بمدينة «بي» صوتوا على قـرار مدّ سكة حـديد تكاليفها خـمسة عشر مليون فرنك. ولكي يربطوا بين «بومون» (ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص) بكاستيل سارازان بـلغت تكاليف الخـط سبعة مـلايين. ولكي يربطوا بين قرية أوس (خـمسمائة وثلاثة وعشرين شخصاً) وقرية سيكـس (ألف ومائتي شخص) بلغت تـكاليف الخـط سبعة مـلايين. ولكي يربطوا بين بـراديس وقرية أوليت (سبعمائة وسبعة وأربعين شخصاً) بـلغت تكـاليف الخط ستة مـلايين، إلخ... وقد خـصصوا بالنسبة لعام ١٨٩٥ فقط تسعون مليوناً لبنـاء سكك حديدية لا ضـرورة لها. وخـصصت مصـاريف أخـرى مشابهة لأغـراض انتخـابية محضة. والقانون الخـاص بتقاعد العمال سوف يـكلف لاحقاً مائة وخـمسة وستين مليوناً سنوياً على الأقـل. هـذا ما قـاله وزير المالية. ولكن بحـسب عضو الأكاديمية لوروا بـوالو فـإنه سيكلف ثمانمائة مـليون. وتزايد هذه المصاريف سوف يؤدي إلى الإفـلاس حتماً. وهـذا ما وصلت إليه بـلدان كـثيرة في

أوروبا كالبرتغال واليونان وأسبانيا وتركيا. وسوف تصل إليه بلدان أخرى لاحقاً. ولكن هل ينبغي أن نقلق كثيراً لذلك إذا ما عرفنا أن الجمهور قد قبل تباعاً تخفيض قسائم الدفع بنسبة أربعة أخماس في بلدان عديدة. وهذه الإفلاسات الماهرة تتيح عندئذٍ إعادة التوازن إلى هذه الميزانيات المعطوبة. فالواقع أن الحروب والإشتراكية والصراعات الإقتصادية تحضر لنا كوارث أخرى أيضاً. وفي فترة التفكك الكوني التي دخلناها ينبغي أن نقبل بالحياة يوماً ليوم دون الاهتمام بالغد الذي لا نستطيع التحكم به أبداً.

المحتويات

ـ مقدمة إلى علم النفس الاجتماعي وفكر غوستاف لوبون. بقلم هاشم صالح ٥

ـ توطئة: بقلم أوتو كلينبيرج ٣٥

ـ الإهداء ٣٩

ـ تمهيد ٤١

ـ المقدمة: عصر الجماهير ٤٣

تطور العصر الحالي ـ المتغيرات الكبرى للحضارة ناتجة عن المتغيرات الطارئة على فكر الشعوب ـ الاعتقاد الحديث بقوة الجماهير ـ إنه يغيّر السياسة التقليدية للدول ـ كيف يحصل مجيء عهد الطبقات الشعبية وكيف تمارس سلطتها وجبروتها ـ النقابات ـ الانعكاسات الضرورية لقوة الجماهير ـ لا يمكنها أن تمارس إلا دوراً هذاماً ـ وعن طريقها يكتمل انحلال الحضارات التي أصبحت عتيقة جداً ـ الجهل العام بنفسية الجماهير ـ أهمية دراسة الجماهير بالنسبة للمشرعين ورجالات الدولة.

الكتاب الأول: روح الجماهير

الفصل الأول: الخصائص العامة للجماهير. القانون النفسي لوحدتها الذهنية. ٥٣

العناصر التي تشكل الجمهور من وجهة النظر النفسية ـ تجمهر عدد كبير من الأفراد لا على التعيين لا يكفي لتشكيل جمهور ـ الصفات الخاصة للجماهير النفسية ـ التوجه الثبوتي لأفكار وعواطف الأفراد الذين يشكلونهم وذوبان شخصيتهم فيها ـ اللاوعي يهيمن دائماً على الجمهور ـ إمحاء الحياة الدماغية أو العقلية وهيمنة الحياة النخاعية ـ انخفاض مستوى الذكاء والتحول الكامل في العواطف ـ العواطف المتحولة يمكنها أن تكون أفضل أو أسوأ من عواطف الأفراد الذين يشكلون الجمهور ـ الجمهور يمكنه أن يكون بطولياً أو مجرماً.

الفصل الثاني: عواطف الجماهير وأخلاقيتها ٦٣

١ ـ سرعة انفعال الجماهير وخفتها ونزقها ـ الجمهور هو ألعوبة لكل المحرضات التي يعكس تقلباتها المستمرة ـ الدوافع التي يخضع لها هي القوة والهيمنة بحيث أن المصلحة الشخصية للفرد تمحي أمامها ـ لا شيء متعمد قصداً لدى الجماهير ـ تأثير العرق.

٢ ـ سرعة تأثر الجماهير وسذاجتها وتصديقها لأي شيء ـ خضوعها للمحرضات ـ الصور المثارة في ذهنها معتبرة كحقائق واقعة بالنسبة لها ـ لماذا تكون هذه الصور واحدة بالنسبة للأفراد الذين يشكلون جمهوراً معيناً ـ تساوي العالم والجاهل في الجمهور ـ أمثلة مختلفة على الأوهام التي يخضع لها كل أفراد جمهور ما ـ استحالة إعطاء أي مصداقية لشهادات الجماهير ـ إجماع الشهود العديدين يمثل أسوأ برهان على التأكد من صحة واقعة ما ـ القيمة الضعيفة لكتب التاريخ.

٣ ـ تضخيم عواطف الجماهير وتبسيطها ـ الجماهير لا تعرف الشك أو عدم اليقين، وهي دائماً تذهب إلى الحدود القصوى ـ عواطفها دائماً متطرفة.

٤ ـ تعصب الجماهير واستبداديتها ونزعتها المحافظة ـ أسباب هذه العواطف أو المشاعر ـ عبودية الجماهير أمام السلطة القوية ـ الغرائز الثورية المؤقتة للجماهير لا تمنعها من أن تكون محافظة جداً جداً ـ فهي بالغريزة معادية للتغير والتقدم .

٥ ـ أخلاقية الجماهير ـ يمكن لأخلاقية الجماهير، طبقاً لأنواع التحريضات، أن تكون أكثر انخفاضاً أو أكثر علواً من أخلاقية الأفراد الذين يشكلونها مأخوذين على حدة ـ شرح ذلك وأمثلة عليه ـ نادراً ما تكون المصلحة هي التي تقود الجماهير، هذا في حين أنها تشكل غالباً الدافع الكلي للفرد المعزول ـ الدور التهذيبي للجماهير.

الفصل الثالث: أفكار، محاجات عقلية، مخيَّلة الجماهير ٨١

١ ـ أفكار الجماهير ـ الأفكار الأساسية والأفكار الثانوية ـ كيف يمكن للأفكار المتناقضة أن تتواجد بشكل متزامن في الجماهير ـ التحويرات التي ينبغي أن تتعرض لها الأفكار العليا لكي تصبح في متناول الجماهير ـ الدور الاجتماعي للأفكار مستقل عن جانب الحقيقة التي يمكن أن تحتوي عليه.

٢ ـ المحاجات العقلية للجماهير ـ لا يمكن التأثير على الجماهير عن طريق المحاجات العقلية ـ المحاجات العقلية للجماهير هي دائماً من مستوى أدنى ـ الأفكار التي تربط بينها ليست مترابطة فعلياً وإنما هي ذات مظهر يدل على التشابه أو التتابع.

٣ ـ مخيَّلة الجماهير ـ قوة مخيلة الجماهير ـ الجماهير تفكر بواسطة الصور، وهذه الصور تتلاحق بدون أي رابطة ـ الجماهير تتأثر بشكل خاص بالجانب العجيب والساحر للأشياء ـ العجيب الساحر والخرافي هما الدعامتان الحقيقيتان للحضارات البشرية ـ المخيلة

الشعبية كانت دائماً هي أساس قوة رجالات الدولة ـ كيف تتجلى الوقائع القادرة على التأثير على مخيلة الجماهير.

الفصل الرابع: الأشكال الدينية التي تتلبسها كل قناعات الجماهير ٩١

ما يشكل العاطفة الدينية ـ إنها مستقلة عن عبادة آلهة معينة ـ خصائصها ـ قوة القناعات التي تتخذ الصيغة الدينية ـ أمثلة متنوعة ـ الآلهة الشعبية لم تختف أبداً ـ الأشكال الجديدة التي تولد عليها ـ الأشكال الدينية للإلحاد ـ أهمية هذه المفاهيم من وجهة نظر تاريخية ـ الإصلاح الديني، مجزرة سان بارتيليمي، فترة الارهاب أثناء الثورة الفرنسية وكل الأحداث المشابهة ناتجة عن العواطف الدينية للجماهير وليس عن إرادة الأفراد المعزولين.

الكتاب الثاني: آراء الجماهير وعقائدها

الفصل الأول: العوامل البعيدة لعقائد الجماهير وآرائها ٩٩

العوامل التحضيرية لعقائد الجماهير ـ تفتح عقائد الجماهير هو نتيجة لعمل بطيء ونضج سابق ـ دراسة العوامل المختلفة لهذه العقائد.

١ ـ **العرق** ـ التأثير المهيمن الذي يمارسه ـ إنه يمثل الاقتراحات التحريضية للأسلاف.

٢ ـ **التقاليد والأعراف** ـ إنها تجسد خلاصة روح العرق ـ الأهمية الاجتماعية للتقاليد ـ كيف انها تصبح ضارة بعد أن كانت ضرورية ـ الجماهير هي القوى المحافظة الأكثر عناداً على الأفكار التقليدية.

٣ ـ **الزمن** ـ إنه يقوم بالتهيئة لترسيخ العقائد في الأذهان، ثم تدميرها على التوالي ـ وبفضله يمكن للنظام أن يخرج من رحم الفوضى.

٤ ـ **المؤسسات السياسية والاجتماعية** ـ فكرة خاطئة عن دورها ـ تأثيرها ضعيف جداً ـ إنها آثار ناتجة، ولكنها ليست أسباباً ـ الشعوب لا تعرف أن تختار المؤسسات التي تبدو لها الأفضل ـ المؤسسات هي عبارة عن اتيكيت تجمع أشياء مختلفة جداً تحت نفس العنوان ـ كيف يمكن خلق الدساتير ـ حاجة بعض الشعوب لبعض المؤسسات السيئة نظرياً، كحكم المركزية مثلاً.

٥ ـ **التعليم والتربية** ـ خطأ الأفكار الحالية حول تأثير التعليم على الجماهير ـ معلومات إحصائية ـ الدور المثبِّط للتعليم والتربية الخاصة بالعرق اللاتيني ـ الدور الذي قد يمارسه التعليم ـ الأمثلة التي تقدمها الشعوب المختلفة.

الفصل الثاني: العوامل المباشرة التي تساهم في تشكيل آراء الجماهير ١١٥

١ ـ الصور والكلمات والعبارات (أو الشعارات) ـ القوة السحرية للكلمات والعبارات ـ قوة الكلمات مرتبطة بالصور التي تثيرها ومستقلة عن معناها الحقيقي ـ هذه الصور تختلف من عصر إلى عصر ومن عرق إلى عرق ـ تلف الكلمات أو استهلاكها ـ أمثلة على المتغيرات الكبيرة التي تصيب معنى بعض الكلمات المستخدمة كثيراً ـ الفائدة السياسية لتعميد أشياء قديمة بأسماء جديدة عندما تكون الكلمات القديمة التي نسميها بها تولد انطباعاً سيّئاً على نفوس الجماهير ـ تنوّع معنى الكلمات بحسب العرق ـ المعنى المختلف لكلمة ديمقراطية في أوروبا وأمريكا.

٢ ـ **الأوهام** ـ أهميتها ـ نحن نجدها في قاعدة كل الحضارات ـ الحاجة الاجتماعية للأوهام ـ الجماهير تفضلها دائماً على الحقيقة.

٣ ـ **التجربة** ـ التجربة وحدها يمكنها أن ترسخ في روح

الجماهير حقائق أصبحت ضرورية، وتدمر الأوهام التي أصبحت خطرة ـ التجربة لا تفعل فعلها إلا بشرط أن تتكرر كثيراً ـ ما تكلفه التجارب الضرورية من أجل إقناع الجماهير.

٤ ـ **العقل** ـ انعـدام تأثيره على الجماهير ـ لا يمكن التأثير على الجماهير إلا إذا أثرنا على عواطفها اللاواعية ـ دور المنطق في التاريخ ـ الأسباب السرية للأحداث التي لا تكاد تصدق.

الفصل الثالث: محركو الجماهير ووسائل الاقناع التي يمتلكونها . ١٢٧

١ ـ محركو الجماهير ـ الحاجة الغرائزية لكل الكائنات المنخرطة في الجمهور لأن تخضع لأحـد القادة المحركين ـ نفسية المحركين ـ وحدهم هم القادرون على خلق الإيمان وتأسيس منظمة ما للجماهير ـالاستبداد الاجباري للمحركين ـ تصنيف أنواع المحركين ـ دور الارادة .

٢ ـ وسائل العمل التي يستخدمها المحركون أو القادة: التأكيد، التكرار، العدوى ـ دور هذه العوامل الثلاثة ـ كيف يمكن للعدوى أن تنتشر من الطبقات الدنيا وترتفع نحو الطبقات العليا في المجتمع ـ كيف يصبح الرأي الشعبي رأياً عاماً بسرعة.

٣ ـ الهيبة الشخصية ـ تحديد الهيبة الشخصية وتصنيفها ـ الهيبة المكتسبة والهيبة الذاتية أو الشخصية ـ أمثلة متنوعة على ذلك ـ كيف تموت الهيبة الشخصية.

الفصل الرابع: محدودية تغيُّر كل من عقائد الجماهير وآرائها ١٤٥

١ ـ العقائد الثابتة ـ عدم تغيرُّ بعض العقائد العامة ـ إنها تمثل الدليل الهادي للحضارة ـ صعوبة اقتلاعها بعد انغراسها ـ ما هي ميزة التعصب التي تجعل منه فضيلة

بالنسبة للشعوب ـ العبثية الفلسفية لعقيدة إيمانية عامة لا تؤثر على انتشارها وتوسعها.
٢ ـ الآراء المتحركة للجماهير ـ الحركية الهائلة للآراء التي ليست متفرعة عن العقائد الإيمانية العامة ـ التغير الظاهري للأفكار والعقائد في أقل من قرن ـ التخوم الحقيقية لهذه المتغيرات ـ العناصر التي أثر عليها التغير ـ الاختفاء الحالي للعقائد الايمانية العامة والانتشار الهائل للصحافة يجعلان الآراء كثيرة التغير والتحرك في أيامنا هذه ـ كيف أن آراء الجماهير تميل إلى اللامبالاة بخصوص معظم المواضيع ـ عجز الحكومات عن قيادة الجمهور كما كانت تفعل في السابق ـ التفتُّت الحالي للآراء يمنع استبداديتها وطغيانها.

الكتاب الثالث: تصنيف الفئات المختلفة من الجماهير ودراستها

الفصل الأول: تصنيف الجماهير ١٥٧

التقسيم العام للجماهير ـ تصنيفها:
١ ـ الجماهير غير المتجانسة ـ كيف تتمايز وتختلف ـ تأثير العرق ـ تكون روح الجمهور أضعف كلما كانت روح العرق أقوى ـ روح العرق تمثل حالة الحضارة وروح الجمهور حالة البربرية.
٢ ـ الجماهير المتجانسة ـ تقسيم الجماهير المتجانسة ـ الطوائف والزمر والطبقات.

الفصل الثاني: الجماهير المدعوة بالمجرمة ١٦١

الجماهير المدعوة بالمجرمة ـ يمكن لجمهور ما أن يكون مجرماً من الناحية القانونية وليس من الناحية النفسية ـ اللاوعي الكامل لأعمال الجماهير ـ أمثلة متنوعة ـ تحليل نفسية الأيلوليين (إحدى جماعات الثورة الفرنسية ـ

محاجاتهم العقلية وحساسيتهم وضراوتهم وأخلاقيتهم.

الفصل الثالث: محلَّفو محكمة الجنايات ١٦٧

محلفو محكمة الجنايات ـ الخصائص العامة للمحلفين ـ الاحصائيات تبين أن قراراتهم مستقلة عن تركيبتهم ـ كيف يمكن التأثير على المحلفين ـ التأثير الضعيف للحاجة العقلية عليهم ـ أساليب الاقناع التي يستخدمها المحامون الشهيرون ـ طبيعة الجرائم التي يتسامح تجاهها المحلفون أو يتشددون ـ فائدة وجود هيئة المحلفين والخطر الكبير إذا ما استبدلت بالقضاة.

الفصل الرابع: الجماهير الإنتخابية ١٧٣

الخصائص العامة للجماهير الانتخابية ـ كيف يتم إقناعها ـ الخاصية التي ينبغي أن يتحلى بها المرشح ـ ضرورة وجود الهيبة الشخصية ـ لماذا لا يختار العمال والفلاحون مرشحهم من بين صفوفهم إلا نادراً ـ مدى تأثير الكلمات والصياغات التعبيرية على الناخب ـ فكرة عامة عن المناقشات الانتخابية ـ كيف تتشكل آراء الناخب ـ قوة اللجان وجبروتها ـ إنها تمثل الصيغة الأكثر إرهاباً من الطغيان ـ لجان الثورة الفرنسية ـ على الرغم من قيمته النفسية الضعيفة فإنه لا يمكن التخلي عن حق التصويت العام ـ لماذا يظل التصويت متماثلاً حتى لو قلصنا حق التصويت وحصرناه بعدد محدود من المواطنين ـ ما يعبر عنه حق التصويت العام في كل البلدان.

الفصل الخامس: المجالس البرلمانية ١٨٣

الجماهير البرلمانية تجسد معظم الخصائص المشتركة لدى الجماهير المغفلة غير المتجانسة ـ تبسيطية الآراء ـ قابلية التحريض وحدود هذه القابلية ـ الآراء الثابتة النهائية

والآراء المتحركة أو المتغيرة ـ لماذا يهيمن التردد واللايقين ـ دور المحركين أو القادة ـ سبب هيبتهم الشخصية ـ إنهم السادة الحقيقيون للمجلس النيابي وبالتالي فـإن الأصوات محصورة بأقلية ـ القدرة المطلقة التي يمارسونها ـ عناصر فنها الخطابي ـ الكلمات والصور ـ ينبغي أن يتحلّى المحركون من الناحية النفسية بالاقتناع الكامل والعناد ـ لا يمكن للخطيب الذي لا يتحلى بالهيبة الشخصية أن يقنع الآخرين بآرائه ـ المبالغة سمة العواطف السائدة في المجالس النيابية سواء أكانت طيبة أم شريرة ـ الإرادة المشلولة التي تصل إليها في بعض اللحظات ـ جلسات الجمعية الوطنية أثناء الثورة الفرنسية ـ الحالات الخاصة التي تفقد فيها المجالس النيابية خصائص الجمهور ـ تأثير الاختصاصيين على المسائل التقنية ـ ميزات النظام البرلماني وأخطاره في كل البلدان ـ إنه يتلاءم مع الحاجيات الحديثة، ولكنه يؤدي إلى تبذير أموال الميزانية والتقليص التدريجي لكل الحريات ـ خاتمة.

الحواشي ٢٠١

يرى غوستاف لو بون أن الجماهير لا تعقل، فهي ترفض الأفكار أو تقبلها كلاً واحداً، من دون أن تتحمل نقاشها أو مناقشتها. فما يقوله لها الزعماء يغزو عقلها سريعاً فتتجه إلى أن تحوله حركة وعملاً، وما يوحى به للجماهير ترفعه إلى مصاف المثال ثم تندفع به، في صورة إرادية، إلى التضحية بالنفس.

إنها لا تعرف غير العنف الحاد شعوراً، فتعاطفها لا يلبث أن يصير عبادة، ولا تكاد تنفر من أمر ما حتى تسارع إلى كرهه.

وفي الحالة الجماهيرية تنخفض الطاقة على التفكير، ويذوب المغاير في المتجانس، بينما تطغى الخصائص التي تصدر عن اللاوعي.

وحتى لو كانت الجماهير علمانية، تبقى لديها ردود فعل دينية، تفضي بها إلى عبادة الزعيم، وإلى الخوف من بأسه، وإلى الإذعان الأعمى لمشيئته، فيصبح كلامه دوغما لا تناقش، وتنشأ الرغبة إلى تعميم هذه الدوغما. أما الذين لا يشاطرون الجماهير إعجابها بكلام الزعيم فيصبحون هم الأعداء.

لا توجد الجماهير من دون قائد. والعكس صحيح أيضاً، إذ لا يوجد قائد من دون جماهير، كما كتب لو بون قبل قرن من الزمن.

هذه الآراء راهنة اليوم، كما في الأمس، خصوصاً في العالم العربي حيث لا تزال الجماهير حائلاً دون ظهور العقل العاقل وطرد الغرائز.

ISBN 1 85516 815 4

DAR AL SAQI
26 Westbourne Grove. London W2 5RH